

١٥٨٦٢
مستويات
العربية المعاصرة
في مصر

١٥
بمبحث
في علاقة اللغة بالحضارة

تأليف

الركنز السيد محمد بدوي

ماجستير ودكتوراه علم اللغة والأصوات - جامعة لندن
أستاذ مساعد بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

phonetics-acoustics.blogspot.com



دار المعارف بمصر

« إن النهضة اللغوية هي في الحقيقة نوع من النهضة
الاجتماعية الشاملة التي تتطلع إليها الشعوب الحديثة
في الشرق » .

لويس ماسينيون

عن المنهج

لم تكن الدراسات العربية أحوج ما تكون إلى المنهج العلمي منها في الوقت الحاضر .
فارتباط الفصحى بالقرآن منذ فجر الإسلام ، ثم ارتباطها بالقومية العربية في العصر
الحديث جعل رؤية واقع اللغة ، ودراسة هذا الواقع كما هو - وخاصة المسائل
الخلافية كسألة الفصحى والعامية - جعل كل ذلك من أشق الأمور على الباحث
العربي المسلم . وقد نشأت في هذا الميدان - طيلة التاريخ الطويل المتصل من حياة اللغة
العربية - أفكار بعضها صحيح وبعضها فاسد غير أن توارثها جيلا بعد جيل - دون
أن نجد من يتفحصها تفحصاً موضوعياً - أعطاها قرة القانون ، وغرسها في الضمائر ،
بل وأحاطها بجز يشبه التقديس الدني إلى حد أصبحت تعامل معه معاملة المسلمات
التي يبني عليها الاستدلال وتبدأ منها المناقشة بدلا من أن تخضع هي أولا - كما
ينبغي - للفحص والتمحيص .

والدراسات العربية مملوءة بمثل هذه المشاكل . ولكن ما يعيننا منها هنا هو واقع
العربية في مصر اليوم . فهدف هذا البحث هو بيان التركيب اللغوي للمجتمع المصري
المعاصر . ووسيلتنا إلى ذلك هي باستخدام المنهج العلمي الذي يقوم على الاستقراء
والملاحظة . أو بعبارة أخرى إخضاع الدرس العربي لمناهج البحث اللغوي الحديث .
وهذا ليس بالأمر الهين . فقد درجتنا على وجود الانفصال بين فكرتنا أو مسلمتنا عن
التركيب اللغوي للمجتمع المصري ، وطريقتنا في استخلاص هذه الأفكار من ناحية
وبين الأصول اللغوية العلمية التي نعتنقها وتدارسها من ناحية أخرى .

فتلا من الأفكار الشائعة التي تصل درجة المسلمات أن التركيب اللغوي للمجتمع
المصري يقوم على محورين : الفصحى في أقصى اليمين والعامية في أقصى اليسار ،
دون أن يكون بينهما أي لقاء « مشروع » أو حتى لقاء غير مشروع . صحة مطلقة
في ناحية وخطأ مطلق في الأخرى ، أبيض وأسود ، ولا شيء بينهما يكسر حدة الانتقال
من الواحد إلى الآخر . وحتى في الحالات القليلة التي رأى فيها البعض إمكان وجود

شيء ذي صلة أو جسر بينهما كما حدث عندما نادى توفيق الحكيم بالتمط المترسط الذي سماه باللغة الثالثة - في تلك الحالات القليلة لم ير هذا البعض في تلك اللغة واقعاً موجوداً بل تخيل ذلك دعوة أو محاولة لإيجاد شيء ليس موجوداً فعلاً^(١).

ومع ذلك فالأصول اللغوية العلمية التي تؤمن بها وتدرسها في الجامعة ، بل وتأخذها قضية مسلماً بها أيضاً - هذه الأصول تتناقض مع تلك الأفكار المتعلقة بالعربية وتقوم على أساس هام هو استحالة الفصل بين أركان النشاط اللغوي داخل المجتمع الواحد سواء على الامتداد الرأسي أو الامتداد الأفقي للغة . فنحن ندرس أن النشاط اللغوي يمتد أفقياً داخل المجتمع ويتنوع فيما يسمى باللهاجات الجغرافية (مثل لهجة الشرقية ولهجة دمياط . . . إلخ) تلك التي تتدرج جزئاً إلى جنب متداخلة من أول نقطة على الحدود الجغرافية للمنطقة موضوع الدراسة إلى أقصى نقطة على حدودها الأخرى . كما ندرس أيضاً أن النشاط اللغوي في أي نقطة جغرافية محددة يمتد رأسياً ويتنوع فيما يسمى باللهاجات الطبقة (مثل لهجة العوام ولهجة المتعلمين . . . إلخ) تلك التي تتراكب متداخلة بعضها فوق بعض من أدنى مستوى طبقي يمثله معدمو العوام صعوداً إلى أعلى مستوى طبقي يمثله صمغرة المثقفين مارين في صعودنا بمستويات الأنصاف وأنصاف الأنصاف وأنصاف الأنصاف . . . إلخ .

وبعد أن نقرر واقعية هذه الصورة نسارع بالقول بأنه لا يمكن علمياً أن نضع خطاً محدداً يعين الحدود المادية التي تفصل بين لهجة أو لون من الخطاط ولون آخر سواء على الامتداد الأفقي أو الرأسي . فالحد الجغرافي الإداري بين الوجهين البحري والقبلي مثلاً يمتد ماراً فوق نقاط أرضية كثيرة منها الخط العرضي الذي يقسم « كوبرى » امبابية إلى قسمين متساويين . ومع ذلك فنحن لا نحتاج إلى البرهنة على أن الذي ينتقل من أحد طرفي الكوبري إلى طرفه الآخر لن يجد الناس يتكلمون لهجة « البحارة » في جانب ولهجة « الصعايدة » في الجانب الآخر . ولكن لو ركب أحدنا قطار الصعيد من محطة القاهرة ثم راح في سبات عميق لم يفق منه إلا في أسبوط مثلاً فبروحه الفرق

(١) أنظر مسرحية « الصفقة » لتوفيق الحكيم حيث يقول « كان لا بد لي من تجربة ناعقة لإيجاد لغة صحيحة لا تخالف قواعد القصص وهي في نفس الوقت مما يمكن أن يطلقه الأشخاص ولا يبان طبايعهم ولا جواهرهم . ص ١٥٧ - ١٥٨

الواضح في اللهجة بين من خلفهم ورائه في القاهرة وبين من أصبح في وسطهم بعد استيقاظه : فأين إذن الحد بين اللهجتين ؟

ومثل ذلك يصدق على الانتقال « أو الصعود ، رأسياً : فليس هناك حد واقعي أو قاعدة حقيقية تقسم الناس جميعهم إلى قسمين واضحين مثقف وغير مثقف (كما لم يكن هناك خط واقعي يفصل بين لهجتى الصعيد والوجه البحري على الرغم من وجود الخط الإداري) . ذلك أن الناس يتدرجون في صفة الثقافة صعوداً أو هبوطاً حسب الانجاه . فكل إنسان فيه قدر من الثقافة وفيه في الوقت ذاته قدر من عدم الثقافة . ومن غير الممكن عملياً أن نضع الخط الفاصل بين الطبقتين في نقطة محددة . حقيقة نستطيع أن تأخذ نقطة في أعلى السلم ، الثقافة وأخرى في أسفله مثلاً (كما فعلنا في حالة القاهرة وأسبوط) ونقول إن هذه درجة المثقفين وتلك درجة غيرهم . وتعكس هذه الصورة وضع اللهاجات الطبقة التي ترتبط بالثقافة وتتدرج تدرجها . ولعل هذا (أى التدرج اللغوي الذي لا يكاد يحس) هو السبب في أننا جميعاً نستطيع التفاهم معاً مثقفين وغير مثقفين وصعايدة وبجاورة على السواء .

هذه بعض القواعد اللغوية التي نقتضى بها وتدرسها في الجامعات ، بل وخارج الجامعات أيضاً . ولكننا - ولا أدري لذلك سبباً علمياً - لا نطبقها على الواقع المعاصر للغة العربية . فكيف نستطيع أن نعالج قضايا لغة لم ندرسها كما هي في الواقع ؟ ومن هنا يأتي دور هذا البحث .

إن المجتمع المصري مجتمع بالغ التعقيد في كل مظاهره ومقوماته . ومن ثم كانت لغته أيضاً بالغة التعقيد في كل مظاهرها ومقوماتها . (ألسنا نقول في دراساتنا اللغوية إن اللغة تعكس طبيعة المجتمع الذي يستخدمها ؟) :

فنحن نصل بالعربية ، ونعلم بالعربية ، ونؤلف بالعربية ، ونقرأ بالعربية ، ونكتب بالعربية ، ونحاضر بالعربية ، ونتناقش بالعربية ، ونفصح بالعربية ، ونفزع بالعربية ، ونشاجر بالعربية ، وننواد بالعربية ، ونسكى بالعربية ، ونسبح بالعربية ، ونشترى بالعربية ، ونغش بالعربية ، ونصنع بالعربية ، ونكذب بالعربية ، ونصدق بالعربية ، ونكره بالعربية ، ونحب بالعربية ونهم بكل نشاط لنا في المجتمع باللغة العربية .

« نحن » هذه ذات ألوان مختلفة : فنا المتعلمون بأنواعهم المختلفة من خريجي الأزهر ، وخريجي المدارس الخاصة من إيطالية وإنجليزية وفرنسية وألمانية ويونانية من دينة وعلمانية، وخريجي المدارس الحكومية. ومنا خريجو الجامعات المصرية، والجامعات الأوروبية والأمريكية . . . إلخ . ومنا المهندسون والمحامون والمدرسون والأطباء والقضاة، والزراعيون والعلماء والموظفون والتجار . ومنا الحرفيون من حلاقين ونجارين وحدادين وصمكريه وميكانيكيين وسباكين وبنائين وترزية وكواخين وميضيين . . . إلخ . ومنا الأميون وأنصاف الأميين من خدم وصعاة وبائعي خضروات و « روباكياء » ، وزبالين وكسارية ترام وأوتيس شرطة . . . إلخ مما لا يحصيه عددهما طال . وفي داخل كل قطاع من هذه القطاعات يتدرج أفراده في اتجاهات عدة من حيث درجة التعليم ودرجة الذكاء والسن والنوع (ذكر أو أنثى) والمنطقة الجغرافية التي نشأ فيها والتي نزع إليها والمنطقة التي يضطر للسكنى فيها والتي يضطر للعمل فيها والطبقة التي نشأ فيها والتي انتقل إليها بمجهوده الخاص والناس الذين يتخالطهم بالزواج أو العمل ، واللهجة التي يضطر لاستخدامها في العمل والأخرى التي يضطر لاستخدامها في المنزل . . . إلخ .

فإذا ما ضربنا كل أنواع « نحن » هذه (ما ذكرناه منها وما لم نذكره) في كل ألوان النشاط التي ذكرنا نموذجاً منها (ولا يمكن أن يتم ذلك إلا بالحاسب الإلكتروني) فنستخرج بأنماط أو درجات أو طبقات من اللغة قد تصل إلى عدة ملايين . فكيف يحق لنا أن نتناسى كل ذلك ونهمله ثم نقول إن لدينا تعطين فقط من اللغة : العامية والقصحى ؟ وكيف نتنظر بعد ذلك أن يكون علاجنا القائم على وصفنا الناقص للظاهرة اللغوية علاجاً كاملاً ومفيداً ؟

إننا لو أردنا وصف الواقع اللغوي كما هو فلا بد أولاً من تقسيم القطر أقطاباً إلى لهجات جغرافية ثم نصف كل واحدة من هذه اللهجات تصنيفاً رأسياً - طبقاً للعوامل التي أشرنا إليها - وترتيباً في أنماط لغوية واحدة فوق الأخرى . وتربطاً لهذه الصورة المعقدة للواقع اللغوي - قد نستطيع أن نتصور هذه الأنماط اللغوية المائلة - في منطقة مثل القاهرة مثلاً - مندرجة وكأنها فوق سلم ذي عدد لا يكاد يحصى من الدرجات . وأعلى درجة في السلم تمثل تمام « الصحة اللغوية » . طبقاً للوصف الذي جازمنا به علماء التراث بينما ترتب بقية الأنماط في تنازل تدريجي إلى أن تصل إلى

أدنى درجة ممكنة حيث تستقر أدنى الأنماط اللغوية المستخدمة في المجتمع وأقلها شيئاً بالنمط الذي يمثل الدرجة العليا .

إننا لو أخذنا الوصف الذي لجأنا به علماء التراث الأقدمون « للفصحى الثقية » واعتبرناه بداية الحد الأعلى في الصحة اللغوية ثم مرزنا به على طول السلم اللغوي المذكور مقارنين به كل إنتاج لغوي واقعي سواء بالكتابة أو بالمشافهة فنستخرج بملاحظة تستحق الاهتمام هي أننا سنجد أنفسنا نتدرج في مستويات أو طبقات من اللغة متراكبة بعضها فوق بعض لا يفصل الواحدة منها عن الأخرى سوى بعض الملامح الثانوية التي لا تشكل أساساً كافياً للفصل بينها وبين الطبقة التي تليها . تماماً كما يحدث لو غصنا في مياه المحيط إذ تنتقل من طبقة إلى أخرى دون أن نرى هناك فواصل بينها تفصلها بعضها عن بعض . ليس هذا فقط بل إننا لو التزمنا بالواقع اللغوي وتنايسنا الاصطلاحات التي درجنا عليها فإننا لن نجد فاصلاً واضح المعالم في تدرجنا مما يسمى بالفصحى إلى ما يسمى بالعامية . بمعنى أننا لن نجد نقطة محددة نستطيع أن نضع فيها الحد الفاصل بينهما . تماماً كما عجزنا عن تعيين نقطة نقيم فيها الحدود بين لهجتي الوجه البحري والصعيد (وأن كان ذلك على امتداد آخر) .

وليس معنى ذلك أنه لا توجد فروق أساسية بين العامية والقصحى . بل معنى ذلك أنه لو أردنا أن نرى الفروق فيكون علينا أن نقارن بين منطقة « أعلى السلم » بمنطقة « أسفله » (كما فعلنا حينما قارنا بين لهجتي القاهرة وأسوط) وإن كنا لا نفعل في الوقت ذاته حقيقة وجود الدرجات التي تصل بين اللغتين ، بل ومشروعية الاعتراف بوجود هذه الدرجات ودورها في إبقاء الصلة اللغوية بين أبناء الوطن الواحد قائمة .

ولنأخذ العبارات التالية التي قد نسمعها في التلفزيون أو في المناقشات العامة وهي مرتبة ترتيباً تنازلياً بحسب نصيبها من الصحة في رأي المختصين وهي تصور نوعاً من التدرج المشار إليه :

- ١ - هذا موضوعٌ بهم كُمل الآباء والمربين .
- ٢ - هذا موضوعٌ يههم كل الآباء والمربين . (بفتح الياء وضم الهاء في « بهم ») .

٣ - هذا موضوع يهيم "كل الآباء والمرين" (بكسر الياء والماء معاً في «يهيم»).
فالجملة الأولى داخل نطاق الفصحى بلا جدال . فهي تجرى على كل القواعد
التي قررها علماء اللغة ، وهي تحفل لذلك قمة السلم اللغوي هنا .
أما الجملة الثانية فلها تخالف القواعد التي ذكرها النحاة شرطاً لتحقق الصحة
اللغوية وذلك في ست مسائل :

- (١) النطق بالذال زايًا .
- (ب) تسكين آخر « موضوع » في الوصل .
- (ج) عدم ضبط ياء المضارعة وعين المضارع (يهيم) ضبطاً صحيحاً .
- (د) تسكين آخر الفعل المضارع في الوصل .
- (هـ) الخطأ في علامة إعراب « كل » .
- (و) تسكين آخر « الآباء » في حالة الوصل .

وعلى الرغم من هذه الأخطاء الكثيرة ، وقصر الجملة بالنسبة لعددتها - فإن
العرف اللغوي المنفق عليه في الوقت الحاضر يقوم على اعتبار مثل هذا النطق داخل
نطاق الفصحى .

أما الجملة الثالثة فلها تخالف القواعد اللغوية للفصحى في خمس مسائل
فقط هي :

- (١) تسكين آخر « موضوع » وصلاً .
- (ب) ضبط ياء المضارعة وعين الفعل بالكسر في « يهيم » .
- (ج) تسكين آخر « يهيم » وصلاً .
- (د) تسكين آخر « كل » وصلاً .
- (هـ) تسكين آخر « الآباء » وصلاً .

ومع ذلك فإن العرف يجري على اعتبار هذه الجملة داخلية في نطاق الطائفة
لا الفصحى . ذلك أن درجة الخلاف بين رقم (٣) ورقم (١) قد زادت بحيث لم يعد
في الإمكان اعتبارهما من نوع واحد . ويرجع ذلك إلى درجة التغير التي أصابت
الفعل « يهيم » (يضم أوله وكسر ثانيه طبقاً لقواعد الفصحى) . ففتح أوله وضم ثانيه

في الجملة الثانية - على الرغم من مخالفة للفصحى - لا يعتبر ابتعاداً كافياً عنها .
أما كسر أوله وثانيه في الجملة الثالثة فهو فرق أدى إلى وضع الجمليتين على درجتين
متباعدتين من درجات « السلم اللغوي » بحيث دخلت كل منهما في مستوى يختلف
عن المستوى الذي دخلت فيه الجملة الأخرى .

هذه لمحة من صورة التدرج اللغوي كما نراه في الواقع ، وكما يعكسه تركيب
الاجتماع ذاته : أما مركز كل فرد منا فوق هذا السلم اللغوي العملاق فهو محصلة
قدر هائل من العوامل المتشابهة مثل الميلاد وظروفه والسن والأسرة والمنطقة والنوع
ودرجة التعليم والهوايات والوظيفة والقراءات والخبرة . . . إلخ . ونحن لا نحفل مركزاً
بعينه يبقى ثابتاً لا يتغير طيلة حياتنا ، بل يعرض لكل منا نوعان من الحركة فوق
هذا السلم :

ففي كل فترة من فترات حياة الإنسان ، وطبقاً لخبرته وصفاته الشخصية التي
اكتسبها حتى تلك الفترة ، يجد نفسه في منطقة معينة من السلم يتناسب ارتفاعها طردياً
وعكساً مع درجة ارتفاع مستواه الثقافي والاجتماعي . وكلما تقدم في السن وازدادت
ثقافته واتسعت صلاته اللغوية (إما عن طريق المشاهدة أو القراءة) ارتفع في
السلم اللغوي وانتقل ليجتاز منطقة أرقى من التي كان فيها . وهذا النوع من الانتقال
- ويمكن أن نطلق عليه اسم « التطور اللغوي للشخص » - لا يحدث كثيراً في
حياة المرء بالطبع . بل إن بعض الأشخاص من محدودى الثقافة قد تتركب حياتهم
اللغوية كلها من مرحلتين اثنتين فقط من مراحل هذا التطور اللغوي : مرحلة ما قبل
البلوغ ومرحلة ما بعد البلوغ . بينما تتركب حياة غيره ممن هم أسعد منه حظاً من
مراحل كثيرة : مرحلة الطفولة ومرحلة المدرسة الابتدائية ومرحلة المدرسة الإعدادية
 ومرحلة المدرسة الثانوية ومرحلة الجامعة . ثم يخرج إلى الحياة العامة : فإذا قدر له
أن يشتغل بعمل يقوم على صناعة اللثة كالمعمل في التدريس ، أو المهام ، أو الحياطة
الدينية ، أو الصحافة فيوجد أن لغته تتطور وتقدم ، بل ويحس أن أسلوبه الشخصي
والكلمات التي يفضلها سواء في الكتابة أو الحديث تتغير من فترة إلى أخرى . هذا
هو النوع الأول من الحركة وهو أول ما يطلق عليه اسم « التطور » لأنه يستغرق
وقتاً طويلاً ويتم بصورة تدريجية .

أما النوع الثاني من الحركة فيتم داخل إطار المنطقة التي يحتلها الفرد من السلم اللغوي وهو انتقال وفقى يتم بين لحظة وأخرى ويتكيف ويتكيف ظروف الكلام ومتطلباته . فقد يستدعى أحد المواقف من شخص ما أن يتكلم في اجتماع مناقشة مسألة علمية . فإذا ما جلس متغصاً الصعداء التفت إليه جاره في المجلس وبدأ معه مناقشة جانبية في تلك المسألة عنها فإذا ما خرج بعد الحفل فقد يرغب في شراء بعض الآفكة من السوق . فإذا ما قارنا بين اللغة التي استخدمها ذلك الشخص في هذه المواقف الثلاثة فسنجد أنها ترتب ترتباً تنازلياً حسب الدرجة التي تحتلها كل واحدة من السلم اللغوي . ففي الموقف الأول يغلب أن يكون كلامه بالفصحى وفي الثالث بالعامية وفي الثاني بلغة « بين بين » . ويمكن أن يطلق على هذا النوع من الحركة أو الانتقال اللغوي اسم « المرونة اللغوية » . وهي تجري داخل منطقة يعين حدودها العليا والسفلى صفات المرء الشخصية ويكيفها شداً وجذباً نوع المعاملات اليومية التي يقوم بها .

ولا يقتصر الأمر على الفرد فقط ، بل ينطبق على المجتمع عامة ما ينطبق على الفرد بفارق واحد : هو أنه في الوقت الذي يتحدد فيه موقف الفرد على السلم اللغوي بعدد قليل من درجات هذا السلم فإن موقف المجتمع عليه يمتد على منطقة أوسع بالطبع . وتعيين حدود المنطقة التي يحتلها المجتمع على السلم اللغوي هي أيضاً محصلة أشياء كثيرة من العوامل التعليمية والثقافية والاقتصادية التي تشكل المجتمع وتطبع قيمه وصفاته الذاتية . ونرى درجة أبعاد ذلك فنقول إن درجة الحضارة في المجتمع يمكن تعيينها بدقة طبقاً لموقع المنطقة التي يحتلها على امتداد السلم اللغوي بصفة عامة وطبقاً لموقع المنطقة التي يظهر فيها أكبر قدر من تكامل أفرادها على السلم بصفة خاصة . فمثلاً إذا قمنا بإحصائية في إحدى القرى النائية وفحصنا حالة أبنائها وقدرتهم اللغوية لتعيين مكان كل منهم على السلم اللغوي فوجدنا أن الغالبية العظمى منهم تتركز في المناطق السفلى منه ، ثم زرنا مجتمعاً آخر وقمنا بإحصائية مماثلة فوجدنا الغالبية من أبنائه يتركزون في المناطق العليا من السلم فإن ذلك يعد دليلاً قاطعاً على أن المجتمع الثاني أكثر تحضراً من المجتمع الأول . وهل قدر بمدى منطقتيهما على السلم اللغوي يكون الفرق بينهما في مجال الحضارة .

وهكذا نستطيع القول بأنه كلما زادت الحضارة في أحد المجتمعات تأكلت الدرجات الدنيا في سلمه اللغوي فتزاحم أفرادها فوق ما بقى من درجاته العليا بحيث يصبح الفارق اللغوي بينهم ضئيلاً . ومعنى ذلك ليس ارتفاع المجتمع فحسب ، بل وزوال الفروق الاجتماعية الحادة بين أفرادها أيضاً . وعلى العكس من ذلك فكلما قلت الحضارة في أحد المجتمعات كلما تأكلت الدرجات العليا في سلمه اللغوي فتزاحم أفرادها فوق درجاته الدنيا كما حدث في عصور الانحطاط الحضاري في مصر قبل عصر النهضة الحديثة . حقيقة يوجد حتى في عصور الانحطاط أفراد يمتازون بعقيدة بعقيدتهم فوق سواهم . ولكن حتى هؤلاء تكون درجة عقيرتهم محكومة في تميزها عادة بالمستوى العام ، كما أنهم يكونون من القلة بحيث لا تغير حالاتهم الفردية الصورة العامة للتوزيع اللغوي . أما إذا تمكنوا من أحداث تغيير اجتماعي شامل في مجتمعهم (كما حدث في عام ١٩٥٢) فسأخذ ذلك شكلاً حضارياً يعكس إعادة التوزيع على السلم اللغوي بالصورة التي ذكرناها هنا . وهذا يفسر السبب فيما حدث من تقارب بين الفصحى والعامية في الوقت الحاضر إلى درجة تكاد تؤذن بعودة دورة الزمن من جديد .

أعد حولنا في هذا البحث أن نصف الواقع اللغوي كما هو فلم نستطيع أن نعمل ذلك دون أن نربطه بالقولاب الحضارية التي يعبر عنها ، بل وجدنا أنفسنا بعبارة أدق - نتحدث عن القولاب الحضارية للمجتمع . فالوان الفصحى وأران العامية هي أعماط حضارية قبل أي شيء آخر . ولغة المجتمع وحضارته وجهان لعملة واحدة .

وهذه تذكرة ودعوة للراغبين في الإصلاح . فنشر الفصحى وتقويتها وإعادتها إلى سالف العهدها لا تكون بزيادة ساعات القواعد ، ولا بحفظ قوائم الكلمات التي تنتفي فيها الفصحى والعامية (أو تفصيح العامية كما يقولون) ، بل يكون ذلك بالأخذ بأسباب الحضارة الفكرية الحديثة . يكون بنشر العلم وغمس طرق التفكير المنهجي . يكون بإغناء العقل والفكر والنفس بكل ذي قيمة من علم وفن وأدب . أي يكون بنشر أعماط الحضارة التي ترتبط تلقائياً بالفصحى والمستويات العليا من التعبير اللغوي . ولا يمكن ذلك إلا بدراسة أعماط الواقع الحضاري وأعماط الواقع اللغوي ، وهرقة ما يرتبط منها بالآخر وما لا يرتبط ، ومعرفة كيفية توزيعها على السلم اللغوي . وبعد أن تتضح الصورة كما هي في الواقع تأتي الخطوة التالية وهي تهيئة العوامل التي تقوى الفصحى للفصحى

نخاره نموذجاً يحتذى والعوامل التي تضعف الأنماط الأخرى في الوقت ذاته . بل قد نصل إلى أن بعض الأنماط اللغوية التي نناصبها العداة هي في الواقع مرحلة أساسية لا بد من المرور بها قبل أن نصل إلى النمط المختار .

أما أن نحقر واقعنا اللغوي ونعاديه ولا نعطي أنفسنا فرصة دراسته ورؤيته على حقيقته فلن يكون ذلك سبباً في فشلنا في علاج ما يحتاج منه إلى علاج فحسب ، بل سيؤدي ذلك إلى إصابة مجتمعنا بمرض انفصام الشخصية الذي بدأت بعض أعراضه في الظهور^(١) .

إن الإصلاح لا يمكن أن يقوم على الأمان وحدها ، فطريقه شاق ومتشعب ، وله وسائله الكثيرة والمتعددة . غير أن هذه الوسائل - على تعددها وتشعبها - تبدأ جميعاً من نقطة واحدة : هي دراسة الواقع ورؤية أبعاده على حقيقتها . وهذا هو ما حاولناه في هذا البحث .

الفصل الأول

الأصول التاريخية للمستويات اللغوية

phonetics-acoustics.blogspot.com

(١) تشير بهذا إلى مثل الموقف المتناقض الذي تلقه الميئات والمؤسسات العلمية والثقافية في مصر والذي يقوم على تقديس الآداب الشعبية واحترامها وتشجيعها ورعايتها من ناحية ، واحتقار العامية والمجرب عليها (رغم عطاء علم الآداب التي لا وجود لها بدون العامية) من ناحية أخرى .

شهد تاريخ اللغة العربية الطويل المشعب كثيراً من الأحداث التي أثرت على تطورها - أو عدم تطورها - والتي قد تستعصى على الإحصاء لو أردنا لها إحصاءً دقيقاً . غير أننا نعتقد أن هناك أربعة أحداث حضارية كبرى أثرت عليها أكثر من غيرها وخاصة فيما نحن بصدده من تقييم لظاهرة المستويات فيها . ويمكننا أن نجمل هذه الأحداث حسب ترتيبها الزمني في الآتي :

١ - ظهور رغبة جماعية لدى سكان الجزيرة العربية قبل الإسلام - بطريقة لا ندرى بالضبط كيف نشأت ومتى نشأت - في أن تكون لهم « مؤسسات » عامة يلتقون تحتها ويخضعون لمطالباتها ، ومثالها : الأسواق الأدبية بكل ما كان لها من عرف وتقاليد ، وتقديم قريش في بعض المجالات .

٢ - ظهور الإسلام ونزول القرآن دستوراً له .

٣ - الفتوحات الإسلامية للأمصار واستيطان العرب بها .

٤ - الغزو الأوربي الحضاري لبلاد الشرق في مطلع القرن الحديث .

١ - أما عن الحدث الأول فلإن المؤرخين يحدوثنا أن العرب عاشوا في قبائل متفرقة قبل الإسلام بوقت طويل ، ولم تكن بينهم من صلوات أو روابط عامة تجمعهم سوى صلوات النار والإغارة . وفي مقابل ذلك من الناحية اللغوية كان لهم لهجاتهم التي تميزهم عن غيرهم ، يأخذونها معهم أينما رحلوا ، وتعتبر عن احتياجاتهم بطريقةهم الخاصة . ثم - ولأسباب تجارية ودينية واجتماعية - ظهر اتجاه عام نحو تمييز قريش ، كما صاحب ذلك أو سبقه اتجاه عام آخر - لا أظن أحداً يدرى سببه بالضبط - نحو لقاء الآخرين من أبناء القبائل الأخرى ولأغراض غير أغراض الحرب المباشرة .

كانت هذه الرغبة في الاتصال خارج حدود القبيلة وعلى مستوى أعلى من مستواها الضيق ظاهرة حضارية عمرانية حملت معها نذيراً بأن طرق الخطاب القديمة ، هذه التي وجدت نتيجة للانطواء داخل القبيلة وكانت لذلك تستخدم لخدمة أغراض محلية - كان ذلك نذيراً بأن هذه الطرق أو اللوجات المحلية لم تعد بنفس الصلاحية التي كانت لها في خدمة أغراض أصحابها . فقد نشأ غرض جديد لم يكن في الحسبان . وهكذا -

وكما هو الشأن في اللغة دائماً في كونها حساسة مستجيبة لكل ما يقع في المجتمع من تغيرات - ظهر مستوى لغوي جديد مواز لهذه الرغبة الحضارية العامة ، وكان في مواصفاته مطابقاً للأغراض الجديدة : فقد كانت فيه كثافة التعبير عن حاجات أسمى من حاجات البيع والشراء ومناجاة الأهل ومداعبة الأطفال . كان هذا المستوى هو نبتة اللغة المشتركة ، أو العربية كما أصبحت تعرف فيما بعد .

كان هذا المستوى الجديد تأهيلاً للغة وإعداداً لها لكي تحمل الرسالة التي كان مقدراً لها أن تحملها فيما بعد . كما كان أيضاً سمة من سمات الوحدة أو التوحيد اللغوي الذي جمع العرب على طريقة في اللغة تكاد تكون واحدة . ومع ذلك وعلى الرغم من هذا التوحيد فقد كان ظهور اللغة المشتركة في الوقت ذاته عاملاً من عوامل التعدد اللغوي . ألم تكن مستوى - وأن يكون عاماً - إلا أنه أضيف إلى المستوى الموجود فعلاً لدى كل قبيلة مما آذن بظهور المستويات اللغوية في اللغة العربية وبصورة رسمية شاملة ؟ لقد حول ظهور اللغة المشتركة جميع لهجات القبائل إلى لهجات محلية بالتعريف حتى ولو انصفت لإحداها مع المستوى الجديد في معظم صفاته . وكان معنى ذلك - وهذا أمر لا بد من الإلحاح عليه - أن اللغة المشتركة - أو الأدبية كما تسمى أحياناً ، لم تكن أبداً لغة سليقة أو لغة الأم ، بالمعنى العلمي الحديث .

وعلى الرغم من وضوح هذه الصورة وما فيها من ازدواج لغوي قبل الإسلام إلا أن علماء العربية القدامى - وقد شغفهم حب هذه اللغة وسلك عليهم أفئدتهم - راحوا يرددون فيما يرددون من أصول وسللمات عامة أن العرب - في مناطق (١) معينة حددت بطرق مختلفة داخل الجزيرة العربية - كانوا حتى عصر صدر الإسلام يتكلمون العربية المثالية « بالسليقة » (٢) . وقد أهلهم ذلك - في نظر هؤلاء

(١) خصص السيوطي في كتابه المزهر فصلاً عقده تحت عنوان « معرفة الفصح من العرب » تحدث فيه عن مسألة التصحيح من القبائل . ولا يطعن تضارب الروايات التي ذكرها في وجود الفكرة الأصلية ذاتها لدى الأوائل من العلماء .

(٢) شرح الدكتور إبراهيم أنيس اصطلاح « السليقة » وطريقة استعماله لدى علماء اللغة العرب والعلماء المحدثين من الأجناب كما قدم رأيه الخاص في هذه المسألة وذلك في كتابه « من أسرار اللغة » عند حديثه عن « التباس » .

العلماء - لأن يحتاج بهم عند تدوين ما يمكن أن يسمى بالعربية الصحيحة ، أو الفصحى .

وعلى الرغم من أن هؤلاء العلماء لم يقدموا لنا تحديداً مباشراً لما كانوا يقصدونه « بالسليقة » إلا أننا نستطيع أن نستخلص من كلامهم أن سليقة العرب كانت تزعمه إرغاماً على أن يمضي في حديثه على سنة لغوية واحدة (سواء أكان خطبة في محفل أو قصيدة في مناسبة ، أو مناجاة للأهل أو زجراً للخادم) دون أن يستطيع الخروج عن مقتضياتها حتى لو عمد إلى هذا الخروج عمداً (١) . وما أن يقرروا هذا الأصل العام حتى نراهم عندما يتناولون مسألة تتعلق بجزئية لغوية يتصلون فيها بواقع اللغة - نراهم يصطلمون بأمثلة لما خالفت فيها لهجة قبيلة ما ما تقتضيه سنن العربية الفصحى المشتركة . وتحفل كتبهم بهذه الحالات الكثيرة . فقبائل تميم (أى قبائل شرق الجزيرة في الواقع) ترفع خبر ما النافية خلافاً لما ورد في القرآن . وقبائل الحجاز (أى قبائل غربي الجزيرة بما في ذلك قريش) تسهل الهجزة مخالفة بذلك القراءات القرآنية المشهورة . وهذيل تنطق هاء الفصحى عيناً . كما أن أهل الحجاز يقولون هي الترو وهي البر وهي الشير وهي الذهب بينما تقول تميم « هو » لهذا كله ... إلخ (٢) . فأين « سليقة » الفصحى إذن ؟

ولا نظن أن هؤلاء العلماء قد وقعوا في التناقض دون أن يشعروا . بل نعتقد أن تفسير ما يبدو في أقوالهم من تناقض يكمن في الاعتراف بوجود ما يمكن أن يسمى هنا « الازدواج اللغوي » عند العرب في الفترة التي كانت تسمى عصر « النقاوة اللغوية » . أى أنه كان عند العرب في تلك الفترة مستويان من اللغة على الأقل . مستوى للخطاب العادي في أمور الحياة اليومية وفيه يستخدم الفرد لهجة قريباته المحلية (أصواتاً ومفردات وتركيبات ... إلخ) . كما كان لدى الكثيرين منهم مستوى

(١) ومن الشواهد التي تذكر في هذا الصدد قصة المناظرة التي جرت بين الكسائي وسيبويه في حضرة يحيى بن خالد البرمكي حول ما أصبح يسمى بالسألة « الزنوبية » - فقد قيل إن البرمكي الذي أضمره أصحاب الكسائي لكي يؤيد روايتهم أعلن عجزه عن النطق بغير ما تقتضيه سليقته على الرغم من محاولته الخروج عليها (١) - تاريخ بغداد ج ١٢ ص ١٠٥

(٢) انظر مثلاً : المزهج ج ٢ ص ١٧٥ - حيث يقصد السيوطي فصلاً خاصاً بما يخالف فيه أهل الحجاز أهل تميم تحت عنوان : (ذكر ألقاظ اختلفت فيها لغة الحجاز ولغة تميم) .

آخر للاتصالات خارج بيئة القبيلة المحلية وفي المناسبات الرسمية والأدبية . وفي تلك الحالة يستخدم الفرد لغة عامة مشتركة بين جميع القبائل (على درجات مختلفة من الإنفان أو الفصاحة) هي ما نطلق عليه الآن اسم الأدبية أو الفصحى . ولا يعنيها أن نطلق على مستوى الخطاب العادي لهجة أو عامية . بل كل ما يعيننا هنا هو تقرير الحقيقة المجردة وهي وجود مستويين للغة قبل الإسلام : فصيح وبنون الفصحى .

٢ - أما الحدث الثاني وهو ظهور الإسلام فقد كان انقلاباً حضارياً ضخماً في حياة الجزيرة العربية . فقد سمي إلى تغيير صورة المجتمع بما فرض من تشريعات جديدة ألغت كثيراً من العادات والتقاليد السائدة وسنت غيرها مما يتفق مع أصوله وقواعده . ونزل القرآن حاوياً لهذه الأصول ، وجاءت السنة وتعاليم الرسول شارحة له ومفسرة .

ولم يكن المجتمع الإسلامي الذي رسمه الدين الجديد ووضع أسسه في الجزيرة العربية مختلفاً عن المجتمع القبلي القديم فحسب ، بل كان إلى ذلك وقبل ذلك طفرة غربية . على القوالب السابقة عليه . كان في الواقع مفاجأة اجتماعية . وقد خلفت هذه المفاجأة الحضارية مشكلة للغة كان عليها أن تستوعبها وتبرع عنها . ولم يكن ذلك بالأمر السهل . فإذ كانت القوالب الاجتماعية الجديدة قد ظهرت إلى الوجود نتيجة لتطور تدريجي في القوالب الاجتماعية القديمة لاستطاعت اللغة أن تحظو معها تدريجياً وتخلق التعبير المناسب كلما ظهر منها شيء جديد ، ولما كان في الأمر صعوبة تذكر .

ومع ذلك وعلى الرغم من تلك الصعوبات فقد نجحت اللغة في استيعاب المفاجأة . وكان السبب في ذلك أن الحضارة الجديدة وإن كانت مفاجئة للمجتمع الجاهلي القبلي إلا أن عناصرها كانت عربية ، بمعنى أن القوالب الحضارية الجديدة كانت في الواقع عبارة عن إعادة تنظيم وتشكيل للعناصر القديمة . وهذا هو ما فعلته اللغة بملورها . فقد أعادت تنظيم قولها التعبيرية القديمة ووسعت فيها بطريقة مكنتها من التعبير عن المعاني الجديدة . وهذا هو شأن اللغة . تحاول دائماً أن تعكس طرق المجتمع وتحكي قصة حضارته .

نجحت اللغة في أن تكون وعاء للقرآن ووعاء للسنة ، ووعاء لتعاليم الرسول وأعمال الصحابة في حياته . وكان نجاحها هذا أو كان هذا الامتحان الذي نجحت فيه بمثابة التدريب للامتحان الأكبر الذي فرض عليها في المرحلة التالية . أو قل إن ذلك كان بمثابة المصلح الذي حصنها ضد الانهيار الكامل أمام المحاضرات الأجنبية التي وجدت نفسها بينها والتي جرى العرف على التعبير عنها باسم المعجمة . أضف إلى ذلك أن هذا النجاح قد خلق نوعاً جديداً من التعبيرات الإسلامية أو قل مستوى دينياً من التعبير في اللغة العربية .

وقد حفظ لنا أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي المتوفى سنة ٣٢٢ هـ سجلاً قيماً لهذه المصطلحات والألفاظ الإسلامية في كتابه المسمى « الزينة » (١) . وأهمية الكتاب ترجع إلى أنه كتب في القرن الرابع أي بعد أن استقرت الألفاظ وأخذت معناها وانضحت في الأذهان وأمكن مقارنتها في استعمالها الإسلامية واستعمالها الجاهلية والاستشهاد لكل استعمال من مصدره المناسب . كما أنه استطاع عن طريق مقارنة النطق في بيئته الإسلامية بتظهيره في بيئته الجاهلية أن يظهر مدى التطور الذي أدخله الإسلام على معاني هذه الألفاظ وطرق استعمالها (٢) .

٣ - أما الحدث الثالث وهو استيطان العرب في البلاد المفتوحة فقد عرض اللغة لامتحان أقسى وأشق من الذي تعرضت له بنزول القرآن . ذلك أنه وضعها وجهاً لوجه أمام حضارات غربية عليها وأزرها في الوقت نفسه - بصفتها لغة الحكام - أن تعبر عنها وتحيط بها . غير أنه كانت هناك بعض العوامل التي ساعدتها وقوت من جانبها في تلك الأزمة . ومن أهمها :

(١) قام بتحقيق الكتاب والتعليق عليه الدكتور حسين المدداني . وقد نشره في القاهرة : الجزء الأول عام ١٩٥٦ ، والثاني عام ١٩٥٨ .

(٢) انظر مثلاً ص ٢١٩ = ٢ في حديثه عن « الأعراف » في قوله تعالى « وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال » . « أبو عبيدة يجازة على بناء سور ، لأن كل مرتفع من الأرض عند العرب أعراف وأشد » .

كل كنان لحما نياف كالعلم الموق على الأعراف

أي على نضز . وروى أبو عبيدة بإسناد له عن ابن عباس قال : الأعراف التي هي المشرف . وعن جماعة قال : الأعراف حجاب بين الجنة والنار . سور له باب ، وهو على الصراط . م . الخ .

(أ) سلطان الدين : فارتباط العربية بالدين لم يترك للمسلمين خياراً بينها وبين غيرها من اللغات . كان بإمكانهم أن يتعلموا الفارسية أو اليونانية ، ولكن العربية كانت دائماً في المقدمة .

(ب) سلطان الحكم : فقد كانت - على الرغم من أزمتها الحضارية - لغة الحكام ، مما خلق نوعاً من التوازن بين العوامل المضادة والعوامل المساعدة وإعطائهما فرصة زمنية للتأقلم في الجو الجديد .

(ج) المرونة الذاتية للغة العربية : وهذا شيء لاحظته علماء الساميات منذ وقت بعيد . فقد تعلمت اللغة أو اكتسبت - دون كثير من أخواتها - غريزة البقاء أو القدرة عليه . ولا يدري أحد بالضبط سر هذه القوة إلا من الوجهة العلمية^(١) . كل ما يعرفونه أنها موجودة فعلاً .

أما المعركة التي خاضتها اللغة العربية بعد الفتوحات فهي من الأهمية لفكرة المستويات بدرجة تجعل من الضروري أن نبرز بشيء من التفصيل أهم العوامل الحضارية التي قامت عليها . وأن نناقش أثناء ذلك بعض الآراء التي اكتسبت قوة المسلمات والتي قد يبدو أنها تتعارض مع ما نحن بصده من قضايا :

ترجع أهمية الفتوحات الإسلامية ونزوح العرب للاستيطان في الأمصار والبلاد المفتوحة - ترجع أهمية ذلك للغة العربية إلى أنها خرجت بها من نطاق المحلية الضيقة التي فرضها عليها طبيعة مجتمع الجزيرة العربية المغفل الذي نشأت وترعرعت فيه ونقلها إلى انطلاقة العالمية الرحبة . وبعد أن كانت قبل الإسلام لغة عرب شمال الجزيرة - بل لغة الخاصة منهم تقريباً - أصبحت بعد الإسلام لغة الأجناس المختلفة - أو على الأقل أصبحت طلبة الأجناس المختلفة التي كانت تنتشر من حدود الهند في الشرق إلى شواطئ إسبانيا في الغرب . وقد تم لها كل ذلك في فترة هي أشبه بطريقة العين إذا ما قيست بعمرها أو بعمر غيرها من اللغات .

(١) لعل هذا هو ما يبرر عنه علماء الدين الإسلامي - ولكن بطريقة غيبية - عندما يفسرون قوله تعالى : «إننا نحن زنا الذكر وإننا له لحافظون» ، إذ يقولون إن من حفظ الذكر الذي أحله الله على نفسه حفظ اللغة التي أنزل بها .

فانتشار دائرة الفتح العربي الإسلامي السريع المفاجيء في عهد عمر بن الخطاب كان في الوقت ذاته غنى للغة العربية وانتشاراً لها .

ولا نريد أن نناقش هنا مدى استعداد العرب في ذلك الوقت من الناحية النسيجية والإدارية والثقافية عامة لتحمل عواقب نجاحهم العسكري ، إذ أن ذلك الموضوع يقع خارج دائرة بحثنا هذا . ولكن الذي يهمنا - وإن كان يتصل بالأمر السابق - هو مدى استعداد اللغة العربية ذاتها في ذلك الوقت لتحمل عواقب هذا الكسب الذي حققه لها الجيش العربي .

ويتحدث علماء العربية من قدماء ومحدثين فيقولون الحديث عما حدث للغة بعد خروجها إلى الأمصار واختلاط العرب بغيرهم من أبناء البلاد المفتوحة ، ويقولون إن هذا الاختلاط قد أثر على لغة العرب الأصليين - حتى الخاصة منهم - وأدى إلى نفثي اللحن فيها . وتحفل كتب اللغة والأدب بطرائف وروايات تذكر أمثلة من هذا اللحن والاستنكار الذي كان يلقاه والمواقف التي اتخذها الغيورون على اللغة لحماية اللغة . وبأن الفشل في استخدام^(١) علامات الإعراب استخداماً صحيحاً في رأس قائمة الأخطاء التي سجلتها لنا هذه الكتب وبلغ عليها العلماء حتى يجزل

(١) من الأمور التي تستحق التأمل أن صرح الإعراب الذي قام عليه بناء النحو العربي كله والذي وقف عليه علماء العربية حياتهم - هذا الصرح قد تداعى واختفى من الاستعمال اللغوي العربي في وقت مبكر جداً وأصبح مجرد مسألة عقلية لا تتصل - كما كان ينبغي أن يكون عليه الأمر - اتصالاً طبيعياً بالمعنى النحوي في نفوس المتكلمين . لذلك لا ندعش كثيراً لمثل الموقف الذي اتخذته الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس حينما أنكرو وجود الإعراب فقال : لم تكن تلك الحركات الإعرابية تحدد المعاني في أذهان العرب كما يزعم النحاة ، بل لا تعدو أن تكون حركات يحتاج إليها في الكثير من الأحيان لوصول الكلمات بعضها ببعض . وانظر من أسرار اللغة ، ص ٢٢١ . على أننا لا نذهب في تقويم ظاهرة الإعراب إلى حد إنكارها تماماً . بل نرى أنه لا كان الإعراب قد اختفى من كل اللغات السامية الأخرى لوجودها في نباتات مفتوحة بينا بقي في العربية بفضل انحسارها داخل حدود الجزيرة بعيداً عن الاختلاط والتطور السريع أو عوامل التربة إذا جاز لنا استخدام هذا التعبير - نقول لما كان ذلك هو السبب فإن أولى ما يتأثر بالخروج من البيئة القديمة المغلقة هو الظاهرة التي احتفظت بها اللغة بفضل انحصارها في تلك البيئة . وستطبع أن نسوق تشبيهاً لتلك الحالة بما يحدث للسويبات المحنطة عندما تخرج من توابيتها تحت الأرض وتصلدم بالمياه التي المطلق السراح فوق ظاهرها . إذ تراها تنفتت وتسانط وتباد إذا لم تتخذ الاحتياطات العلمية لحمايتها والحفاظ عليها .

للمره أنهم لم يروا في اللغة سوى علامات الإعراب^(١) .

ومع اتفاقنا مع هؤلاء العلماء على أن الاختلاط بالأجانب والتزاوج معهم قد أدى إلى حدوث التغير في اللغة إلا أننا نختلف معهم في إعطائهم هذا العامل كل الأهمية التي أعطوها إياه في التأثير عليها - ونحن نعرف مثلاً أن اللغة الإنجليزية قد انتشرت خارج حدودها بفعل الفتح والاستعمار كما تم التزاوج بين أبنائها وبين غيرهم ولكن ذلك لم يؤد إلى الاحن في الإنجليزية الجزر البريطانية بنفس الطريقة التي ظهر بها في عربية الجزيرة العربية بعد عصر الفتحوات ، مما يرجح أن مجرد الاختلاط بأبناء اللغات الأخرى لا يؤدي بالضرورة إلى التأثير على اللغة هذا التأثير الحدري .

إننا نعتقد أن مجرد اختلاط العرب بغيرهم نتيجة للفتح الإسلامي كان واحداً من عوامل رئيسية ثلاث أزهقت اللغة نتيجة لعدم استعدادها إعراب ذلك الفتح الفعالي . هذه العوامل الثلاثة حسب ترتيبها النسبي في قوة التأثير هي في رأينا كالتالي :

(١) تأخر العرب - وبالتالي لغتهم - من الناحية الحضارية عن كثير من الشعوب التي غلبوها بالفتح العسكري .

(ب) زيادة سرعة التطور الطبيعي للغة بعد خروجها إلى العالم الفسح وإيغالها في مناطق مترامية الأطراف بعيداً عن منابعها الأصلية .

(ج) اختلاط العربية بلغات تختلف عنها من النواحي البنائية صوتياً وقاعدياً .

وقبل أن نتناول تأثير هذه العوامل على اللغة والموقف الذي اتخذته العلماء منها لا بد وأن نسهب قليلاً في بيان طبيعة العامل الحضاري وتكييفه لموقف اللغة العربية في بداية عصور الفتح ، خاصة وأنه لم يكن محل اهتمام كبير لدى من كتبوا في هذا الموضوع .

فنحن نعلم أن العرب الفاتحين ومن تبعهم من قبائل نزحت للاستيطان قد انتقلت من بيئات ضيقة محدودة الثقافة محدودة التنوع واستقروا في بيئات غنية ذات

(١) لعل ٩٤ يستوقف النظر أن الذي أهم بتسجيل نوع آخر من الأخطاء سوى الأخطاء الإعرابية - هذا الشخص كان أديباً ولم يكن نحويًا . فقد خصص الملاحظ قدراً كبيراً في كتابه « البيان والتبيين » للأخطاء الصوتية وجيوب النظر سواء ما كان منها راجعاً لعبوب خلقية أو إلى صجمة أصحابها . وصنف هذه الأخطاء تبعاً للغة الأصلية لمن ينطق بها .

حضارة عريقة سبقت حضارة بلدو الجزيرة بقرن كثيرة . ولا شك أن هؤلاء الفاتحين قد وجدوا أنفسهم في العراق والشام وفارس ومصر في مركز ضعيف من الناحية الحضارية . ولنا أن نتصور أن كثيراً من مظاهر هذه الحضارة كان غريباً عليهم وأنهم كانوا يكتشفون كل يوم شيئاً جديداً فيها . ولنا أن نتصور أيضاً أن تلك المكتشفات اليومية كانت تجعل معها نوعاً آخر من التحدى اللغوي بالنسبة لهؤلاء الفاتحين وأنهم في محاولاتهم للتعرف على مظاهر الحياة الجديدة (حتى ولو لم يكن في نيتهم تقليدها) كانوا يتعرفون أيضاً على المصطلحات والتعبيرات الغريبة التي كانت تعبر عنها إما لاستعمالها فيما بينهم وإما لاستعمالها في مخاطبة سكان البلاد المفتوحة في أمور حياتهم اليومية .

وتركز المصادر العربية اهتمامها على شئون الحياة الرسمية مثل الإدارة والداووين وشئون الولاة ... الخ . وهي بذلك تفعل كثيراً من مظاهر الحياة اللغوية كما يعد أشد اتصالاً بالغايبية العظمى من الناس ، ومن ثم أشد تأثيراً في لغتهم وفي موقفهم من تلك المظاهر . فلا شك أن العرب الفاتحين قد واجهتهم مشاكل كثيرة في تسمية ألوان الأطعمة والأكسية وأنواع الأثاث والحلى والعرابات والمهارات والحرف وألقاب الوظائف المحلية من دينية وغيرها . ويقدم لنا الملاحظ عينات مما كانت تحفل به لغة أهل الكوفة من الكلمات الفارسية . فيقول : « وأهل الكوفة يسمون السحاة بال ، وبال بالفارسية . ويسمى أهل الكوفة الحوك (ريجانه) بالادروج .. وإذا التقت أربع طرق يسمونها الجهارسوك ... ويسمون السوك وأسوية « وأزار » ويسمون القشاء خياراً ... ويسمون المجلوم^(١) وليدى . وقال ذلك ألفاظ فارسية تعبر عن بعض مظاهر الحضارة التي أشرنا إليها . بل إن تأثير ألفاظ الحضارة الفارسية قد امتد إلى داخل الجزيرة العربية أيضاً . فيرى الملاحظ ، أن أهل المدينة يسمون البطيخ الخريز ، والسميط الرزق ، والاصروس (وهو لحم يتنقع في الخل ويطبخ) المزور ، ويسمون الشطنج الأشرنج^(٢) ، وكل ذلك أسماء فارسية . ولنا أن نتوقع أن مثل ذلك التأثير قد حدث في مصر وإن لم يكن قد ورد عنه

(١) البيان والتبيين : ج ١ من ١٩ - ٢٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١٩ .

شيء في المصادر القديمة . ويعلق يوهان فك معللاً لسكوت المصادر عن ذكره فيقول : . . . بينما أثرت الفارسية في عرابة العراق تأثيراً بعيد المدى وكثرت في اللغة العربية الفصحى الألفاظ الفارسية المدربة بصورة ملحوظة كان أثر القبطية في اللهجة العربية جد ضئيل . وقد أراد بعض العلماء أن يعزو أسباب ذلك إلى الطابع القبطي القوي ، ولكن يبق علينا أن ننظر فيما إذا كان تعذر كشف أثر اللغة القبطية في عرابة التفاهم أثناء القرنين الأولين راجعاً إلى طبيعة مصادرنا . قلو أن مصر منيت بكتاب مثل الجاحظ الذي أولع بتصوير مستوى الطبقات الدنيا والوسطى بين سكان المدن في القرن الثاني ، ربما كان أفادنا أن العلاقات اللغوية في الفسطاط القديمة لم تختلف كثيراً منها في البصرة والكوفة (١) .

وبالإضافة إلى تعرض العرب للفحات الحضارة الجديدة ، فإن انتقاهم إلى الأقاليم المفتوحة وبركهم فيها كسادة لها ألقى عليهم عبء إدارة إمبراطورية كبرى متنوعة الثقافات واللغات . وقد نتج عن ذلك اتساع طرائق الحياة أمامهم بعد أن كانت محصورة في الجزيرة وفي أمور الرعي والتجارة . ويتنوع طرائق الحياة وتشابك العلاقات الحضارية والتزامهم ببناء دولة كبرى ازدهرت العلوم ، وكثرت التأليف ، ونمت الصناعات والمهارات ، وتطورت العلاقات والقوانين التي تنظم الحياة وأمور الدين . وقد كانت تبعات الدولة الحديثة ومطالبها من القوة بحيث لم يكن السادة الجدد يستطيعوا الانتظار حتى يتكروا بأنفسهم ما يحل المشاكل المترتبة عليها . فنشأت لذلك حركة الترجمة والنقل من الحضارات الأجنبية التي واجهت مثل ما كانوا يواجهون من مشاكل والتي توصل أصحابها إلى حلول لم يكن من البأس أن ينظر فيها القوامون على المجتمع الجديد لكي يروا مدى إمكانية الانتفاع بها في مجتمعهم . ولعل ذلك كان السبب في بلوغ الترجمة أوجها في عهد المأمون .

فبالإضافة إلى عامل التطور والنمو الطبيعي لهذا الاتجاه فإن نشأة المأمون العلمية ورضيته في الوقوف على فلسفة الحياة والدين والانتفاع بتجارب الأمم الأخرى إلى جانب تجارب العلماء من أمته - كانت هذه الأسباب دافعاً قوياً لازدياد الترجمة

(١) العربية : يوهان فك ص ٢١ - ٢٢ .

في عصره . ويروى صاحب الفهرست قصة عن « السبب الذي من أجله كثرت كتب الفلسفة وغيرها من العلوم القديمة في هذه البلاد ، فينقل عن المأمون أنه قال إنه رأى رجلاً في منامه عرف منه أنه أرسطوطاليس ، فسأله المأمون عن أمور كانت تشغل ذهنه في ذلك الوقت فيقول : « قلت ما الحسن قال ما حسن في العقل قلت ثم ماذا قال ما حسن في الشرع قلت ثم ماذا قال ما حسن عند الجمهور قلت ثم ماذا قال ثم لا ثم » (١) . ويعلق ابن التديم على القصة قائلاً : « فكان هذا المنام من أول الأسباب في إخراج الكتب » .

ولم يقتصر الأمر على الخلفاء وحدهم فقد اقتدى بهم « كثير من رجال الدولة وجماعة من أهل الرحابة والثروة في بغداد فتقاطر إليها المترجمون من أنحاء العراق والشام وفارس وفيهم النساطرة واليعاقبة والصابئة والمجوس والروم والبراهمة يترجمون من اليونانية والفارسية والسريانية والهندية والنبطية واللاتينية وغيرها ... وكان أثر هذا النقل الواسع المدى عظيماً في إضافته إلى اللغة العربية فقد نقل المترجمون مئات الألفاظ الفلسفية والطبية والكيميائية والرياضية وغيرها إلى اللغة العربية مترجمين بعضها إلى ما يقابله في العربية وناقلين بعضها بلفظه مما حمل علماء اللغة على أن يخصوه بتأليف خاصة مثل كتاب « المغرب والندخليل » للجواليقي . وهما يكن من شيء فقد كسبت اللغة العربية مادة غزيرة وفيرة مكنت النحاة والمتكلمين والفلاسفة الإسلاميين من تناول مسائل علومهم المختلفة بلغة مرآية وألفاظ دالة على المعاني التي يريدون التعبير عنها » (٢) .

ولم تكن الترجمة وحدها هي وسيلة بناء الدولة الإسلامية الجديدة . فقد سبقتها حركة أخرى تمثلت في الاستعانة بأبناء البلاد المفتوحة والإبقاء على نظمهم التي كانوا يتبعونها في الإدارة قبل الفتح . أو بعبارة أخرى حركة عدم الترجمة عن قصد . « فقد كانت دواوين المال أو الجباية مقرها في هواصم الأقطار المفتوحة . وكانت تكتب في كل قطر بلغة أهله وكانت في الغالب لغة الدولة التي

(١) الفهرست ، طبعة فلوجل ص ٢٤٣ .

(٢) عبد الحميد العبادي . « ثلاث حوادث من التاريخ الإسلامي ساعدت على انتشار العربية » مجلة مجمع اللغة العربية عدد ٩ ص ٤٨ .

ويكفي لتصوير الميادين التي وجد العرب أنفسهم مطالبين بالاشتراك فيها والتعبير عنها بلغة وألفاظ لم تكن لديهم دواية بها - يكفى لذلك أن ننصفح كتاباً مثل كتاب « مفاتيح العلوم » لأبي عبدالله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب الخوارزمي والذي ألفه في القرن الرابع الهجري . فقد صفه في ثلاثة وتسعين فصلاً جمع فيها مفاتيح العلوم وأوائل الصناعات وجعلها متضمنة « ما بين كل طبقة من العلماء من المواضيع والاصطلاحات التي خلت منها أو من جعلها الكتب الحاضرة لعلم اللغة ، حتى إن اللغوي المبرز في الأدب إذا تأمل كتاباً من الكتب التي صفت في أبواب العلوم والحكمة ولم يكن شداً صدرأ من تلك الصناعة لم يفهم شيئاً منه وكان كالأعمى الأغم عند نظره فيه » (١)

ولو تصفحنا هذا الكتاب لوجدنا مؤلفه يذكر مصطلحات لم يكن عربية ما قبل عصر الفتوحات عهد بها ، وتغطي ميادين مثل : الفقه وعلم الكلام والعروض والفلسفة والمنطق والهندسة وعلم النجوم والموسيقى والحيل . . . الخ . فن ميان الهندسة نراه يذكر أن « الأسطوانة جسم بيئدئ من دائرة ويتنى إلى دائرة مساوية لها يحيط بها بسيط اسطوانى . وأن الجسم المحروط شكل بيئدئ من نقطة ويتنى إلى محيط دائرة ويحيط به بسيط صنوبرى ودائرة . وأن الملهابى والعلمى « بمعدتان عن قطعنى دائرة أى قوسان إذا التقى طرفاهما وديرت دور الكرة بين قطبين مرة » (٢) ويعقد فصلاً عن « حيل حركات الماء وصنعة الأواني العجيبة وما يتصل بها من صنعة الآلات المتحركة بذاتها » فيذكر فيه مثلاً : « باب المدفع وباب المستق يكونان في النفاطات والرافات ونحوها . يحتاج جمع التختجة وهى الألوام معربة تختة . المليار والمينار إناة كبير يسخن فيه الماء . سرن الرضى الدوارة التى يضر بها الماء فتلدور . يركان السرن أجنحته افة فارسية معربة . . . » (٣)

وعلى الرغم من العدد الهائل من المصطلحات التي جمعها الخوارزمي في كتابه فإنه يصير على أنه كان في كتابه « متحريراً للإيجاز والاختصار وتنزيهاً للتطويل والإكثار » (٤)

كانت. لما السيادة عليه قبل الفتح الإسلامى . وكان يتولى شئون هذه الدولوين عمال أهل الإقليم فكان عمال ديوان العراق من موالى القرس وعمال ديوان الشام من الروم وعمال ديوان مصر من الروم والقبط » (١)

ويطيب لبعض المؤرخين أن يذكروا أن عدم تعريب الدولوين من لحظات الفتح الأول كان مرجعه إلى حسن السياسة التي اتبعها الخلفاء الأولون ، إذ أرادوا أن يضمّنوا تعاون السكان الأصليين وخاصة رجال الإدارة منهم ، فأبقوا من أراد البقاء منهم في منصبه الذي كان له ليدر عمله بالطريقة وباللغة التي كان يديره بها .

على أننا لا نستطيع أن نغفل العامل اللغوي في تكييف الموقف الذي اتخذته العرب في هذا الأمر . فنحن لا نعتقد أنه كان بإمكان العرب في أول عهدهم بالفتوحات أن يجدوا من الاصطلاحات والأسماء العربية ما يكفى للتعبير عن دقائق الحسابات وسلك الدفاتر وغيرها من شئون الإدارة والمال . وتغير شاهد على ذلك ما رواه البلاذري في فتوح البلدان من أن الحاجب لما أراد تعريب الدولوين ونفب لذلك صالحا بن عبد الرحمن مولى بنى تميم - وكان قد تدرّب فترة طويلة مع زادان فروخ بن بيري الفارسي الأصل - اعترض عليه مراد نشاء بن زادان فروخ وقال له : « كيف تصنع بدوهية وشنوية ؟ » قال : « أكتبه عشر ونصف عشر » قال : « كيف تصنع بويد ؟ » قال : « أكتبه « وأيضاً » ، والويد النيف والزيادة تزداد . فقال : « قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية » . ويعلق الأستاذ عبد الحميد العبادى على هذه القصة وغيرها من قصص تعريب الدولوين في بقية الأقطار فيقول : « فالعربية القصصى أفادت ألفاظاً جديدة كثيرة كما يؤخذ من ترجمة دهوية وشنوية وبويد . فهى مثال لما حصل بالفعل على نطاق واسع . وظهرت في العربية ألفاظ كثيرة إما معربة أو منبوتة عن أصولها الأعجمية المستعملة في الحساب والمساحة والزراعة والتجارة والصناعة مما لم يكن للعرب عهد به من قبل » (٢)

(١) عبد الحميد العبادى . المرجع السابق ص ٥٢ .

(٢) المرجع السابق : ص ٤٨ - ٤٩ .

(١) خطبة كتاب « مفاتيح العلوم » : نشر إدارة الطباعة المنيرية . القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٢ .

(٣) المرجع السابق ص ١٤٥ .

(٤) المرجع السابق ص ٤ .

وهذه الحصيلة التي تكونت في ميدان العلم كان إلى جانبها بلا شك حصيلة مشابهة في كل ميدان من ميادين الحياة . ولا شك أن كل هذه الحصيلة من الألفاظ والمصطلحات تمثل الطريق الطويل الذي قطعتة العربية منذ لحظة الفتح الأول كما أنها تمكس صورة للميادين التي كان على اللغة أن تسهم فيها من أجل بناء الدولة الإسلامية الكبرى .

ونحن نعتقد أن الفاتحين الأول - ولا يتعرفوا على مواطني أقدامهم في البلاد قد وجدوا أنفسهم أمام هذا الطوفان الحضاري الغريب عليهم في موقف المتعلم ، في موقف الضعيف . وكان هذا بالقياس هو مصدر الخطر الحقيقي الذي واجهته لغتهم ، الخطر الذي تحداها في أعلى ما تعتز به لغة من اللغات : وهو قدرتها على التعبير عن الحضارة وأمور الحياة اليومية . بل لا نغفل إذا قلنا إن كثيراً من الكلمات العربية الأصلية والتي كانت تعبر عن الحضارة البدوية أصبح لا غناء فيه . بل تعرض للنقد من شأنهم أن يستخدموه . وثورة أبي نواس على القصيد العربية لم تكن مجرد ثورة على شكل القصيد وبنيتها نفسها بقدر ما كانت ثورة على التعبيرات الحضارية العربية التي أصبحت غير ذات موضوع . فقد أراد أن يحل الحديث عن الحمر وشاربيها والتعبيرات الحضارية المرتبطة بها مثلاً - أراد أن يحل هذا محل البكاء على الدمن والوقوف على الأطلال بعد أن ذهبت عنهم الدمن واختفت الأطلال . ومثل ذلك يقال أيضاً بالنسبة لثورة الجالسين عند الخليفة على و على بن الجهم ، حينما استخدم تعبيرات البيئة البدوية في مدحه للخليفة . فهذه الثورات وأمثالها هي في الواقع ثورات حضارية وجدت في اللغة تعبيراً عنها كما هو الشأن في الثورات الحضارية دائماً .

ومع أننا لا نريد أن نقحم أنفسنا فيما أصبح معروفاً في التراث بعمرة الشعرية ، كما أننا لا نريد أن نحكم لأي من الجانبين على الآخر ، إذ نريد أن نحفظ لموضوعنا بوجهه اللغوي البحث - على الرغم من ذلك فإننا لا نظن أننا نفتات على أحد إذا ما قلنا إن تأخر العرب الحضاري كان - وظل لفترة طويلة - الرقود الذي استغله الفرس في إذكاء ثمار الحركة .

نريد من كل هذه الملاحظات أن نضع أصبعنا على ما نعتقد أنه كان المصدر

الرئيسي للاضطراب الذي وقعت فيه عربية الفاتحين الأول ، ونعني بذلك قصورها في ألفاظ الحضارات الغربية على أهلها . وعلى الرغم من أنه ليس من المفروض في أية لغة أن تكون مستعدة في طرفة عين للتعبير عن حضارة ليس للألفاظ بها عهد وأنه إذا ما طلب منها أن تفعل ذلك فإنها تمنح مهارة كافية قد تمتد عشرات السنين - على الرغم من هذه الحقيقة الواضحة فإن اللغة العربية - بصفتها لغة الفاتحين وكتيجة للفتح الصجاني - لم تمنح مثل هذه المهلة . فكما أن العرب قد طولوا بين عشية وضحاها بأن يحكموا ويديروا شؤون مجتمعات غربية عليهم فكذلك طولت لغتهم - بين عشية وضحاها أيضاً - بأن تراكب هذا الدور الغريب الذي فرض على المتكلمين بها ، وأن تشارك في ميادين ليس لقوالها ولا لتعبيراتها المألوفة حيثند عهد بها .

وكان على اللغة أن تختار بين موقبين : إما أن ترفض المشاركة انظاراً ليوم تستطيع فيه أن تجرد من ألفاظها الأصلية وتجارب أبنائها الشخصية ما يعينها على الاستجابة لمطالب الوضع الجديد دون أن تمد يدها لأحد - وهو ما لم يكن ليحدث ، أو بعبارة أدق ، ما لم تكن ظروف الفتح والإدارة العاجلة لتسمح بحدوثه - وإما أن تعترف من الثروة اللغوية لمن سبقوا أبناءها في هذه الميادين ، خاصة وقد وضعتهم الظروف معاً في المجتمع الجديد .

وهنا هو ما حدث بالفعل . وكان حدوثه على الرغم من ضرورته - أوق الواقع بسبب هذه الضرورة - ناقوس الخطر الذي نبه الفيورين للحفاظ على كيان اللغة وحدثها . فوضعوا بذلك اللبنة الأولى في دراسة فن اللغة . حقيقة كان هناك مظاهر أخرى للخطر الذي كان يتهدد اللغة الفصحى وهي المظاهر التي كانت تتمثل في التغييرات الصوتية لنطق الكلمات العربية الأصلية ، والأخطاء المعنوية في استخدام المادة اللغوية ، وأخطاء الإعراب التي حفلت بذكرها المراجع اللغوية .

ولسنا نحاول هنا أن نقض من شأن هذه الأخطاء الأخيرة ولا أن نقال من قيمة ردود الأفعال التي أحدثتها في ذلك الوقت . فالواقع أن هذه الأخطاء قد أدت إلى خلق موقف متشدد لدى ذوى الإحساس اللغوي من الفاتحين العرب دفعهم إلى الإلحاح على التمسك^(١) بالعربية النقية ، بل وإبعاد من تلوثت لغتهم عن مناصب الدولة

(١) يرى السيوطي في الزهر ج ٢ ص ٢٤٦ أن كاتباً لأي موسى الأشعري كتب إلى عمر بن الخطاب . فكتب إليه عمر أن اضرب كاتبك سوطاً . وتحفل كتب التراث بقصص كثيرة مشابهة . سبل مستويات العربية للناصر

الكبرى ، كما أدى أيضاً إلى خلق موجة من حب التراث والبحث عنه ومدارسته وحفظه ، وكانت هي حجر الأساس في عملية تقعيد القواعد وبناء الصرح العظيم الذي أصبح يعرف فيما بعد بعلم النحو .

فقط نريد أن نقرر أنه كما كانت الأخطاء الإعرابية سبباً في خلق علم النحو كان سبيل اللحن على من اللغة سبباً في خلق فن القواميس . هذا الفن الذي لم يوضع أبداً في موضعه الصحيح بين دراسات العربية ، والذي تعرض لطغيان النحو عليه بدون سبب ظاهر . اللهم إلا سلطان النحاة وتفوذهم الذي بسطوه على اللغة العربية وأبنائها ابتداء من عصر أبي الأسود الدؤلي إلى الوقت الحاضر .

إن سلطة النحاة لم تتمثل في خلق الإعراب من العدم كما يقرر أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس (من أسرار اللغة ص ٢٢١) بقدر ما تمثلت في جعله مركز الثقل في الثقافة العربية بصورة جردت هذه اللغة - في بعض صورها - من كل حيوية ، وأعمت كثيراً من الدارسين عن جوانب أخرى كانت ولا تزال أكثر خطراً وأقرب إلى روح اللغة .

أن تركيز القدماء على الأخطاء الإعرابية دون سواها ليس له ما يبرره من الناحية التاريخية كما قدمنا قبلاً ، كما أنه ليس له ما يبرره من الناحية العلمية أيضاً . فقواعد علم اللغة تشهد بأن أول جانب يتأثر من اللغة بفعل اختلاطها بغيرها هو متنها نتيجة لاقتراض الكلمات والمصطلحات التي لا نظير لها في اللغة المقترضة . ثم تأتي بعد ذلك الأساليب فيدخل فيها أوزان لا تتعارض صراحة مع القواعد الأساسية للغة وإن كانت تمتاز بجملة وطرافة لا عهد للغة المقترضة بهما . أما النحو والصرف فمن الصعب جدا أن يلحقهما التأثير . ويحدث ذلك عادة - إذا حدث - بعد فترة طويلة جدا من الاختلاط كما يكون علامة للانتصار الثقافي لإحدى اللغتين على الأخرى .

أن أبا أيوب السخاوي (٦٨ - ١٢١ هـ) كان إذا لحن في حرف قال أستغفر الله (ياقوت : إرشاد ج ١ ص ٢٠) وأن الشعبي كان يقول أحب إلى أن أقرأ فأسقط من أن أقرأ فألحن (ياقوت : إرشاد ج ١ ص ٢٦) .

ولا شك أنه لم يكن قد مضى وقت طويل على معايشة العرب للأعاجم أو التزاوج معهم في عهد أبي الأسود الدؤلي . فذلك الفترة القصيرة تتناسب وشدوت التغيير في من اللغة دون قواعدهما . أما الأخطاء الإعرابية فقد ساعد على انتشارها - في رأي - العامل الثاني الذي ذكرته آنفاً وهو سرعة التطور بفعل البعد عن الوطن الأم . بالإضافة إلى كون علامات الإعراب نفسها قد أصبحت غير ذات موضوع تقريباً بعد أن استغنى للكلمون عنها بتكريب الجملة في فهم المعنى المقصود . وليس من المستبعد أيضاً أن يكون انتقال اللغة العربية من مجتمعها المغلق - ذلك المجتمع الذي احتفظ لها وحدها دون أخواتها الساميات^(١) بظاهرة الإعراب - واستقرارها في مجتمع مفتوح مملوء بالحركة والنشاط - من المحتمل أن يكون هذا الانتقال قد عرض هذه الظاهرة التاريخية إلى الشيخوخة المفاجئة بعد أن احتفظت لها ظروفها الخاصة بشباب صناعى لا يتفق وطبيعة طريق التطور في العائلة السامية .

ولا يظن ظان أن الغرض من هذا النقاش هو الخط من قيمة النحو العربي أو التهوين من شأنه كعمل علمي سبق عصره بقرون . بل الغرض هو التمهيد لرأي اعتقد أن الملاحظات التاريخية والقرائن العلمية تنزهه وأن لم يرد بذلك ذكر صحيح في كتب التراث : ويتلخص هذا الرأي في أن تعقيد قواعد اللغة والاهتمام بعلم النحو كان التقصد به أساساً خدمة الأعاجم ومساعدتهم على تعلم العربية ، ربما انتفاء لما قد يحدثونه فيها من ضرر إذا تركوا وشأنهم وربما - وهو الأرجح - استجابة لازدياد الرغبة في تعلم هذه اللغة بعد أن أصبحت لغة السادة الجدد في بلادهم . وإذا سلمنا بهذا الرأي سهل علينا تفسير عدة أمور . منها : تركز هذا العلم في أيدي الموالى والأجانب من أصحاب المصلحة الأولى فيه . ومنها أيضاً تأثير هؤلاء النحاة من الموالى في تعقيد قواعد العربية بقواعد اللغات الأجنبية التي كانوا يعرفونها بحكم المولد والشاة^(٢) .

- (١) تحليل القارئ على التحليل القيم الذي قدمه الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس لمغزى الإعراب في مقاله المشار إليه آنفاً . من أسرار اللغة ص ٢٢١ .
(٢) يوهان فك : المرجع السابق ص ٣ .
(٣) دكتور تمام حسان . نتائج البحث في علم اللغة ص ١٦ وما بعدها .

حقيقة يصر علماء العربية على أن وضع النحو كان نتيجة لحطأ العرب - ومن شأنهم الفصاحة منهم - في اللغة العربية ، ولكننا نعتقد أن القول بهذا الرأي ليس فيه الحق كله ، وأنه تبسيط غلظ لظروف وعوامل اجتماعية متشابكة تصافرت كلها في الوقت المناسب لكي تنتج الاهتمام بقواعد اللغة . ويغلب على الظن أن الأقوال المتوارثة في هذا الباب كانت من صنع المولى النحاة أنفسهم . ولعلمهم بذلك أرادوا أن يخلعوا على عملهم صفة الضرورة لا بالنسبة لهم فحسب بل وبالنسبة للعرب الفصحاء أنفسهم ، خاصة بعد أن أصبحوا موضع الهجوم من الغيورين على اللغة لإفسادهم لها . وفيما ترويه لنا المصادر من أن الشعبي مر على جماعة من المولى يتعاطون النحو فقال لهم : «لئن أصلحتهم لأنتم أول من أسفده» (١) في هذا وأمثاله بعض الاحتجاج لما نقول .

أما حركة جمع من اللغة فقد بدأت إسلامية أول الأمر بهدف جمع الكلمات العربية في القرآن (٢) وتقديم تفسير لها ، ثم أخذت بعد ذلك شكلاً عربياً تحت تأثير انتقال العرب إلى حضارات غربية عليهم وبهدف حماية الكلمات التي كانت تعبر عن حضارتهم البدوية من الضياع من ناحية ، وبهدف ترقية الحصول القفوي - الذي كانت تستعمله الألسنة ويجري به أقلام الكتاب - من المغرب والندخيل من ناحية أخرى .

كان هذا العمل في رأينا - على العكس من النحو الذي كان فيه إلى حد كبير مساعدة للأجانب على اكتساب العربية - كان هذا العمل حماية لعربية العرب الفاتحين . هؤلاء الذين اضطرتهم الظروف وأشكال المجتمعات الجديدة إلى استخدام كلمات ليست في من العربية الأصلية . وإذا سلمنا بهذا الرأي سهل علينا بعدئذ أن نفسر أموراً اختلفت فيها حركة جميع من اللغة وإخراج المعاجم عن حركة تعقيد القواعد ووضع أسس النحو .

من هذه الأمور أن التدوين في من اللغة كان إلى حد كبير متركزاً في أيد عربية - أو على الأقل - كان كذلك في مطلع الحركة على العكس من النحو . ومن هذه الأمور أيضاً أنه في الوقت الذي تأثر فيه النحو العربي على أيدي النحويين المولى بنحو اللغة اليونانية وفلسفتها على الأخص فقد بقيت حركة المعاجم عربية ذات أصالة واضحة .

(١) الجاحظ . البيان والبيان ١ ص ١٧٦ .

(٢) ونسب أول رسالة في غريب القرآن ، لابن عباس .

فلم تكن نقلاً عن أحد ولم يثبت أنها تأثرت بمصدر خارجي عن البيئة العربية . فالخليل ابن أحمد - صاحب أول قاموس كبير منظم في اللغة العربية - قد اتبع في عيوب قاموسه طريقة تنفق وطبيعة اللغة العربية ونابعة من بنية كلماتها وهي التيوب تحت مادة الاشتقاق (١) .

وعلى الرغم من أصالة العرب في فن القواميس - هذه الأصالة التي شهد بها المستشرق هيود - في افتتاحية كتابه المشار إليه في هامش الصفحة - حين قال : « احتل العرب مكان الصدارة بين أمم العالم في عمل القواميس ، فلم يسبقهم فيه أحد . . . ولو قبض لمعجزة أن تبعث عربياً من القرن الخامس عشر الميلادي وزار بريطانيا القرن العشرين فلن يدهشه أن يرى أجزاء قاموس أكسفورد الضخم مستقرة فوق أرفف المكتبات ، بل بالعكس سيدهشه عدم وجود مثيله حتى الآن في بعض البلاد الأوروبية (٢) » . على الرغم من هذه الأصالة فإن العرب أنفسهم أو المتأخرين منهم على الخصوص لم يقدروا هذا العمل حتى قدره . فانزوى القاموس وأرغم على احتلال ركن مظلم على خريطة الثقافة العربية لم تفلح الجهود في إخراجه منه إلى اليوم . ففي الوقت الذي يدرس فيه التلاميذ ما لا يقل عن اثني عشر كتاباً في قواعد اللغة خلال فترة التعليم التي تسبق دخولهم الجامعة فإن الغالبية العظمى منهم بمضون هذه المرحلة دون أن يستخدموا قاموساً عربياً أو حتى يتصفحوه عن قرب .

كانت هذه هي صورة الأخطار التي أحاطت باللغة في بداية عصر الفتحوات ففكرتها مأخوذة مبهورة الأنفاس ! ولكن أين القرآن والإسلام من كل هذا ! لقد وجد العلماء أنفسهم أمام معادلة صعبة . فالقرآن قد نزل بعربية ما قبل الإسلام ، هذه العربية التي كانت تتعرض أمام أعينهم لمؤثرات تكاد تبعتها عما كانت عليه قبل الإسلام . أي أنها كانت آخذة في التطور . وإذا سارت الأمور على نفس المنوال

(١) يذكر جون هيود في كتابه « فن المعاجم العربية » أن المعاجم الهندية (وهي التي يقال أن العرب قد تأثروا بها) كانت أولاً في صورة منظومات شعرية لا تتبع تنظيمها معيناً ، ثم اتخذت صورة الترتيب على حسب المعاني مع علم اتباع نظام ثابت في أعداد الكلمات داخل كل قسم . ولم يصدر أول معجم منظم بطريقة مقولة في اللغة الهندية إلا في القرن الثاني عشر الميلادي أي بعد أن كان العرب قد أنتجوا فعلاً عدداً من أبرع الأعمال القاموسية في لغتهم .

(٢) المرجع السابق نفسه ص ١ - ٢ .

فستبعد تدريجياً لتنتسج عن اللغة التي نزل بها القرآن . ولما كان النص القرآن لا يتغير فسيأتي اليوم الذي لا يستطيع فيه عربي مسلم أن يفهم منه شيئاً .

كان الطريق الوحيد الذي ظهر أمام هؤلاء العلماء هو أن يحاولوا شيئاً لم ينجح في تحقيقه أبناء أية لغة أخرى في التاريخ : سواء من جاء قبلهم أو بعدهم . فقد قرروا أن يقفوا باللغة ذاتها ويعزواها عن تيار التطور . أو بعبارة أخرى أن يبقوا التوازي بين لغة المجتمع و لغة القرآن - وهو التوازي الذي كان موجوداً في عصر النبي - قائماً لا يفتك إلى الأبد .

لقد أرادوا أن يجمدوا اللغة العربية في مرحلة اختاروها من بين مراحل تطورها التاريخي بحيث يحتفظون لها بكل خصائصها في تلك المرحلة . تماماً كما يفعل علماء التغذية في هذه الأيام حيناً يجمدون الأطعمة حسب الطريقة التي يسمونها « التجفيد السريع » فيحتفظون لها بخصائص الطعام الطازج من لون وطعم ورائحة دون نقص يذكر في قيمتها الغذائية .

وقد نجحوا في ذلك أياً نتجاح . فجمدوا أصواتها فيما أصبح يعرف بعدئذ بعلوم القراءات والتجويد وأبواب الإدغام . وجمدوا أبنيتها في علم الصرف ، وتراكيب جملها في علم النحو ، وأساليبها ومعاني تلك الأساليب في علوم البلاغة ، كما أحصوا ثروتها اللفظية وأثبتوها في المعاجم من متخصصة وغير متخصصة .

على أن ذلك العمل التقديدي - إلى جانب كونه أدى خدمة للقرآن والإسلام - كان في الوقت ذاته خدمة للغة العربية ذاتها كلفة . فقد رفعها إلى مصاف اللغات المقتنة . وبعد أن كانت مجرد نشاط تلقائي لا رقيب عليه ولا ضابط له أصبحت وثيقة من وثائق التاريخ اللغوي للإنسانية . ولم يكن ذلك العمل غريباً على حضارة الدولة العربية في ذلك الوقت ، فقد تم تقنين اللغة في الوقت الذي تم فيه تقنين الدولة وإرساء أسس الحكم فيها .

على أن تجفيد الطعام مع الاحتفاظ له بقيمته الغذائية شيء وتجميد اللغة مع الاحتفاظ لها بكل خصائصها الحضارية شيء آخر . فلكي تبقى اللغة طازجة في تناول أسباع أبنائها وألستهم لابد وأن يبقى التوازي قائماً بينهما وبين المجتمع

الذي يعيشون فيه . أي لابد وأن تظل مرآة تعكس حضارتها وتعبّر عنها . فكان على النحاة لكي ينجحوا تماماً فيما أرادوه أن يجمدوا الحياة أيضاً كما جمدوا اللغة . كان عليهم أن يجمدوا صورة الحضارة التي كانت قائمة وقت تجفيد اللغة بحيث يبقى التوازي التسميري دائماً بين الاثنين . غير أنهم لم يحاولوا هذا ، وما كان لهم أن ينجحوا لو حاولوه .

لقد كان لدى العرب - بعد أن خرجوا من حصار مجتمعهم الضيق في الجزيرة شغف نادر المثل بالعلم والحضارة واتخاذ أسبابها . أي أن طبيعة الشعب العربي كانت في الواقع تساعد على تغير حضارة المجتمع وتطورها وبالتالي على إحداث التخلخل بين الصورة اللغوية المجمدة وبين المجتمع العربي المتطور . وقد ساعد على زيادة هذا التخلخل أسباب أخرى . من أهمها : تعدد صور المجتمعات العربية واختلاف ألوان الحضارة فيها تبعاً لاختلاف تاريخها وثقافتها قبل الإسلام . فلا نزاع أن مجمع فارس كان يختلف من وجوه كثيرة عن مجمع الأندلس أو مجمع مصر أو مجمع شمال أفريقيا مثلاً . هذا إلى أن العرب الخالص الذين فقهوا العربية ونهلوا من مواردها الأصلية كان عددهم قليلاً جداً بالنسبة لسكان البلاد المفتوحة ، هؤلاء الذين اختلطوا معهم بالتزاوج والتعامل والمعايشة ، خاصة بعد أن رفع الحظر الذي كان عمر قد ضربه على سكنى العرب داخل المدن المفتوحة وتملكهم الأراضي فيها^(١) . (ومن يدرى فدل الخوف على اللغة العربية كان من بين الحوافز التي دفعت عمر إلى فرض ذلك الحظر الشهير ، وإن كانت المصادر التاريخية لم تشر إليه عند تفسيرهم له) أضف إلى ذلك أن تقنين العربية وتقييدها كان إيماناً بدورها الكب واحتياجها عطف حائظ الكتابة وبدها عن التلقي والمشافهة . أي أنها أصبحت أهد متاولاً عن ذي قبل بالنسبة للأميين ، وهم الغالبية العظمى من أبناء الأمة العربية . فكلما زادت صلتها بالكتابة قل ارتباطها بالخطاب ، وكلما تعلقت بمجالس العلم ومدارس العلماء زاد انحسارها عن مجالس البيع والشراء . ولا حاجة بنا إلى كثير من الجهد لكي نقرر أن الجاهليين - العلم أو البيع والشراء - أكثر تلقائية وأشد اتصالاً بالتفوس .

كان العمل الذي قام به النحاة في الواقع سبباً في تثبيت ازدواجية اللغة لا عاملاً

(١) كتاب الحراج لأبي يوسف ص ١ و ص ١٤ .

في توحيدها كما أرادوا أن يكون . فبتحديد صفات الفصحى تحديداً يزيل عنها الالتباس بغيرها ، ويحميها من عوامل المجتمع الخارجي ويعلق الباب أمام دخول لغة الحياة المتطورة عليها - بتحديد صفات الفصحى بتلك الطريقة ساعدوا - دون قصد منهم - على تحديد صفات لغتين لا لغة واحدة : اللغة التي تقع داخل الحدود واللغة أو اللغات التي تقع خارجها ، أو اللغة الصحيحة وما عداها ، أو بعارة أقرب إلى المتداول الآن الفصحى والعامية .

وقد ترتب على هذا التحديد أشياء : ثبتت الفصحى في مكانها انتظاراً لمن يطرق بابها ، ويطلبها حيث هي نازلاً على متطلباتها . وإذا حدث واستجاب لدعوة جرىء للخروج فإن ذلك يكون على استحياء ، وداخل إطارها المقين ، وبعد فحص دقيق لما يجوز وما لا يجوز . ثم هي تفعل ذلك - إن فعلته - وعيناها دائماً الشخصيات إلى الوراء في الوقت الذي كان فيه المجتمع من حولها لا يكف عن السير في الاتجاه الخفاف . أما العامية - أو ما عدا الفصحى - فقد واكبت المجتمع ونزات على مقتضياتها . عايشت الناس في منازلهم وشاطرتهم مضاجعهم واختلطت بهم في أعمالهم أمت صفقاتهم ، وقاسمتهم أفراحهم وآسأهم في مصائبهم وعبرت عن خلجات نفوسهم ونفقت لنبضات قلوبهم .

حدث كل ذلك نتيجة لجهود النحاة . فقد كباوا بالقيود لغة وتركوا أخرى مطلقة السراح . عزلوا واحدة عن وجدان أبنائها ، وتركوا أخرى تنسال لتحل هذا الوجدان . وبذلك ثبتوا - من حيث لم يقصدوا - عوامل الانفصال بين الفصحى وبين العرب بعد عصور الفتح . ولقد كان من الممكن نتيجة لذلك أن تسير الفصحى في اتجاه وتسير حياة العرب العامة ومعها اللغة التي تعبر عنها ، وهي العامية ، في اتجاه معاكس ثم تزداد كل منهما بعداً عن الأخرى بمرور الزمن واختلاف المجالات إلى أن تنفصلا انفصالا تاماً وتصبحا لغتين مستقلتين تمام الاستقلال كما حدث بالنسبة للهجات اللغة اللاتينية التي تطورت وازدادت بعداً عن اللاتينية من جانب وبعداً عن بعضها البعض من جانب آخر إلى أن أصبحت لغات مستقلة هي ما نسميه الآن بالفرنسية والإيطالية والإسبانية . . . الخ .

ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث . فما ذكرناه من عوامل انفصال بين العرب وبين

لغة القرآن لم تكن تمثل من الواقع سوى نصفه فقط . أي لم تكن وحدها التي تعمل . لقد كانت هناك عوامل أخرى مضادة لها - يمكن أن نسميها عوامل اتصال - كانت تعمل جاهدة في الوقت نفسه لتوثيق الصلة بين العرب وبين الفصحى . فالعربية التي خرجت من الجزيرة ناطقة بلسان الدين وبأدب العرب الذين يبشرون به أصبحت في الأمصار - وفي الجزيرة العربية أيضاً - ناطقة إلى جانب ذلك بلسان الدولة التي قامت على أسس الدين الجديد . وفيها عدا بعض الوظائف الخاصة - كالطب مثلاً - لم يكن أصحاب السلطان في الدولة العربية ليعينوا في مناصب الدولة وخاصة الهامة منها ، سوى من تملكوا ناصية العربية الفصحى كما أن المسلم لم يكن ليحسن إسلامه بغير دراسة الفصحى والتفقه فيها كوسيلة لقراءة القرآن وفهمه .

لقد دخل أهل الأمصار الدين أفواجاً ، وهرعوا وهرع معهم أبناء الجزيرة إلى أبواب السلطان أفواجاً وكانت أقرب الوسائل إلى نيل ما يطلبون . منهما تتضمن معرفة الفصحى بل وإجادتها . فكم من عبارة فصيحة حولت غضب السلطان إلى رضى ورضاه إلى غضب ، حقيفة يحدنا مؤرخو اللغة عن زيادة تفضى العجمة وشيوع اللحن ابتداء من عصر الفتح (تأثراً بعوامل الانفصال المذكورة) ولكنهم يحدوننا في الوقت ذاته عن زيادة لغيره الغيورين - وقد كانوا عادة من رجال الدين ورجال الدولة - على العربية وترائها (تأثراً بعوامل الانفصال) .

لقد أدى تفاعل هذه العوامل في العصور الإسلامية الأولى إلى بذرة الأوضاع اللغوية القائمة الآن . فقد ارتبطت الفصحى بالدين وبالعلم وبالدولة وتخصصت في شئونها . وبفضل التضاد الذي قام بين ما سميته بعوامل الاتصال وعوامل الانفصال سارت اللغتان جنباً إلى جنب بدلا من أن تسيرا في اتجاهين متضادين .

على أن المسافة التي كانت تفصل بين الفصحى والعامية في رحلتها عبر القرون لم تكن ثابتة القياس بحال من الأحوال . فقد كان إتقان إحداهما والتخلف في الأخرى كثيراً ما يخضع لعوامل مختلفة من دينية وجنسية وثقافية وسياسية ومكانية . فمثلاً اليهودي أو المسيحي الذي كان يتسارى مع شخص مسلم في جديج ظروف حياته الأخرى - فيها عدا الدين - كانت عربيته عادة أقل من عربية ذلك المسلم . كذلك كان الشخص الذي ينشأ في مدينة كبرى وعلى مقربة من رجال العلم أكثر

حظاً في الفصحى من نظير له مساو في جميع الظروف الاجتماعية من يعيشون في مكان لا أهمية له من قرى السودان أو قرى مصر . ونظراً لنشأته هذه العوامل فلها كانت تعمل بطريقة معقدة بحيث كان يؤدي أى اختلاف في درجة فاعلية إحداها إلى تغير الصورة اللغوية للمجتمع كله . ولكن على الرغم من تعدد هذه العوامل وتعددتها فلها يمكن أن تلخص في شيء رئيسي واحد كان ولا يزال له أبعاد الآثار على الفصحى ماضياً ومستقبلاً . ذلك الشيء هو أنها أصبحت - بعد توثيقها - مرتبطة بالتعليم وبالمدارس وبالكتب . ولما كان التعليم يخضع لظروف المجتمع عامة من ناحية ظروف كل فرد وطبيعة بيئته من ناحية أخرى فقد ارتبط ازدهار الفصحى بازدهار حضارة المجتمع ضعفاً وقوة . ولعل هذا هو السبب في أنها لم تزد في الحضيض بسقوط الدولة الأموية^(١) (ذات الطابع العربي) وقيام الدولة العباسية (التي قضت على العصبية العربية) . بل بالعكس ازدادت ازدهاراً بازدياد ازدهار الحضارة العباسية على الرغم من الطابع الفارسي لتلك الدولة . وحتى الشعوبيين الذين كانوا ينتقصون من هذه اللغة وأهلها كانوا من أحرص الناس على تعلمها وإتقانها . فما كانوا ليسبحوا لأنفسهم بالتخلف عن ركب الحضارة حتى ولو عني ذلك دراسة العربية .

كذلك ارتبط إتقان الفصحى على الصعيد الشخصي بظروف الفرد وطبيعة نشأته . فثلاً أدى انتشار اللغة العربية تحت لواء الإسلام المظفر إلى أن كثيراً من أبناء الجاليات اليهودية في المدن المفتوحة بالأمصار - بدأ كثير منهم يتكلمون باللسان العربي منذ القرن الأول للهجرة . بل، إنه لم يأت القرن الرابع حتى كان معظم رجال الدين اليهود في العراق وفلسطين وفارس يتكلمون بالعربية . وكذلك كان جميع أفراد المجتمعات اليهودية في تلك البلاد يستخدمون هذا اللسان . ولهذا كان معظم التعليقات والشروح التي كتبت في ذلك الوقت على العهد القديم والمنشأ والتلمود باللغة العربية ، وكذلك كانت كل المؤلفات الأخرى التي كان يكتبها اليهود . والسبب في ذلك أن اللغة

(١) يذكر يوهان فك سبباً آخر لعدم تدرى اللغة العربية في هوة السقوط الذي حاق بالدولة العربية . فيقول : « ربما كان سبب ذلك هو أن لغة القرآن قد صارت في شعور كل مسلم ، أياً كانت لغته الأصلية . جزءاً لا يتفصل عن حقيقة الإسلام » ص ٥٠ . ومع أننا لا نرفض هذا السبب إلا أننا نشرك مع السبب الحضاري الذي ذكرناه إذ أن شواهد التاريخ ترجحه وعلى كل حال فقل هذه الظواهر ترجع عادة إلى عدد من الأسباب لا إلى سبب واحد .

العربية كانت هي اللغة التي يفهمها الناس جميعاً ، بما في ذلك اليهود^(١) . ومع ذلك فلا يمكن لنا أن نتصور أن تعلم أبناء الجالية اليهودية للغة العربية كان يتبع نفس المنهج الذي كان يتبعه تعلم أبناء المسلمين . فعلى الرغم من أنهم كانوا قد هجروا لغاتهم^(٢) الأصلية من عبرية وآرامية وركزوا على العربية إلا أننا نستطيع أن نقول إن تبعيتهم للديانة اليهودية وقفت حاجلاً بينهم وبين أكبر مصدر للعربية الفصحى وهو القرآن والحديث وتفسيرها وعلوم الشريعة الإسلامية وما يتصل بها . وكانت هذه بالطبع من أسس الثقافة ودراسة العربية لدى المسلمين . ولا شك أن لغة اليهود العربية قد عانت من نقص هذا الجانب في دراسة أبنائها وخاصة في المراحل المبكرة من سنى حياتهم .

ويقول « بلاو » إن عجز اليهود عن إتقان الفصحى كان سبباً في ظهور أدب خاص مكتوب بما دعاه « العربية اليهودية » كان حافلاً بكثير من الصفات اللغوية التي تختلف عن صفات الفصحى ، والتي ترجع أساساً إلى ما دعاه « بالعربية الوسطى »^(٣) . ولم يكن ظهور هذه الصفات اللغوية - في رأيه - نتيجة محاولة إزديدة لاستخدام هذا النوع من الكتابة بدليل أن كل ما كتبه اليهود في القرون الوسطى قد امتاز بصفة مشتركة لا تختلف وهي أنه لم يكن مكتوباً بالعربية الوسطى . بل أن الواضح فيه أن مؤلفيه كانوا يقصدون الكتابة بالعربية الفصحى وإن كان عجزهم عنها قد قعد بهم عن تحقيق ما قصدوا تحقيقاً كاملاً ، فظهرت فيه كثير من الصفات الخاصة « بالعربية الوسطى »^(٤) . ويبدو أن « بلاو » في حاجته هذه يحاول الرد على مثل قول يوهان فك من أن اليهود لم يحاولوا أن يستخدموا « الأولى » عهدهم بالكتابة العربية تلك العربية الفصحى ، بل اللغة الدارجة في عصرهم^(٥) .

(١) J. Blau, The emergence and linguistic background of Judaeo Arabic, Oxford (١) University Press, 1965, P. 19 and P. 3 .

(٢) في المرجع السابق ص ٢١ يتحدث المؤلف عن انتقال اليهود للغة العربية ويناقش الأسباب التي حدثت بهم إلى هذا العمل ويرجع منها قرب العربية من لغاتهم الأصلية .

(٣) « العربية الوسطى » تقابل « العربية المولدة » عند يوهان فك .

(٤) انظر مناقشة هذه القضية في صفحات ٢٤ - ٢٦ من المرجع المذكور .

(٥) يوهان فك : ص ١٠٠ .

وسواء استخدم اليهود الدارجة في أوائل عهدهم بالكتابة ثم العربية المولدة بعد ذلك أو استخدموا العربية المولدة منذ البداية فإن ذلك لا يؤثر على ما نريد إثباته هنا ، وهو أن نوع التعليم الذى كان يتلقاه اليهود كان سبباً في نشوء عربية كتابية خاصة بهم ، وأن هذه العربية كانت تختلف عن الفصحى وعن الدارجة في الوقت نفسه . وقد وجد العلماء بفحص المادة المكتوبة بها أنها تتكون من خليط من عناصر لغوية ثلاثة هي :

(أ) العربية الفصحى .

(ب) ما يظنه الكاتب أنه العربية الفصحى (مثل استخدام هـى بدلا من حتى) .

(ج) اللهجات الدارجة (مثل استخدام الجمع مكان المثنى يفعلون في مقام يفعلان)^(١) .

وهكذا اتضح لنا الخطوط العريضة للقواعد التي سار عليها تطور التركيب اللغوي للمجتمع العربى والتي يمكن تلخيصها في الآتى :

(أ) في أقصى اليمين كان هناك « الفصحى النقية » تتمثل في القرآن والموتوق به من الحديث والشعر والنثر المجمع على قيمته ، وكانت بهذه الصفة طلبة المتعلمين والمثلى الذى يحاول أن يجتذبه كل متضف .

(ب) وفي أقصى اليسار كانت هناك العاميات التي لم تحظ باعتراف من أحد - وإن كان كل واحد يستخدمها - والتي اختلفت من مكان إلى آخر .

(ج) على أن ما بين الاثنتين لم يكن فراغاً . فقد ساعد التعليم ، أو بعبارة أكثر دقة ، ساعد النقل في تحقيق أقصى غايات التعليم ، على وجود ألوان أو طبقات من العربية تدرجت في الصحة تبعاً لما استطاع أصحابها تحصيله من الثقافة العربية الصحيحة .

نذكر من هذه الألوان ما ذكرناه آنفاً أسماء المحدثون « بعربية اليهود » و « عربية

(١) « بلاغ » المرجع السابق ص ٢٧ وما بعدها .

النصارى^(١) ونحن نعتقد من جانبنا أن استخدام هذه العربيات الوسطى لم يقتصر على اليهود والنصارى وحدهم ، بل تعداه إلى غيرهم من المسلمين ممن لم يتألوا حظاً وقيراً من العلم القديم . وأن هؤلاء المسلمين من محدودى الثقافة كانوا يستخدمون في كتاباتهم وفي إنتاجهم الشفوى للفصحى لغة ثقلاً كثيراً عن المستوى الذى حدده النحاة واللغويون القدماء . ويشهد لهذا الرأي وجود هذا العدد الكبير من الكتب التي أنثت في العربية منذ الكسائى في القرن الثانى والتي خصصت للملاحن التي كان يقع فيها العامة وللخاصة وما يظن أنه لحن للعامة وهو ليس باللحن . . . إلخ . حقيقة وردت هذه الكتب في صورة ملاحظات منفردة دون أن ينسب أصحابها وقرع هذه الملاحن والأخطاه إلى عمل تأليفى معين (على عكس الدراسات الحديثة التي توجّهت للتوثقات البيردية والنصرانية) ولكن ذلك قد يرجع - إلى اختلاف طريقة التأليف عند المؤلفين العرب القدامى عنها عند المؤلفين الأجانب في العصر الحديث .

كذلك يشهد لوجود مثل تلك اللغة التي لم تكن تعتمد على الإعراب وغيره من صفات العربية الفصحى والتي كانت سائدة في عصور متأخرة - يشهد لوجود مثل تلك اللغة عالم دقيق الملاحظة ذو بصيرة بالظواهر الاجتماعية وذو قدرة فائقة على وصفها هو ابن خلدون . فقد عقد فصلاً خاصاً لتلك اللغة بعنوان « فصل في أن لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر وحدير »^(٢) . وقد تحدث في ذلك الفصل عن لسان مضر وعن تدوين العلماء أحكام هذا اللسان ووضع مقاييسه واستنباط قوانينه حتى صار علماً ذا فصول وأبواب ومقدمات ومسائل سماه أهله « علم النحو » . ثم ينتقل إلى اللغة المعاصرة له فيقول عنها : « ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربى لهذا العهد (أى عصره هو) واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابية في دلالتها بأمر أخرى موجودة فيه فتكون لها قوانين تخصها ولعلها تكون في أواخرها على غير المساج الأول في لغة مضر . فليست اللغات وملكانها مجاناً » .

ولم يشذ الوضع اللغوى في المجتمع المصرى فيما بين الفتح الإسلامى وبدء العصر

(١) المرجع السابق يتضمن وصفاً لبعض الآثار النصرانية المكتوبة « بعربية وسطى » حوالى القرن الثانى الهجرى . انظر ص ٥ وما بعدها .

(٢) مقدمة ابن خلدون . فصل ٣٩ ص ٦٣٥ - ٦٣٧ (القاهرة مطبعة التقدم) .

الحديث عن هذه الصورة العامة : فدراسة العربية ظلت قائمة في مصر وتحت ظروف مشابهة بصورة عامة لظروفها في المجتمعات العربية الأخرى منذ الفتح العربي ، وشهدت عصور انحطاط وعصور ازدهار . وكان للتعليم الديني في الأزهر أكبر الأثر في الحفاظ على الفصحى قائمة بصورتها القديمة . كذلك خضعت دراسة العربية في مصر لمثل العوامل الدينية والاجتماعية التي خضعت لها في البلدان العربية الإسلامية الأخرى ، وإن اختلفت الصورة في تفاصيلها المصرية تحت تأثير العوامل المحلية . وكنيجة لذلك قامت في مصر درجات من العربية ما بين فصحى وعامية نشية في صورتها العامة نظيراتها في بلاد المشرق العربي^(١) .

٤ - ثم ظهر رابع الأحداث الحضارية الكبرى التي أشرنا إليها قلب ظهوره الأوضاع في مصر بل وفي الشرق العربي كله رأساً على عقب وتغلغلت آثاره في كل دقائق الحياة وتفصيلها . فقد جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر فأحدثت أول ثغرة في الجدار النفسي الذي كان يفصل مصر والشرق عن دنيا الحضارة الغربية الحديثة . كانت الحملة الفرنسية بما حملت معها من صور حضارية غريبة تحمل معها تحديات للعرب ولغتهم أكبر بكثير من التحديات التي واجهوها في المزيين السابقتين . ففي هذه المرة كانت العربية تواجه تيار حضارة غربية عليه دون أن يستدها سلطان من سيادة أهلها كما حدث لها في المزيين السابقتين . كان العرب في هذه المرة مندحرين قد دخلت عليهم من أقطارها . وكانت حضارتهم مضبوطة تقابل على استحياء حضارة الغرب الفتية .

وقفت اللغة العربية موزعة بين منطلق العقل ونوازع القلب . عقلها الذي أفتنعت حضارة العلم الغربي . وقلبا الذي كان لا يزال في حوزة الدين . وكانت اللغة في موقفها ذلك تعكس موقف المجتمع نفسه من قوالب الحضارة الجديدة موقف التوزع والانقسام بين الإخلاص والتعلق بانتقاليد الشرقية ، والدهشة والإعجاب بالحضارة الوافدة . وكان هذا التوزع والانقسام في صير اللغة عاملاً جديداً في حركة تطورها أدى إلى إحداث خلل في التركيب اللغوي للمجتمع المصري وخلق مستويات جديدة في التعبير بها .

(١) للأستاذ محمد رضا الشبيبي بحث قيم بعنوان « في تاريخ اللهجة المصرية » منشور بمجلة المجمع عدد ١٢ عام ١٩٦٠ ص ١٢٩ . وقد ذكر فيه بعض نماذج من الألفاظ المصرية الدارجة والتي وردت في مؤلفات ترجع إلى القرن الخامس .

ولم يلق شيء من ذلك قبولا لدى المحافظين وحماة التقاليد . وبدلاً من أن يبحثوا الواقع على حقيقته ويتخذوا بشأنه الخطرات التي تنفق معه ، أداروا ولا يزالون يدبرون في الوقت الحاضر معارك لغوية حول مسائل غامضة أخذت أسماء مثل : « قضية الفصحى »^(١) و « العامية » و « ألفاظ الحضارة » و « اللغة الثالثة » و « إصلاح النحو » و « التعريب » ... إلخ .

ولما كنا نعتقد أن من الممكن أن تمضي تلك المعارك إلى ما شاء الله دون أن يصل أصحابها إلى أية نتيجة ما لم تتضح جوانب المشكلة وتدرس عناصرها على حقيقتها - فقد قمنا بهذا البحث محاولة رسم صورة واقعية للتركيب اللغوي للمجتمع المصري (أو ما أسميناه بالمستويات اللغوية) وربطه بالواقع الحضاري الذي نعيشه دون أن نسمح لعاطفة أو فكرة مسبقة أن تتدخل في أية مرحلة من مراحله . وأملنا ألا نكون بهذا العمل ممن يسهمون في تلك المعارك ولا ممن يناقشون تفصيلاتها أو يؤرخون لها . فالعلم ليس معركة حقيقية قد نجد أنفسنا في بعض الأحيان قد اقترنا بالقارئ من ميادين تلك المعارك حتى ليكاد يحس معنا بلفح من نارها ولكن ذلك - عندما يحدث - سيكون بغرض وصف واقع لا نرى بدا من وصفه . ولن نحكم له أو عليه .

ولما كان من المقيد للبحث العلمي أن نربط ما وصلنا إليه من نتائج بما وصل إليه من سبقونا في هذا الميدان من دراسات - وإن كانت على أسس مختلفة - فقد قسمنا ما بقي من هذا الكتاب إلى قسمين : قسم عرضنا فيه بعض نماذج نعتقد أنها تمثل ما نشر في هذا الميدان من أبحاث وآراء . وخصصنا له الفصل الثاني . وقسم عرضنا فيه ما قمنا به من أبحاث وملاحظات . وخصصنا له الفصل الثالث .

(١) يستطيع القارئ أن يرجع إلى كتابي الدكتوراة فحوصة زكريا « تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر » و « عباد الله النديم بين الفصحى والعامية » ففيهما تاريخ قيم لهذا الموضوع كما أن فيها ثباتاً هاماً بكثير من المادة التي كتبت بالعامية المصرية في العصر الحديث .

افضل الشائى

المستويات فى مصر كما يراها الباحثون

لا بد في بداية هذا الفصل من أن نقدم تحديداً لما نقصده بمصطلح « المستوى اللغوي » وأن نفرق بينه وبين مصطلحين شاعا في الاستعمال العام والخاص على السواء وهما مصطلحا « اللغة » و « اللهجة » .

فعلی الرغم من أن علماء اللغة قد كفوا مؤخرأ عن محاولة اقتراح تعريفات للمصطلحين الأخيرين ، بعد أن تبين لم عمق هذه المحاولات في الوقت الحاضر على الأقل ، إلا أن هذا التوقف لم يمنع أحداً من استخدامهما بكثرة مما ساعد على تكوين مفهوم عام لهما يؤدي الغرض في كثير من الأحيان . فنحن مثلاً نتكلم عن « اللغة العربية » وعن « لهجة القاهرة » آخذين كقضية مسلم بها أن القارئ « يعرف ما نقصد » . وأن الثانية تندرج تحت الأولى اندراج الخاص تحت العام .

ولا اعتراض لنا على هذا الفهم - من الناحية العملية على الأقل - طالما بق الأمر على هذا المستوى من التجريد : « لغة » في مقابل « لهجة » . أو حتى على مستوى تجريدي أقل من هذا ، « لغة عربية » في مقابل « لهجة مصرية » أو « لهجة سورية » ... إلخ .

على أن الأمر يختلف إذا ما تركنا التجريد وهبطنا إلى المستوى الواقعي للإنتاج اللغوي نفسه . ونمثل لذلك بنص نقتبسه من مسرحية الأستاذ محمود تيمور « الحبا رقم ١٣ » . ولذنه المسرحية وضع لغوي خاص . فقد أصلدها الأستاذ تيمور في نسختين ، قال عن واحدة إنها بالفصحى وقال عن الأخرى إنها بالعامية . ولذلك فعباراتها متقابلة تمام التقابل مما يعطى الباحث فرصة فريدة للدراسة لغة الأدب كما يتصورها كبار الأدباء في العصر الحديث .

يقول « قشقوش » ماسح الأحذية مخاطباً بسوسة المرأة العجوز :

« الخروج ممنوع يا خالتي .. كوفي مطمئنة على ابن بنتك .. ما الذي تخشيه عليه من هذه الغارات ؟ .. سوف يطرب جدا لمنظر الطائرات وهي تحلق في السماء كأنها النحل وسوف يصفق لها ويصبح .. ياليتني كنت معه ^(١) وترد العبارة ذاتها في نسخة العامية على الصورة التالية :

(١) محمود تيمور ، الحبا رقم ١٣ ، مطبعة دار الهلال ١٩٤٩ : ص ٢١ .

« دول محرجين ما حدثش يخرج ياخالتي .. مفيش جنس واحد دخل يقدر يعتب الباب إلا بعد ما بيان بياضها من سوادها . وخابفه على إيه ؟ حطى فى بطنك بطيخه صينى .. ابن بنتك دلوقت تلاقيه فرحان ومزقطط مستنى الطيارات لما تزن فى السما زى النحل ياما حيسقف ويعمل له هيله وهولوه .. ياريتنى معاه ياخالتي نفرش سوا .. » (١)

ولو سألنا واحدا من المثقفين المصريين عن العلاقة بين هذين النصين لكانت إجابته فى الغالب : تلك « فصحى » وهذه « عامية » . ولو سألنا مصرياً غير مثقف فن المحتمل أن يقول « واحده بالبلدى والثانية بالنحوى » أو ما أشبه . ولو سألنا سوريا مثلاً لقال « الأول بالفصحى » والثانية « بالعامية المصرية » .. ولكن أحداً لن يذكر شيئاً عن تضمن أحد النصين أو أشباهه على الآخر .

وحى لو تركنا النصين المذكورين بعينهما وصعدنا فى التجريد درجة أعلى فقابلنا بين « الفصحى » و « العامية المصرية » فلا يمكن لنا أن نقول إن الأولى أهم من الثانية . إذ لو قلنا بذلك لرتب عليه وجوب القول بأن قوانين الفصحى تشتمل على قوانين العامية ، بل وجميع العاميات أيضاً ، وهو مالا يقول به أحد . فالفصحى فى الواقع ليست إلا لهجة ارتقت حتى أصبح لها أكبر قدر من المكانة والأهمية بين أبنائها (سواء أفلنا إنها كانت أصلاً لهجة قريش أو لهجة غيرها) ، وهى بهذا المعنى ليست أهم من سواها من اللهجات قديماً أو حديثاً .

وهكذا نصل إلى تقرير نوعين من التقابل ، لكل نوع مصطلحاته الخاصة به :
الأول : ما يسمى « بعامية القاهرة » فى مقابل « اللغة العربية » أو « الخاص » فى مقابل « العام » أو « اللهجة » فى مقابل « اللغة » .

الثانى : ما يسمى « بعامية القاهرة » فى مقابل « الفصحى » ، وليس بينهما عموم ولا خصوص بل هما متكافئان ، ولكل منهما دوره الاجتماعى الذى يؤديه فى الجماعة اللغوية الواحدة . ونحن هنا نقترح استخدام مصطلح « المستوى » فى الدلالة على المتقابلات من النوع الثانى . فنقول مثلاً : « مستوى العامية » و « مستوى الفصحى »

وهكذا . وبهذا المعنى يوجد فى مصر - بل وفى كل بلد عربى - أكثر من مستوى . كذلك من المفيد ونحن بصدد تحديد المصطلحات أن نبين المقصود بمصطلح سوف نستخدمه فى مناقشاتنا وهو « المجتمع اللغوى المتكامل » . وهو عبارة عن المجتمع أو الجماعة الإنسانية التى تعيش عن قرب (بالشروط التى سنذكرها فيما بعد) وتتحقق لديها جميع المستويات اللغوية التى سنحددها . فثلاً القاهرة تعد مجتمعاً لغوياً متكاملًا ، للسبب المذكور ، على العكس من بعض القرى . فقد توجد قرية نائية محدودة العدد ليس لأهلها حظ يذكر من التعليم العام وأهلها لذلك يستخدمون فى محادثاتهم داخل القرية وخارجها (فى المناسبات القليلة التى يفاذرونها فيها) نوعاً واحداً من العامية . مثل هذه القرية فى اصطلاحنا لا تمثل مجتمعاً لغوياً متكاملًا .

وليس غرضنا فى هذا الكتاب أن نجري مسحاً شاملاً للأراضى المصرية لكى نعين ما يكون فيها مجتمعاً كاملاً وما لا يكون . ولكن خطتنا تقوم على اختيار قطاع محدود من هذه الأراضى تتوافر فيه مواصفات « المجتمع اللغوى المتكامل » - وليكن القاهرة - ثم نبين مستويات العربية التى يستخدمها والخصائص اللغوية لكل مستوى على حدة والفرق بينه وبين غيره من المستويات من الناحيتين اللغوية والاجتماعية ، ثم نربط ذلك بالتركيب الاجتماعى لهذا القطاع وبالعوامل التى ساعدت على تحديد هذا العدد بالذات من المستويات اللغوية .

ولما كانت تلك العوامل مصيرية فى نشأتها وتكوينها (أى نتيجة للظروف الثقافية والسياسية التى مرت بها مصر) فإن أثرها ينطبق على بقية قطاعات المجتمع المصرى بطريقة مشابهة لانطباقه على القطاع الذى اخترت للدراسة . حقيقة لا بد وأن توجد بعض الخلافات فى التفاصيل بين قطاع وقطاع آخر (بل إن هذا ضرورى لاعتبارها قطاعين مختلفين) ولكننا نعتقد - كما سنحاول البرهنة على ذلك فى حينه - أن الصورة العامة لتوزيع المستويات اللغوية تكاد تكون واحدة فى أنحاء مصر كلها .

وبعد هذا التحديد لمصطلحي « المستوى اللغوى » و « المجتمع اللغوى المتكامل » تنتقل إلى الموضوع الرئيسى لبحثنا وهو الحديث عن المستويات اللغوية ذاتها ونخطتنا فى

ذلك أن نبدأ باستعراض الأفكار الشائعة في هذا الميدان حرصاً على تحديد جوانب الموضوع أولاً من ناحية ، وتسهيلاً لوضع النظرية التي نعرضها فيها بعد في إطارها الصحيح من التفكير اللغوي المعاصر من ناحية أخرى .

على أننا في هذا الاستعراض سنكتفي ببيان الاتجاهات العامة دون تتبع الأقوال الفردية إلا إذا كان الاتجاه من عمل فرد بذاته أو ارتبط اسمه أو بأعماله بطريقة أخرى .

وأول ما يقابلهنا في هذا الميدان هو الرأي — أو بعبارة أدق الاعتقاد الشائع لدى الغالبية العظمى من المثقفين — والذي يقول بأن المستوى اللغوي الوحيد الموجود في مصر والذي له مقومات اللغة هو الفصحى وحدها . أما العامية فليست عندهم لغة قائمة بذاتها بل هي مجرد تشويه للفصحى . وعلى الرغم من أنهم يرون العامية من حولهم ويستعملونها طيلة الوقت فإنهم لا يعترفون لها باستقلال . فهي عندهم ليست ذات نظام خاص بها وليس لها قواعد أو قوانين . هي فقط مجرد الخطأ أو النقص الذي ظهر في الفصحى . وأصحاب هذا الرأي بالطبع يخلطون بين عدم وجود تدوين لقواعد العامية وبين حقيقة وجودها على الإطلاق . فإلى غير مكتوباً — على حسب قولهم — ليس موجوداً في الواقع .

ولا حاجة بنا إلى كثير من المناقشة لبيان الخطأ الواضح في مثل هذا الاعتقاد . فلو لم يكن للعامية قواعد لما أمكن التفاهم بها . فبمجرد سماعنا شخصاً يقول « محمد ضرب علي » نفهم من قوله هذا أن محمداً هو الذي قام بالفعل وأن علياً قد وقع عليه الضرب . ولا يمكن أن يتم ذلك إلا إذا كان هناك قاعدة على أساسها يستخدم السامع والتكلم اللغة بطريقة موحدة . ولو قال شخص مثلاً « محمد علي ضرب » بتغيير الترتيب « المتعارف عليه » — أي القاعدة لما فهم قصده . وهذا هو ما قصده ابن خلدون « و بالجمالية » (أي بلا قاعدة) في النص الذي اقتبسناه عنه سابقاً حين قال : « فتكون لها (أي العربية في عصره) قوانين تخصها ولعلها تكون في أواخره (أي الكلام) على غير المنهج الأول في لغة مصر . فليست اللغات وملكانها مجاناً » (١) .

(١) ابن خلدون : ص ٦٣٧ .

ومن المدهش حقاً أن يتردد مثل هذا القول في كتاب متخصص صدر مؤخرًا عن العامية المصرية . فقد جاء فيه : « لغة الأدب أو الفصحى هي اللغة التي تستخدم في تدوين الشعر والنثر والإنتاج الفكري عامة ، أما لغة الحديث أو العامية فهي اللغة التي تستخدم في الشؤون العادية ويجري بها الحديث البوي . والأولى تخضع لقوانين تضبطها وتحكم عباراتها والثانية لا تخضع لمثل هذه القوانين لأنها تلقائية متغيرة تتغير تبعاً لتغير الأجيال وتغير الظروف المحيطة بهم » (١) .

وقد أصبح إنكار وجود قواعد للعامية تحت تأثير عدم وجود تدوين لها — أصبح في الواقع إنكاراً غير ذي موضوع . فقد دونت هذه القواعد وكتبت فيها الكتب العديدة وأصبحت موضوعاً للدراسة المنتظمة منذ عشرات السنين . والشيء الذي لا يستطيع المرء فهمه حقاً هو كيف يتحدث هذا الفريق عن العامية فيعتبرها خطأً على الفصحى ، ويحرم الكتابة بها وينهى على الذين ألفوا بها أو فيها ثم بعد كل ذلك ينكر وجودها المستقل عن الفصحى وينكر أن يكون لها قواعد وطرق للتعبير خاصة بها !

وعلى كل حال فلا ينبغي للباحث اللغوي أن يأخذ هذا الرأي مأخذ الجدل من وجهة نظر علمية . ولولا كثرة من يردد من المثقفين لما كان هناك مبرر كاف لتخصيص الحيز الذي أفرزناه له في هذا البحث .

أما الرأي الثاني فيعرف بوجود العامية كبناء لغوي مستقل وقائم بذاته إلى جانب بناء الفصحى . ولا ينفي إعجابنا باین خلدون الذي تنبه إلى هذه الحقيقة التي كانت فيها ييلو تعتبر غريبة جداً على أبناء عصره . وقد لخصها في عبارة وضع فيها أصعبه على الفرق الأساسى بين التركيب البنائى للفتنن فقال إننا لو اعتنينا ببحث اللغة المعاصرة فقد نهتدى إلى أن تلك اللغة تستخدم أموراً لبيان الدلالة فيها سرى علامات الإعراب التي تتخذ لغة مضر (أي الفصحى) (٢) .

هذه الأمور التي شعر ابن خلدون بوجودها والتي اهتدى إليها العلماء الآن هي ترتيب الجملة . فلما كانت الفصحى تستخدم علامات الإعراب في الدلالة على

(١) دكتوراه نفوسة ذكريا : « تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر » ، الاسكندرية ١٩٦٤ ص ٣ .

(٢) ابن خلدون : المرجع السابق نفسه .

والتي نشرت بعد ذلك في عام ١٩٦٤ بعنوان «تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر» قامت بمجهود قيم حصرته به كثيراً من المادة التي كتبت باللغة العامية والتي نشرت في الصحف والمجلات المصرية والتي ظهرت على هيئة مسرحيات أو قصص... إلخ. ولما كانت الرسالة قد قدمت في أوائل الستينات فمن الطبيعي أن تكون قد ركزت على الإنتاج في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. ولم تتناول موجة التأليف الأدبي بالعامية والتي أخذ مدها يعلو في الوقت الحاضر.

على أن الاهتمام بالعامية وخاصة من جانب الغربيين أشعل شرارة معركة ضارية باسم القصحى والعامية دارت رحاها في القرن الماضي وأوائل القرن الحالى وتبدلت فيها أسمى الاهتمامات: الجمود وعدم مسايرة ركب الحضارة وعدم الاستجابة لمقتضيات العصر من ناحية وسوء النية والرغبة في القضاء على الإسلام والشخصية العربية أو على الأقل الغفلة والانخداع بحيل المستعمرين من ناحية أخرى. وكالشأن في كل المارك التي تدور حول اللغة القومية في أى مكان وفي أى زمان اختلطت في تلك المعركة نوازع العاطفة بمقتضيات العقل، والموضوعية بالذاتية، ووصل الأمر بالأطراف المتخصصة إلى حد لم يعد ممكناً أن تفحص الحجج أو تقارن الأسانيد. وقد أُرخت الذكورة نفوسة زكريا لهذه المعركة في كتابها القيم وإن كنت شخصياً أتمنى لو أنها لم تسبح لشعورها الوطنى بأن يدفعها للاشتراك في المعركة خاصة وأنها لم تر غضاضة في كتابة عبدالله النديم باللغة العامية (وهو الشخصية التي خصصت للفتها كتاباً مفرداً) مع أن الحججة التي اعتمدت بها عنه هي ذاتها الحججة التي استخدمها من قبل أغلى غلاة المتعصبين للعامية: هذه الحججة هي عجز العامة عن فهم القصحى^(١).

على أنه لكي تتسم معالجة المشكلة بالموضوعية ينبغى في نظرنا أن نفرق فيما بين جانبيين.

الجانب الأول: يتناول علمية الفرق بين العامية والقصحى ومدى استقلال كل منهما عن الأخرى.

(١) د. نفوسة زكريا «عبدالله النديم بين العامية والقصحى» انظر على الأنصص صفحات ١٢٠، ١١٩، ١٢٠.

العلاقات التركيبية داخل الجملة مثل الفاعل والمفعول... إلخ - لم يكن هناك ضرورة لأن تتبع مكونات الجملة نظاماً قاسياً لا تحيد عنه لكي يفهم المقصود بها. فمن الممكن أن نفهم أن المقصود الأساسى في الجمل الستة الآتية واحد على الرغم من اختلاف نظامها:

ضرب محمد عليا

ضرب عليا محمد

عليا ضرب محمد

عليا محمد ضرب

محمد ضرب عليا

محمد عليا ضرب

وسبيلتنا إلى فهم الجمل الستة هي بلا شك علامات الإعراب الموجودة في كل منها. فإذا ما أردنا أن نعبّر عن ذلك المعنى بالعامية مع استخدام هذه الكلمات الثلاث فليس لنا أن نتبع في ترتيبها نظاماً سوى:

محمد ضرب علي

فوجب تقدم «محمد» على الفعل وتأخر «علي» عنه في العامية يقوم مقام وجوب رفع «محمد» ونصب «علي» في القصحى.

ومع اهتمام الغرب بالشرق في مطلع العصر الحديث حظيت العامية المصرية (وغيرها من العاميات العربية) باهتمام كبير من المستشرقين وخاصة ابتداء من القرن الماضي. قبدأت حركة بلجم آدابها وألفاظها وتدوين قواعدها. وساهم في هذه الحركة باحثون عرب وأجانب أصدروا رسائلهم وكتبهم عنها بلغات عديدة. وقد قام الأستاذ عيسى إسكندر العالوف بمجهود مشكور لحصر هذه المؤلفات، ونشر ثبناً بها في مقالين أصدرهما بالجريدة الأولى والثالث من مجلة مجمع اللغة العربية (عام ١٩٣٤ و ١٩٣٦ على التوالي)^(١). كذلك قامت الذكورة نفوسة زكريا سعيد في رسالتها لنيل الدكتوراه

(١) نشر المقالان بعنوان واحد. «اللهجة العربية العامية» ج ١ ص ٣٥٠ - ٣٦٨، و ج ٢ ص ٣٤٩ - ٣٧١.

والجانب الثاني : يتناول الدور الذي تصلح له كل من اللغتين في نظر الفرق المتنازعة .

فلو أخذنا الجانب الأول فلإننا نجد أنه باستثناء ابن خلدون الذي شعر باستلال كل من لغة مضر واللغة المعاصرة له إحداهما عن الأخرى ، بل وخن الفارق الأساسي بينهما كما قلنا في الصفحات السابقة - فإن علماء العربية منذ عصر الفتوحات وحتى مطلع القرن العشرين - على قدر ما تعلم - لم يروا في العامية سوى مجموعة من اللحن والأخطاء الشائعة التي ابتليت بها الفصحى ، وأنها أي العامية ليست لغة ذات كيان مستقل عنها . وعلى هذا الأساس ألفوا كتب اللحن والأخطاء التي يعتبرها العلماء العرب مؤلفات في العامية . وفي رأي أن اعتبارها كذلك فيه قدر كبير من التجاوز . فكتب اللحن هي الواقع مؤلفات في أخطاء طبقة معينة من الناس (بخنارهم مؤلف الكتاب) في النطق بالفصحى . أما دلالة هذه الأخطاء على صفات العامية السائدة في عصر تأليف الكتاب فهي مسألة غير مباشرة وفيها قدر من الظن والتخمين . فقد يكون أحد الأخطاء في نطق الفصحى ناشئا مثلا عن مجرد الجهل بالفصحى وليس عن تأثير العامية . فثلا كثيرا ما نسمع بعض المثقفين اليوم ينطقون جمع كلمة « كفة » بنفس الطريقة التي ينبغي أن ينطق بها جمع كلمة « كفيف » . وهذا خطأ لا نعتقد أن لتأثير العامية المصرية المعاصرة أي دخل فيه . وعلى هذا فكتب اللحن جميعا في رأي كتب في العربية الفصحى بصفة أساسية وإن كانت ذات دلالة ضمنية على بعض صفات العامية . بل إن هذا الحكم ينطبق أيضا على كثير من الكتب التي توحى عنواناتها بتخصيصها للعامية . وخير مثال على ذلك معجم العلامة أحمد تيمور والذي أطلق عليه اسم « معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية » . فؤلفه يقول : « غرضنا من وضع هذا الكتاب إحياء اللغة العربية الصحيحة بذكر العاى . وتفسيره ، ورده إلى نصابه من الصحة إن كان عربي الأصل ، أو بيان مرادفه - إن لم يكن كذلك - ليحل محله ، ويرجع إليه في - الاستعمال . . ليس قصدنا إثبات كل ما نطقت به العامة سواء صح أو لم يصح ، بل القصد الاقتصاد على ما تتطلبه الحاجة وتدعو إليه الضرورة ، وإهمال ما عداها مما اشتهرت صحته ، أو تغير تغيرا طفيفا لا يطمس مقاله أو يصرفه عن منحاها . وكان أمر تصحيحه مسورا بالرجوع

إلى معاجم اللغة وقواعد العربية » (١) .

أما المستشرقون وخاصة علماء اللغة منهم فقد رأوا في العامية ما يؤهلها لأن تكون لغة مستقلة عن الفصحى فتناولوها بالبحث والتأليف على هذا الأساس . ولا يتصل بهدفنا في هذه النقطة أن نناقش ما يسمى « بالأهداف الحقيقية » وراء هذا الاتجاه ، فكل ما نريد أن نقرره هنا هو أن هذه النظرة إلى العامية باعتبارها ذات كيان مستقل نجحت في تشكيل دراسات العامية وإخراجها من دائرة ماحث « اللحن والأخطاء » إلى مستوى البحث العلمي الجاد للعامية في حد ذاتها أولا بحيث إذا أريد مقارنتها بالفصحى أوردتها إليها ... إلخ كان لدى الباحث أساس متين يرتكز عليه .

وتأثرا بهذه الروح العلمية التي تفرق بين ما هو كائن فعلا وبين ما يريد العربي الغيور على لغته أن يكون كتب الأستاذ محمد فريد أبو حديد بحثاً قيا بعنوان « موقف اللغة العربية العامية من اللغة العربية الفصحى » وقد قسمه إلى قسميه الطبيعيين :

(١) ما هو كائن : وقد قال عنه في وصفه لقواعد « إن العامية ليست مجرد مسخ أو تشويه للعربية بل قد أصبحت لغة قائمة بذاتها ، ولها قواعدها وأصولها ، وإذا شذ عنها شاذ عد ذلك خروجاً عن طريقة مقررة » (٢) كما قال في وصفه للأساليب « يمكنني شخصياً أن أقول إن كثيراً من الأساليب العامية أصدق أداءاً للمشاعر من بعض الأساليب القديمة . فوضوح الصور وتتابع الأحاسيس لا تختمل التقيد بأسلوب تقليدي » (٣) .

(٢) وما ينبغي أن يكون : وقد قال عنه « ليس معنى هذا أن الأمر قد استعصى على العلاج فلإننا إذا درسنا كل قواعد العامية وحصرنا كل خصائصها كان من الممكن القصد إلى كل واحدة من هذه الخصائص لمعالجتها » (٤) .

(١) معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية . تحقيق الدكتور حسين نصار . المجلة العامة لتأليف والنشر ١٩٧١ م . ج ١ ص ١٨ - ١٩ .
(٢) مجلة المجمع اللغوي ج ٧ ص ٢١٧ .
(٣) المرجع السابق : ص ٢١٨ .

ولم يكتف بعض المستشرقين بهذا القدر من الفصل بين عامية اليوم والفصحى باعتبار أن كلا منهما أصبحت مستقلة عن الأخرى في الوقت الحاضر - بل ذهبوا إلى القول بأن معظم عاميات اليوم باستثناء عاميات شمال أفريقيا - لم تتطور عن الفصحى (وهي الفكرة التي تقوم على أساسها كتب اللحن إذ تعتبر أن العامية نشأت عن تراكم الأخطاء في استخدام الفصحى) بل إنها تطورت عن عاميات أو لهجات عامية كانت سائدة في الجزيرة قبل الإسلام ثم حملها جنود الفتح معهم إلى الأمصار^(١). فالعاميات بهذا الاعتبار ليست نالية تاريخياً للفصحى بل موازية لها في خط التطور.

على أن القول باستقلال عامية اليوم عن الفصحى (يقطع النظر عن خط التسلسل التاريخي المشار إليه في مقال الأستاذ فيرجسون) واختصاصها ببنية قائمة بذاتها - هذا القول أصبح مقبولاً اليوم بعد أن قامت البراهين على صحته. وعلى هذا الأساس صدر عدد من المؤلفات الأجنبية في الخمس عشرة سنة الأخيرة لشرح قواعد العامية المصرية وتدريب المتعلم الأجنبي عليها. ونحن نختار منها مجموعة نعتد^(٢) أن الباحث العربي لا بد وأن يكون على علم بها مهما كانت وجهة نظره في قيمتها:

1. T.F. Mitchell,
 - a. *An Introduction to Colloquial Egyptian Arabic*. London, Oxford University press, 1956.
 - b. *Teach yourself Colloquial Arabic*. London, 1964.
2. Richard S. Harrell and others, *Lessons in Colloquial Egyptian Arabic*. Georgetown University Press, 1963.
3. Walter Lehn and Peter Abboud, *Beginning Cairo Arabic*. Hemphill's Book stores, Austin, Texas, 1965.
4. Maurice Salib, *Spoken Arabic of Cairo*. American University press, Cairo.

(١) نجيل بلقارئ على المقال الهام الذي كتبه الأستاذ C. A. Ferguson في هذا الموضوع بعنوان Arabic Koine ونشره في مجلة Language عام ١٩٥٩. ص ٦١٦ - ٦٣٠.

(٢) هناك الكثير غيرها مما صدر بمعظم لغات العالم الرئيسية. ونحن نكتفي بما ذكرنا منها لتيسر الحصول عليه نسيباً.

كذلك صدرت قواميس للعامية أحسنها وأكثرها استقصاء وموضوعية ما أصدره سقراطيس سيرويك في العشرينات وهي:

Socrates Spiro Bey

1. *Arabic-English Dictionary of the Modern Arabic of Egypt*.

وقد صدرت طبعته الثالثة والأخيرة عام ١٩٢٣.

2. *An English-Arabic vocabulary of the Modern and Colloquial Arabic of Egypt*.

وقد صدرت طبعته الثالثة والأخيرة بالقاهرة عام ١٩٢٩. وتتماز أعمال سيرو بأنها عمدت إلى، أو حاولت، تسجيل الألفاظ العامية في حد ذاتها بقطع النظر عن صلها التاريخي بالفصحى. كذلك أصدر إدوارد إلياس قاموساً في وقت لاحق لقواميس سيرو هو:

Edward. E. Elias

Practical Dictionary of the Colloquial of the Middle East: English-Arabic.

وقد صدرت طبعته الرابعة والأخيرة عام ١٩٤٩. ويأتي في مرتبة أقل كثيراً من الناحية العلمية بعد قواميس سيرو نظراً لمحاولة معالجة لغة الشرق الأوسط كله دون أن تيسر له الإمكانات العلمية لتحقيق هدفه من ناحية ولصغر المادة المذكورة فيه من ناحية أخرى^(١).

والتأمل لقواميس سيرو ويلاحظ أنها لم تعد تمثل العامية المصرية تمام التمثيل وخاصة بعد حركة النهضة العلمية والاجتماعية الأخيرة. والحاجة ماسة الآن إلى وضع قاموس حديث للعامية المصرية، يقوم على أسس الاستقراء العلمي، ويسجل الظاهرة العامية كما هي، دون أية أفكار سابقة ودون اختيار أو تفضيل لكلمة على أخرى ويقطع النظر عن كون الكلمة المجموعة تتفق أو لا تتفق مع أصول العربية الفصحى. والذي يستوقف

(١) يقع القاموس في ٢٨٤ صفحة بحجم الثمن.

النظر حقيقة هو أن هذا الميدان لم ينزل إليه علماء العرب إلى الآن على الرغم من أهميته العلمية والاجتماعية . وكان المأمول أن يضطلع المجمع اللغوي بهذه المهمة خاصة بعد أن جعلها من أهداف « لجنة اللهجات » . فقد جاء بين الأغراض الخمس التي وعدت اللجنة بتحقيقها في تقريرها الذي عرضته في جلسة ٨ يناير ١٩٤٩ ما يلي : « استقراء الألفاظ والتراكيب الجارية على ألسنة أهل الأقطار العربية من الناحية الصوتية ومن ناحية المعنى وتدوين هذا في معاجم وأطالس لغوية » (١) .

أما محاولات المصريين لجمع مادة العامية المصرية - وقد ظهر منها الكثير في النصف الأول من هذا القرن (٢) - فقد كانت عموماً تهدف إلى تنقية ألفاظ العامية من الشوائب التي اختلطت بها على مر السنين ، والتوفيق بينها وبين ألفاظ الفصحى ، وبيان أصلها من اللغة . كما كانت تصدر في محاولة لخدمة الفصحى وتقوية لها ، ولذلك فلم يكن أصحابها بالاستقصاء والتحرى في جمع مادة العامية كلها .

على أن هناك قاصداً لا بد من إفراده بالذكر لأهميته واختلافه في بعض الأسس التي قام عليها عن غيره . ذلك هو معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية والذي يحققه ويشرف على إصداره الأستاذ الدكتور حسين نصار (٣) . فعلى الرغم من أن هذا المعجم يشترك مع ما سبقه من معاجم مصرية التأليف في الهدف ، إذ يقول مؤلفه المرحوم أحمد تيمور : « غرضنا الأول من وضع هذا الكتاب إحياء اللغة العربية الصحيحة بذكر العامي ، وتفسيره ، ورده إلى نصابه من الصحة إن كان عربي الأصل ، أو بيان مرادفه - إن لم يكن كذلك ليحل محله ، ويرجع إليه في الاستعمال » (٤) - على الرغم من هذا فإنه يختلف - فيما يبدو - عن كل ما سبقه في صفة أساسية هامة هي الرغبة

(١) مجلة المجمع ج ٧ ص : ٣١٦ .

(٢) نجيل القارئ على كتاب « المعجمات العربية » للأستاذ ودي رزق خال الذي صدر عام ١٩٧١ والذي يشتمل على قائمة بما صدر من معاجم العامية المصرية .

(٣) يقوم الدكتور حسين نصار بهذا العمل بتكليف من هيئة المصرية العامة للتأليف والنشر . وقد صدر من المجمع حتى وقت إعداد هذا البحث الجزء الأول فقط ، ونرجو أن يتم نشر باقي الأجزاء لأهمية هذا العمل لكثير من فروع الدراسات المصرية .

(٤) معجم تيمور الكبير : تأليف أحمد تيمور . تحقيق حسين نصار ، الهيئة العامة للتأليف والنشر القاهرة ١٩٧١ - ص ١ - ١٨ .

في الاستقصاء قدر الطاقة وجمع متن العامية حتى ولو لم يكن له أصل معروف من الفصحى . يقول الأستاذ الحق في تصديره : « ولم يقتصر على نوع من المفردات . فلم يعن بالعربي الأصيل ويهمل ما لم يدرك له أصلاً عربياً ، أو ما عرف له مصدرأ غير عربي . ولم يفرق بين دخيل قديم أو حديث . وإنما أتى بكل ما عرف ، وأورد كل ما توصل إليه من أصول عربية وفارسية وتركية وإيطالية وإنجليزية وفرنسية وغيرها » (١) . ولذلك فإن هذا المعجم يعتبر تطوراً هاماً في نظرة الباحث إلى اللغة العامية واعتبارها ذات كيان مستقل ينبغي الاعتراف به وتسجيله - بقطع النظر عن الهدف من وراء التسجيل - حتى ولو لم يكن ذا أصول فصحى معروفة .

أما الجانب الثاني وهو يتناول الدور الذي يصلح له كل من اللتين في نظر الفرق المتنازعة فهو أصعب الجانبين على التناول الموضوعي . وسيلتنا إلى التغلب على تلك الصعوبة أن نصف الآراء ونختار لكل منها ممثلاً ثم نرى مدى انطباقها على الواقع اللغوي ملتزمين في كل ذلك المنهج الوصفي دون أن نقحم أنفسنا طرفاً في المعركة ذاتها . والتزاماً بذلك الحيادة وبما يعمله المنهج فلن نحاول البحث عما يسمى « بالدوافع الحقيقية » وراء الآراء التي قيلت . بل سنناقش كل رأي على مستوى الأدلة التي تدعمه متحاشين إصدار الأحكام الذاتية مثل « غيور على الفصحى » و « ذو هدف استعماري » . . . إلخ . ولهذا فقد نعتبر أشخاصاً جرى العرف على اعتبارهم من معسكرات مختلفة - قد نعتبرهم ذوي آراء متشابهة ، مثل وبلوكوكس ومحمد تيمور والزيات . . . إلخ .

ويمكن تلخيص ماوجه إلى الفصحى في أنها بتركيبتها وفردتها التي كانت لها في وقت اشتداد المعركة وخاصة في أوائل هذا القرن - هذه التراكيب والمفردات لا تتسع للتعبير الواضح القريب من أوساط القراء وخاصة في الميادين التالية :

(١) العلوم .

(٢) ألفاظ الحضارة وطرق المعيشة الحديثة .

(٣) الأدب العبر عن البيئة الشعبية وما يتصل بها من مشاكل اجتماعية .

ومن الغريب أنه يكاد يوجد اتفاق بين الأطراف المتنازعة على الحقائق الأساسية :

(١) فنلا ويلكوكس^(١) يقرر أن هناك انفصالا بين متقفي المصريين في عهده وبين اللغة الفصحى وأنهم عندما يتلقون الدروس « بالفصحى المصطنعة » فإنها لا تتصل بوجودهم أو تحس قلوبهم وذلك أصبحوا عاجزين عن التفكير البكر . فقوة التفكير الذهنية عند المصريين تستنفد في ترجمة مايقدمونه بالفصحى إلى العامية المألوفة لديهم . وعندما يريدون الكتابة فإنهم يترجمون ما يريدون قوله إلى الفصحى . فالفصحى في رأى ويلكوكس لا تتصلح لغة تعبر عن العلوم أو تزدي مطالب المجتمع الحديث .

(٢) كذلك يلاحظ عبد الله النديم أنه من الضروري استخدام اللغة الدارجة - على الرغم من كراهيته الشديدة لذلك - إذا ما أريد لكلمة الإصلاح أن تبلغ العامة . فهؤلاء لا يستطيعون أن يتفاعلوا حتى مع الفصحى البسيطة السهلة التي اصطنعها النديم في كتاباته الصحفية وأنها^(٢) .

(٣) وكتب الدكتور زكي مبارك في بحث قدمه اشتراكاً في مسابقة أعلنت عنها الحكومة في عام ١٩٣٦ بعنوان « اللغة والدين والتقاليد في حياة الاستقلال » - كتب يقول : « إن اللغة العربية لا يعرفها أهلها ، لأن المؤلفات الدينية خالية من الجاذبية ، والمؤلفات القديمة مهجورة لا أنصار لها ولا أشياع . . . اللغة العربية ، لغة التأليف ، ليس لها في مصر قراء . ثم أخذ ينحو بالاتجاه على رجال الجامعة والأزهر ووزارة المعارف وأساتذة اللغة العربية فيما نراه اليوم من فقر اللغة العربية في المصطلحات العلمية المدنية (ص ١٥) وفي أنها أصبحت لغة هيويا تتمتع في كل حرف وتسقط في كل فقرة ويختلف من حولها العلماء في الصباح والمساء (ص ٢٦) ، وفي أنها ليست « لغة حديثة » لا تستعمل - كما ينبغي لها أن تكون - كأداة للتفاهم بين جميع الطبقات ، وأن اللغة تذهب ضحية الخنلفة التي يفرضها عليها المتحذلقون من أساتذة الأزهر ودار العلوم وكلية الآداب (ص ٢٨) . . . إلخ^(٣) .

(٤) وكتب الأستاذ محمود تيمور في مقدمة مسرحية الهبأ رقم ١٣ أن الفصحى بصفتها « لغة الكتابة لا لغة الحديث وترجمان الثقافة الخاصة لاثقافة الشعب . هي بهلذه الصفة لا تستطيع أن تبلغ رسالة المسرحية إلى أشتات الطبقات التي تشهد دور التمثيل . (ص ٧) . . فتى شاهد المصري مسرحية بالحوار العامي فإنه يستمع إلى اللغة التي استقرت في أعماق نفسه . . . فأما الفصحى . . . فهي على الرغم منا غريبة على الأذان . . . (ص ٨) . . ولو قدمنا المسرحية للتمثيل مكتوبة بالفصحى لأدبنا الأسماع بما تتيو عنه . (ص ٩)^(٤) .

(٥) وكتب الأستاذ أحمد حسن الزيات في مجلة المجمع يقول . . . لو أنني حضرت اليوم معرضاً من معارض التجارة أو الصناعة أو الزراعة فيه ما أبدعت العلوم ونوعت الحضارة من مختلف الآلات والأدوات والسلع والزهور ثم طلب إلى أن أسمى كل معرض فيه لما صنعت أكثر مما صنع ذلك البدوي الذي حضر وليمة عرس في بغداد فوصف لقومه ألوانها وصفاها بصفائها لا بأسمائها وبأثرها في حلقة لا بعينها في يده . . .^(٥) .

(٦) ونقل الأستاذ فؤاد دواره عن الدكتور حسين فوزى قوله :

« . . . اللغة العربية شحيحة جداً من ناحية ألفاظ المعاني المجردة في حين أنها في غاية الغنى في كل ما يتعلق بالماديات وأوصافها . ولكي نثرى نفسك بألفاظ التفكير تحتاج إلى أن تخوض بحر الفلسفة الإسلامية . وتربيتنا الأدبية - مع الأسف - تجعلنا ندخل إلى اللغة العربية من باب الأدب وحده ، وفي الأغلب نبقى فيه ، وهذا - في رأيي - مصدر كبير من مصادر قصورنا في التعبير باللغة العربية . . . وإذا عن لك في الوقت الحاضر أن تعالج موضوعات مصرية كالقصة والتمثيلية فكيف تتصور أن تجعل ابن البلد والقنوة وطاقمة وخلوجة يتحدثون بنفس اللغة التي يستخدمها رجال القضاء

(١) رجع الأستاذ محمود تيمور عن هذا الموقف مؤثراً وقرر الكتابة بالفصحى وحدها . انظر ملاحظاته في مجلة مجمع اللغة العربية ج ١١ بعنوان « سلطان اللغة العربية » وحل الأخص قوله في ص ٦٥ من هذا المقال « رغبناها (أي الفصحى) لغة لحياتنا العلمية والأدبية والاجتماعية حل لاختلاف الناس والقروء » .

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية ج ٩ ص ٣٢ من مقال بعنوان « المجمع ولغة العامية » عام ١٩٥٧ مستولت العربية للماصر

(١) ويلكوكس « سوريا و مصر وشمال أفريقيا والطة يتحدثون باللغة البونزية وليس بالعربية » رسالة منشورة له عام ١٩٢٦ .

(٢) د . نفوسه زكريا : عبد الله النديم بين العامية والفصحى . ص ٢٠٩ - ٢١٨ .

(٣) زكي مبارك : « اللغة والدين والتقاليد في حياة الاستقلال » . عيسى الحلبي ١٩٣٦ .

وخريجو الجامعات وأضربهم . وإذا كنت صادقاً في التعبير فأنت مضطر إلى أن تضع على ألسنة هؤلاء الناس اللغة المناسبة لهم . . . (وليس معنى ذلك أن العامية تكون وحدها هي القادرة على التعبير عما نريد) فأنت تجد كلمات عربية تعبر عن كل ما تريد . ولكنك حيناً تستخدمها تكون كمن يترجم المعنى إلى لغة أخرى . . . (١١) .

إذن فالفرق بين الإمكانات التعبيرية لكل من الفصحى والعامية حقيقة قائمة . وشعور طوائف المثقفين على اختلاف نزعاتهم بأن الفصحى كما ورثناها عن القدماء غير صالحة لكل زمان ومكان كما يحلو للبعض أن يصورها - هذا الشعور أيضاً حقيقة واقعة . وهاتان الحقيقتان تصفان ما هو كائن فعلا بقطع النظر عن الرغبة أو عدم الرغبة - لدى البعض - في تغييره .

على أننا لا نملك إلا أن نلاحظ - دون أن نشترك في المعركة أو نبدو كمن يدافع عن الفصحى - فهذا آخر ما نود أن نفعله في بحث من هذا النوع يقوم على الوصف - لا نملك إلا أن نلاحظ أن التهمة الأولى وهي القصور في التعبير في ميدان العلم والتي أطلقها ويلكوكس وزكى مبارك - هذه التهمة لا تنفك في الوقت الحاضر مع وجود هذا الطوفان من الكتب العلمية المترجمة والمؤلفة التي تفرق المكتبة العربية . ليس هذا فقط ، فهناك مجالات ذات طبيعة علمية مثل « الذكور » و « طبيبك الخاص » تجتث في الدخول إلى كل بيت وخاصة أوساط الثقافة والتعليم . وهذه المجالات تتخذ من الفصحى أداة للتعبير عن موضوعاتها العلمية المبسطة دون أن تنفك اللغة حائلاً بين الكاتب وبين القدرة على الشرح أو بين القارئ وبين القدرة على الفهم على الرغم من اتساع الفجوة الثقافية بين الكاتب وبين القارئ في كثير من الأحيان .

يبقى بعد ذلك جانب آخر للمشكلة وهو ما يمكن أن نصفه بأنه يتعلق بما ينبغي أن يكون . وهذا الجانب هو الأساس الحقيقي الذي يقوم عليه الخلاف بين الآراء :

ففي أقصى اليسار يوجد الرأي القائل بوجود الاقتصار على أمور الدين موضوعاً للفصحى واتخاذ العامية لغة لكل ما عدا ذلك من شئون الحضارة والعلم الحديث (١٢) .

(١) فؤاد دواره . عشرة أدياء يتحدثون ، كتاب الهلال رقم ١٧٢ يوليو ١٩٦٥ ص ٦٧ - ٧٩ .

(٢) يمثل هذا الرأي ويلكوكس وبعض من تبعه في الرأي .

وفي أقصى اليمين يوجد الرأي القائل بوجود إلزام الناس جميعاً بالكلام بالفصحى والإنتاج بها حتى تستقيم الألسنة وتجري الأقلام وترجع للعرب سلبتيم النقية التي خسروها (١٣) . وبين هؤلاء وهؤلاء درجات لا تحصى من اللين والتشدد .

على أننا لن نتناول هذه المسألة الشائكة في هذا الموضوع ، بل سنؤجلها إلى حين اكتمال الصورة التي نريد أن نرسمها للواقع اللغوي كما نراه . إذ ستكون عند ذلك قادرين على ربط ما نراه كائناً بما نتخذ أنه سيكون . ومع ذلك فسنتكفي بإبراز ملاحظة واحدة على تلك المواقف التي تنفخها الفرق المتنازعة من مسألة التعبير بالفصحى والعامية : بما في ذلك الأدب المعبر عن البيئة الشعبية وما يتصل بها من مشاكل اجتماعية :

فنحن نلاحظ أن من يقوم عملهم على الإنتاج باللغة بصورة المختلفة من علوم وآداب وفنون يتخذون عادة موقفاً متعاطفاً من مشكلة التعبير بالعامية في الميادين التي تتصل بعادات الشعب وتقاليده وفي المسرحيات والقصص التي يجري فيها الحوار بين أفراد من البيئة الشعبية . أما النظريون من علماء اللغة والمشتغلون بمسائلهم فإنهم بصفة عامة أميل إلى التشدد ، بل إلى عدم الاعتراف بوجود المشكلة في كثير من الأحيان (١٤) .

ونحن إذا اتفقنا على تلك الملاحظة - وأحسبنا قادرين على ذلك - فقد نوسع دائرة الاتفاق بين الأطراف المتنازعة متقدمين في الطريق الصحيح . فإذا كان صحيحاً أن قدراً كبيراً من الخلاف يرجع إلى تركيز البعض على النظرية وتركيز البعض الآخر على التطبيق فقد يؤدي تبادل المواقف المؤقت مثلاً إلى تقريب وجهات النظر بين الجميع .

ثم تنتقل إلى وجهة نظر ثالثة في وصف ما هو كائن فعلاً في واقعنا اللغوي . ذلك الرأي الذي يقول بأنه لا توجد عامية وفصحى فقط بل توجد إلى جانبهما - أو بعارة أدق بينهما - لغة وسطى . هذه اللغة هي ما أطلق عليه فرح أنطون في روايته « مصر الجديدة » اصطلاح « الفصحى المخففة » أو « العامية المشرفة » أو « اللغة المتوسطة » .

(١) جرى العرف على أن يمثل الأزهري ورجال الدين الإسلامي عموماً هذا الرأي . وقد قام لبعض فعلاً بمحاولات أزموا فيها تلاميذهم وأصدقاغهم بالتحدث بالفصحى .

(٢) وفي تلك الحالة فإنهم يصورون المعجز عن التعبير عن شيء من صور الحياة الحديثة مجزاً في الشخص ذاته وليس مجزاً في اللغة .

وهي تشبه إلى حد ما أطلق عليه توفيق الحكيم اسم « اللغة الثالثة » . وما وصمه الأستاذ عباس خضر في مقال له بجريدة الأخبار بوصفه « اللغة الخنثى » .

وقد ظهرت اللغة الوسطى أول ما ظهرت بطريقة تلقائية . وهذا واضح في محاولات هؤلاء الذين دعوا إلى العامية وحاولوا أن يثبتوها في الاستعمال بكتابة أدب راق بها . فقد ترجم ويلكوكس في نهاية القرن التاسع عشر أجزاء من الكتاب المقدس ، ومن بعض روايات شكسبير . ولما كان الموضوع نفسه فوق المستوى الفكري العامة في عصره ، كان التعبير عنه بالتالي خارج الروعاء اللغوي الذي يستخدمه العامة للتعبير عن أنفسهم . ولذلك نرى ويلكوكس - دون أن يعمد إلى ذلك عمداً - يستخدم لغة تناسب في رقيها مع رقى الموضوع الذي تنقله على الرغم من جريانها على قواعد اللغة العامية . ولذلك فتحن لا تتفق مع الدكتور نفوسة زكريا في حكمها على ترجمات ويلكوكس بالفشل لأنها لم تجر على السنن المعروفة في كلام العامة الدارج . وتصف الدكتور نفوسة هذه الترجمات فتقول : « في هذه الترجمات وجدنا العامية لم تسعفه في نقل أفكار شكسبير مما اضطره إلى استعارة كلمات وجمل من العربية الفصحى » وتقول عنها أيضا « وأهم ما نلاحظه في أسلوب هذه الترجمة هو اقترابه من الفصحى على عكس ما كان يهدف إليه ويلكوكس (كذا) : وهو أن يكون ممثلا للعامية الدارجة بين عامة المصريين . ويزداد اقتراب هذا الأسلوب من الفصحى في المواقف التي تتطلب النصح وتعرض نظرات عامة في الحياة وفي الناس كما يظهر في تلك القطعة الصغيرة التي اكتب ويلكوكس بترجمتها من رواية هملت .. (١) وهي :

نصيحة الوزير لابنه حينما أرسله إلى فرنسا لتتزه (المنظر الثالث من الفصل الأول)
الوزير لابنه : شوف يا ابني . ربنا يجعل البركة فيك . أوعى تنسى النصيحة اللي حقولك عليها ولازم تخليها قدام عينك . لا تتكلم بكل حاجة تيجي في فكرك . واختر كثير قبل ما تشرع في أي عمل تصير محبوب عند الناس كلهم . . . وأكبر نصيحة أقولها لك أنك تكون صادق مع نفسك فإن اللي يصدق مع نفسه ما يكوتش غير صادق

(١) تم تخيل مسرحية « حلم ليلة صيف » لشكسبير - بعد إعادة ترجمتها باللغة العلمية - على مسرح معهد الموسيقى الصنفي الجديد . وتولى الإخراج الأستاذ فؤاد الجزائري .

مع غيره . روح يا ابني انت وديعتي عند الله » (١)

فويلكوكس لم يكن يكتب - وما كان ليتنى له أو لغيره أن يكتب - في مثل تلك الموضوعات بالعامية المأهولة . فهذا مستحيل لغوياً . فالموضوع ذاته - كما سنذكر ذلك بالتفصيل في موضعه المناسب - هو الذي يتحكم في المستوى اللغوي داخل حدود معينه (٢) .

أضف إلى ذلك أن ويلكوكس لم يكن « يستعير كلمات وجمل من العربية الفصحى » كما ذكرت الدكتور نفوسة . فليس في الأمر استعارة أو ترقيع . ولكنها مستوى من اللغة قائم بذاته وله خصائصه التي تميزه عن غيره كما سيأتي في موضعه . وما عدته الباحثة دليلاً آخر على اضطرابه وهو « ازدياد اقتراب هذا الأسلوب من الفصحى في المواقف التي تتطلب النصح وتعرض نظرات عامة في الحياة وفي الناس » . ليس إلا هذه الصفات الأساسية لقانون المستويات في نظامنا اللغوي .

على أن هذا الاستخدام التلقائي للعامية الوسطى لدى ويلكوكس لم يلبث أن تبعه استخدام واع مقنن على يد واحد من رواد المسرحية المصرية هو فرح أنطون (٣) في أوائل القرن العشرين . فرغته في الصدق الأدائي مع إحساسه في الوقت ذاته بالتدرج اللغوي لطبقات المجتمع جعل من الضروري عنده أن يستخدم في مسرحيته « مصر الجديدة » ثلاثة مستويات من اللغة بدلا من المستوى الفصحى الواحد أو حتى المستويين الذين كان يتم اختيار بينهما عادة (أعنى الفصحى أو العامية) . هذه المستويات الثلاثة هي مادعاها بالفصحى : وخصصه لأشخاص الطبقة العليا ، وما دعاه بالعامية : وخصصه لأشخاص الطبقة الدنيا . ثم ما دعاه باللغة المتوسطة وخصصه للسيدات . وقد وصف هذه اللغة الثالثة بأنها لاهي بالفصحى ولا هي بالعامية واقترح أن تسمى « بالفصحى المخفضة »

(١) د. نفوسة زكريا . المرجع السابق ٥٤ - ٥٩ . وانظر أيضاً مجلة الأزهر العدد الخامس السنة السادسة ١٨٩٣ طلباً للتصويب نفسها ، وإن كانت د. نفوسة قد نشرت منها أجزاء لا بأس بها ، وقد استفدنا بها كثيراً في هذا البحث .

(٢) انظر ص ١٧٥ وص ١٤٨ على الخصوص من هذا الكتاب .

(٣) لا هراوية في أن يحيى هذا التطور على يدي كاتب مسرحي . فالكتاب المسرحيين بما لهم من حساسية فائقة للأوضاع الاجتماعية ولشاعر الفردية وبما يتمتعون به من حس لغوي وتلق في التعبير الشعري - هم في الواقع الرواد الطبيعيين في مجال الاستعمال اللغوي .

و « العامية المشرقة »^(١) . وهو يشرح هذه النقطة بقوله : ثم تفرعت من هذا الوجه (وهو أن يتكلم أبناء الطبقة العليا بالفصحى والدنيا بالعامية) صعوبة أخرى : سيدات في خلدورهن يتحدثن فيها صار إليهم الرجال ويحلفن ويضطربن ويتأمرن . أية لغة يتكلمن . قد جعلت لمن لغة ثالثة لا هي بالعامية ولا هي بالفصحى . ويمكن تسميتها الفصحى الخفيفة والعامية المشرقة . وبناء على ما تقدم يكرن في الرواية ثلاث لغات : العامية والمتوسطة والفصحى .

ويبدو أن ملاحظة فرح أنطون الأصيلة عن وجود مستوى ثالث من العربية ، وتحديد مكان هذا المستوى في وضع متوسط من الناحية الثقافية بين العامية المباشطة والفصحى ، ثم ربط هذا المستوى الثالث ربطاً صحيحاً بطائفة معينة من أفراد المجتمع - يبدو أن هذه الملاحظة لم تجد ما تستحقه من الاهتمام من أحد وخاصة من المهتمين بالتركيب اللغوي للمجتمع المصري . ولعل السبب في حدوث ذلك هو أن التجربة المسرحية التي قامت على تلك المستويات الثلاثة لم تحقق نجاحاً يذكر .

وفي عام ١٩٥٦ نشر توفيق الحكيم مسرحيته الصفقة لتكون بمثابة حقل تجارب لحل كثير من المشكلات التي تعترض العمل المسرحي ومنها مشكلة اللغة . ففي رأيه أن استخدام الفصحى وحدها أو العامية وحدها غير مقبول . ولذلك رأى من الضروري أن يجرب « تجربة ثالثة لإيجاد لغة صحيحة لا تجاف قواعد الفصحى وهي في نفس الوقت مما يمكن أن ينطقه الأشخاص . ولا ينافي طبائعهم ولا جو حياتهم . لغة سليمة يفهمها كل جيل ، وكل قطر ، وكل إقليم ، ويمكن أن تجرى به الألسن في محيطها ، تلك هي لغة هذه المسرحية . قد تبدو لأول وهلة لقارئها أنها مكتوبة بالعامية ، ولكنه إذا أعاد قراءتها . طبقاً لقواعد الفصحى فإنه يجدها منطقية على قدر الإمكان . بل إن القارئ يستطيع أن يقرأها قراءتين : قراءة بحسب نطق الريق فتقلب « القاف » إلى « جيم » أو إلى « همزة » تبعاً للاهجة إقليميه فيجد الكلام طبيعياً مما يمكن أن يصلح عن ريق . ثم قراءة أخرى بحسب النطق العربي الصحيح . فيجد العبارات مستقيمة مع الأوضاع اللغوية السليمة ...

(١) فرح أنطون : مسرحية مصر الجديدة . المقدمة . مكتبة التآليف . القاهرة ١٩١٣ .

إذا نجحت في هذه التجربة فقد يؤدي ذلك إلى نتيجتين : أولاهما السير نحو لغة مسرحية موحدة في أدبنا تقرب بنا من اللغة المسرحية الموحدة في الآداب الأوروبية وثانيتهما - وهي الأهم - التقريب بين طبقات الشعب الواحد ، وبين شعوب اللغة العربية . بتوحيد أداة التفاهم على قدر الإمكان دون المساس بضرورات الفن^(١) . وقد سار الحوار في تلك المسرحية على النمط التالي :

البك : المسألة سليمة بحمد الله . . ربنا قدر ولطف . . وأنتم أهل شهامة . . .
كلفتم خاطركم وطلعتم الحطة بحفاوة عديمة النظر . . ربنا بقدرتي أكافتمكم وأرد لكم بعض الجميل . . .

سعداوى : كلام طيب . .
عوضين : كلام حلو كمثل الشهد . . صلى على النبي يا سعادة البك . . الموضوع انحل^(٢) . . .

سعداوى : انت مستقل المبلغ يا بك ! . . لكن اعذرنا . . حالتنا سيئة

البك : حالتكم سيئة . . شيء غريب . . « يلتفت إلى وكيله »
رأيتك يا عليش أفندي^(٣) ؟

فياستثناء بعض العبارات مثل « بحفاوة عديمة النظر » التي تنسب إلى الفصحى « كلية ، ومثل « نفسنا انكسرت » (ص ٨٧) التي تنتسب بتركيبها اللغوي إلى العامية كلية - فإن نص هذه المسرحية يمكن أن يمثل على المسرح بالنطق العامي كما هو ، وفي الوقت ذاته لو قرأه عراقي مثلاً بمن لا يحسنون العامية المصرية فإنه لن يجد صعوبة في متابعة أحداثها . بل والتفاعل مع أشخاص المسرحية ، وذلك بفضل محصله الثقافي . « فشيح الفصحى » - لا الفصحى ذاتها - يتمثل في النص . وهذا كاف لتحقيق الغرض الذي قصده الحكيم بقوله . . « ولكنه إذا أعاد

(١) توفيق الحكيم : الصفقة ، مطبعة الآداب ١٩٥٦ ، ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٠ .

قراءتها ، طبقاً لقواعد الفصحى فإنه يجدها منطقية (ولم يقل صحيحة) على قدر الإمكان .

وبقطع النظر عما قاله الأستاذ الحكيم عن لغة مسرحيته فقارئها أحدائنين : مصرى . وفي هذه الحالة أو ترك وشأنه فلن يرى فيها سوى نص عسمى . وأن يحطراً بباله حتى مجرد علاقة هذا النص بالفصحى . أو عربى غير مصرى ، وفي هذه الحالة لن يعجز عن فهم المسرحية بصورة عامة بل وستجواب مع معظم المواضع فيها . وليس السبب في ذلك كونها مكتوبة بالفصحى . أو اعتقاده بأنها مكتوبة بالفصحى ، أو حتى أنه يستطيع قراءتها حسب قواعد الفصحى فليس شيء من ذلك صحيحاً ، بل السبب كونها مكتوبة في مستوى لغوى مناظر لمستوى لغة الخطاب عنده . هذا المستوى نشأ في معظم البلاد العربية — بدرجات وبسرعات متفاوتة — نتيجة لتأثير عاملين متناقضين : جهود المؤسسات التربوية والثقافية من مدارس وصحافة للتصكين للفصحى وتشهرها بين من ينهلون من معين هذه الثقافات من ناحية ، وعوامل النشأة ، والأوضاع اللغوية السائدة في محيط الأسرة العربية والتي تعمل بطبيعتها وبطريقة تلقائية على التصكين واللغامية الهايطة ، وتأصيلها من ناحية أخرى (١) .

على أننا نود أن نشير هنا إلى أن لغة مسرحية الصفقة ليست في مستوى لغاوى واحد كما أرادها الأستاذ الحكيم . فالخصائص اللغوية والتعبيرية لعرضين مثلاً تختلف قاعدياً ومن ناحية المفردات وحتى العبارات عن لغة البك . فعل الرغم من أن ، كمثل الشهد ، من الفصحى السليمة (بالقياس على قوله تعالى : « ليس كذلك شيء ») فإننا لا نستطيع أن نتصور أى مصرى على حظ من التعليم يستخدم مثل هذا التركيب في لغته الدارجة إلا في مواقف التنثر أو الفكاهة . فتركيب الكاف مع مثل قد تخصص في التركيب اللغوى للمجتمع المصرى وأصبح من صفات اللغامية الهايطة ، كما دعاها توفيق الحكيم . وليس معنى ذلك أننا نأخذ على الحكيم هذا التنوع اللغوى في الحوار . فالعكس هو الصحيح . فالحكيم بشعوره المرهف وحساسيته اللغوية الفائقة كفتان وأديب لا يستطيع — مهما كانت درجة تصميحه على « توحيد لغة الحوار » — لا يستطيع أن

(١) انظر ص ٢٠٣ - ٢٠٥ من هذا الكتاب .

يجعل البك يقول : « صلى على النبي . . . كمثل الشهد . . . إلخ » . كما لا يستطيع أن ينطق عوضين أو سعداوى بعبارات مثل « طلعت المحلة بمخاوة عديمة النظر . . . شيء عجيب . . . إلخ » . ومن يدري فربما كان الحكيم قد قصد إلى هذا التنوع قصداً ، خضوعاً للضرورات الفنية وفي هذه الحالة تكون فكرته عن « وحدة اللغة » أوسع حدوداً مما يظن القارئ لأول وهلة .

وعلى الرغم من أن توفيق الحكيم وصف محاولته تلك بأنها « محاولة لإيجاد لغة ... » وأن بعض النقاد قد وجه إليه تهمة محاولة اختراع لغة « اسبرانتو عربية » سيكون مألها الفشل كما حدث للأسبرانتو العالمية . . . (١) إلخ . — على الرغم من كل ذلك فإن الحكيم في الواقع لم يوجد شيئاً من العدم . فالقوالب اللغوية التي التزم بها الحكيم في تجربته الرائدة كانت موجودة فعلاً في قطاع معين من المجتمع ، ودور الحكيم قد تمثل في اختيار تلك القوالب وفي توسيع دائرتها خارج ذلك القطاع كما سيأتى في موضع آخر . وقد أشار الحكيم إلى شيء من ذلك في التعليق الذي نشره على لغة مسرحية « الورطة » (٢) فقال : « وكان أهل المصلحة منهم (أهل اللغات الحية) يعمنون في إيهامنا بعمق المهوة بين الفصحى واللغامية . وباستحالة تلاقحهما يوماً . . . والواقع الذي ألاحظه اليوم ولاحظه كثيرون هو عكس هذا الزعم . . . فاللغامية هي المقصود عليها بالزوال . . . والفارق بينها وبين الفصحى يضيق يوماً بعد يوم ويكفى أن نستمع إلى فلاحنا أو عاملنا في مجلس الأمة أو مجالس الإدارات ليتضح لنا أن لغة الكلام العادى قد ارتفعت إلى المستوى الصحيح فهو مثلاً يقول : « دا موضوع بيم جميع الفلاحين » . أو « الأرباح دى تم توزيعها بالنسبة لأغلب العمال . . . إلخ » . فإذا تجاوزنا عن الإبدال في الذال ، والدال في اسم الإشارة ذا وذى وده « الذى يصيب في التخاطب » ، ودي ، وده « فإن العبارة كلها تصبح صحيحة . . . » (٣) .

(١) د . محمد مندور . مسرح توفيق الحكيم . دار نهضة مصر . الطبعة الثانية بدين تاريخ .

ص ١٣٣ .

(٢) صدرت بعد « الصفقة » ، بشر سنين تقريباً وبفرض استمرار التجارب اللغوية التي بدأها الحكيم في الصفقة .

(٣) الورطة : « لغة المسرحية » في نهاية الكتاب .

وهذا هو المنهج الذى حاول اتباعه فى تجربته الأولى فى «الصفقة» ، وقال إنه استمر فى تطبيقه فى تجربته الثانية فى «الورطة» .

على أنه بالرغم من كل الحديث عن تقريب العامية من الفصحى ، والارتفاع بلغة العامة، والوصول إلى مستوى موحد من لغة عربية أقرب ما تكون إلى السلامة... إلخ على الرغم من كل هذه الأقوال التى ترددت فى مسرحية «الصفقة» و «الورطة» فإن لغة الثانية أقرب إلى العامية من لغة الأولى . ويتضح ذلك من المثال التالى الذى أخذناه من «الورطة» عفواً ودون عمد أو تدقيق :

منير : جرى ايه يا بسبس ؟ ... مالك ؟

بسبس : ولا حاجة ..

شوشو : قل لنا بالحق .. شاعر بيزه ؟

بسبس : بيمود فى جسمى ..

منير : همود ؟

بسبس : ووجع شديد فى كتنى .. يظهر أنها دخات كتنى وما^(١) ..

بل إن المتأمل فى تعليق الحكيم نفسه على اللغة المستخدمة فى «الورطة» يشعر بأنه يهدف فيها إلى مستوى أقل من «الصحة والسلامة» الفصحى فهو يقول : « فى هذه المسرحية حاولت شيئاً من هذا التقارب الذى سبق لى أن حاولته فى «الصفقة» بما أسمىته «اللغة الثالثة» ... فلغتها هى لغة التخاطب العادية فى حياتنا اليومية ... ولكنها مع ذلك قريبة إلى العربية الصحيحة . فاللغة : «قريبة إلى العربية الصحيحة» بينما كانت فى «الصفقة» مستقيمة مع الأوضاع اللغوية السليمة . وكانت «لغة صحيحة لاجتياح قواعد الفصحى ... إلخ .

وقد حدثت هذه «النكسة» - إذا جاز لنا أن نستخدم هذه الكلمة التى نلزم من تعليق توفيق الحكيم نفسه - على الرغم من الفاصل الزمنى بين ظهور اللغتين . ذلك الفاصل الذى استغرق الفترة ما بين عامى ١٩٥٦ - العام الذى صدرت فيه «الصفقة» -

(١) الورطة : ص ٨٢ .

و ١٩٦٧ - العام الذى صدرت فيه الورطة - وهى الفترة التى صدرت فيها القوانين الاشتراكية وشارك فيها أبناء الطبقات العاملة فى المجالس المختلفة مما نتج عنه ارتفاع اللغة التى يستخدمونها .

كانت مقتضيات المنطق الجامد ومقتضيات الفلسفة التى قامت عليها محاولة الحكيم أن تعكس الآية فتكون لغة «الورطة» أقرب إلى الفصحى من لغة أختها التى سبقها بعشر سنوات .

على أن لنا تفسيراً - وإن كنا لا نجزم بأنه ما قصده الحكيم فعلاً - إلا أنه يتفق وطبيعة الأشياء ، وقد بشرح السبب فيها بدا فى لغة لحكيم - بل وفى فلسفته أيضاً - من تغيير :

كان توفيق الحكيم فى مسرحية «الصفقة» أولاً وقبل كل شيء مصلحاً لغوياً ، ولم يكن مجرد كاتب مسرحى فهو يقول فى مقدمتها : «مسرحية الصفقة» هى «عندى بمثابة حقل تجارب» . كان يريد أن يدفع بعجلة التطور اللغوى فى اتجاه معين هو اتجاه الفصحى بعد أن تضافت عوامل كثيرة على دفعها فى الاتجاه المضاد وهو العامية : «إذا نجحت هذه التجربة فقد يودى ذلك إلى نتيجتين : أولاًهما السير نحو لغة مسرحية موحدة فى أدبنا ، تقترب بنا من اللغة المسرحية الموحدة فى الآداب الأوربية ، ثانيتهما - وهى الأهم - التقريب بين طبقات الشعب الواحد ، وبين شعوب اللغة العربية ، بتوحيد أداة التفاهم على قدر الإمكان دون المساس بضرورات الفن»^(٢) . وهذه هى مهمة الكتاب المسرحيين فى نظر الحكيم . و «كتاب الحوار القصصى والتمثيل .. هم المنوط بهم مهمة إزالة الفوارق اللغوية ..»^(٣) .

وبناء على هذه الفكرة رأيناه فى «الصفقة» يضحى بأشياء كثيرة من أجل أن يرتفع بلغة العامة وأن «يصنع واقع الغد ولا يستنيم إلى واقع اليوم»^(٤) . فسعداوى الفلاح الأسمى يقول : «الميت ما يحمل حاجة .. الميت ما يحمل نفسه (ص ٢٨) (بدا

(١) الصفقة : ص ١٥٨ .

(٢) الورطة : ص ١٩٣ .

(٣) المرجع السابق : ص ١٩٧ .

من : ما يشلش) . . . من غير ما تخليه ياخذ ويدى فى الكلام . . . سامعين . . . مستحيل . . . مستحيل (٩٨ ص) (بدلا من . . . ما يمكشش) . نستطيع أن نقول أن ما قام به الحكيم فى الصفة كان منامرة لغوية ، كان رغبة فى إحداث تغيير ، بل لنقل كان نبوة .

ثم تحققت هذه النبوة . فقد أسرع عجلة التطور الاجتماعى فى دوراتها بصدور القوانين الاشتراكية وأخذت صورة المجتمع فى التغيير تبعاً لذلك وعكست لغة الخطاب فى المجتمع هذه التغييرات باقترابها من الفصحى بسرعة تتناسب مع سرعة التغيير الذى حدث فى المجتمع . وبدا واضحاً أن الأمور تسير فى الاتجاه الصحيح . إذن ففيم العجلة؟ ولم المبالغة؟

لقد استطاع الحكيم أن يخفف من مستوى «التفصيح» فى الورطة بعد أن رأى أن التطور الاجتماعى قد أصبح فى صفته وصف الاتجاه نحو الفصحى ، وأن لغة الخطاب متصل لا حجة إلى المستوى المطلوب . فالتغيير الذى حدث فى لغة الحكيم ليس تديراً فى الموقف بقدر ما هو تغيير فى (التكتيك) ، أو التخطيط .

وكما لاحظنا على لغة «الصفة» - فإن لغة «الورطة» أيضاً ليست فى مستوى واحد : فالدكتور يحيى - الأستاذ الجامعى - يتكلم دائماً بلغة أعلى مستوى من لغة «سيس» و«لص الخزان» . وهذا شىء طبيعى ، وإن كان لا يتفق مع المنهج الذى أزم به الحكيم نفسه (أو على الأقل المنهج الذى نعتقد أن الحكيم قد أزم به نفسه) .

على أن من المتناقضات التى تستوقف النظر فى محاولة الحكيم أنه فى الوقت الذى أورد فيه توحيد اللغة فى مصر وإنهاء الازدواجية القائمة بين الفصحى والعامية لدى أبنائها - نراه قد نجح لا فى إنهاء الازدواجية ، بل فى إضافة مستوى آخر هو اللغة الثالثة ، أو بعبارة أدق فى الاعتراف بوجود مستوى آخر ، ولفت الأنظار إليه . ذلك أن هذا المستوى كان موجوداً وقائماً فعلاً حتى قبل أن يكتب عنه الحكيم .

• • •

أما على الصعيد العلمى ، - فعل قدر علمى - لم يتناول أحد فى مصر هذه «اللغة الثالثة» بالدراسة والتحليل اللغوى . وهذا وضع يتفق مع عدم وجود الاهتمام الكافى بالدراسة العلمية للغة العامية بصفة عامة . ولكن الأمر مختلف قليلاً فى الغرب . فهناك تنبه إلى وجود مثل هذا المستوى وإلى قيامه بدور اجتماعى منفرد ، وإلى وجوب توجه الدراسة لاكتشاف جوانبه المختلفة . وقد سبق للمستشرق كارل فولرز فى كتابه عن العامية المصرية والمنشور فى كمبردج عام ١٨٩٥ أن أشار إلى وجود مستويات ثلاثة فيها تقوم على أسس اجتماعية هى ما أسماه بلهجة الطبقة الدنيا ولهجة الطبقة الوسطى ولهجة الطبقة العليا . وإن لم يتم بيان الفروق العلمية بين هذه اللهجات .

أما الدراسة التى وصلت إلى يدى والتى قامت بها الدكتورة كارولين كلين من جامعة شيكاغو - فىقوم على أساس يختلف عما تفهمه باللغة الثالثة . فقد أتمت هذه الباحثة فى عام ١٩٧٠ بحثاً يقع فى ١٩ صفحة من النوع المتوسط بعنوان «الأسلوب المختلط فى العربية المصرية»^(١) بينت فيه صعوبة الوصول إلى نتائج مرضية من وجهة نظر البحث اللغوى نظراً إلى صعوبة وضع حدود واضحة تعين مادة البحث وتفصلها عن غيرها . وفى رأيها أن هذا «الأسلوب المختلط» ينتج عن إدخال المصريين صفات اللغة العربية الفصحى (من نحوية وصوتية) فى أحاديثهم التى تجرى فى بعض المناسبات مثل المقابلات والحوار الإذاعى والتليفزيونى . ولما كانت ترى أن النصوص المكتوبة لا تصلح أساساً صادقاً للدراسة ، نظراً إلى أن الكاتب توجد أمامه فرصة فى العادة للرجوع إلى ما كتب وتصحيحه وتنقيته من كل شوائب العامية - لما كان ذلك رأياً فقد قصرت دراستها على الأحاديث والمادة الشفوية التى سجلتها من الإذاعة والتليفزيون المصرى فى زيارة للقاهرة لهذا الغرض دامت حوالى ثلاثة أشهر .

ويبدو أن الباحثة ترى أن هذا المستوى - أو الأسلوب كما تسميه - هو عبارة

(١) Carolyn G. Killean, Mixed style in Egyptian Arabic, University of Chicago.

وقد ترقى البحث فى المؤتمر الرابع لرابطة دراسات الشرق الأوسط الذى عقد بمدينة كوليس بأومايو فى نوفمبر عام ١٩٧٠ .

عن خلط متعدد ولأغراض غير تلقائية (مثل إظهار التفوق اللغوي ... إلخ) . بين صفحات المستويين الفصيح والعامي . ولذلك فهي تدخل في هذا المستوى المختلط المحاولات الفاشلة التي يقوم بها بعض المتكلمين للكلام بالفصحى الخالصة . فهي تقول في بداية البحث « هذا الخليط (الذي يمثل مادة بحثنا) يتراوح من وجود القليل من صفات الفصحى في الأحاديث العادية التي تتناول أموراً عادية صعوداً إلى الحالات النادرة التي يحاول فيها المتكلم استخدام الفصحى كوسيلة للتعبير الشفوي التلقائي . وهذا النوع الأخير يلي مباشرة تلك الحالات التي يحاول فيها الشخص القراءة بصوت مرتفع من ورقة مكتوبة - وهي حالة يحاول فيها بكل حرص أن يتفادى صفات المستوى العامي .

وبناء على تحديد مادة البحث بتلك الصورة ظهر أن الباحثة ترى أن هذا الخليط لا يمثل مستوى انفرادياً مستقلاً ، ولا يتمتع بوحدة داخلية خاصة به . وهو بهذا التحديد - أو عدم التحديد - يختلف كلية وبصفة أساسية عن « اللغة الثالثة » أو « الوسطى » في اصطلاح فرح أنطون وتوفيق الحكيم . كما أنه يختلف أيضاً عن الأساس الذي نقيم عليه دراستنا الحالية وخاصة إدخالها ، والحالات التي يحاول فيها المتكلم استخدام الفصحى كوسيلة للتعبير الشفوي التلقائي . في نطاق اللغة الثالثة . فهذه الحالات حتى لو فشل المتكلم في تحقيقها بطريقة مرضية لا تدخل في اللغة الثالثة في تعريفنا ، بل تبقى كما هي « محاولة فاشلة للحديث بالفصحى » . أما اللغة الثالثة فهي لغة تلقائية كما سنشرحه في الأجزاء التالية . ولما كنا سنتناول بعض الأمور التي أثارها الدكتور كليمن في بحثها في موضوع آخر فإننا سنكتفي بهذا القدر في الوقت الحاضر .

وكما وجدت العامية من يرى فيها مستويين لا مستوى واحداً كما كان يظن من قبل ، كذلك وجدت الفصحى المعاصرة من نظر إليها نظرة مشابهة : ففي الغرب وجد هؤلاء الذين يتصلدون لاختيار مادة لدراسة العربية في الجامعات الأوروبية والأمريكية - وجدوا أمامهم إنتاجاً من أنواع مختلفة مما جعلهم يحسون بأنه لا يمكن أن يندرج تحت مستوى لغوي واحد . وعمل الرغم من أنه لم يكن هناك دراسات علمية تستند هذه المسلمات فإنهم أصدروا كتب القراءة تحت عناوين مثل : « عربية الصحافة » ، « عربية الدبلوماسية » ، « عربية الأدب » ... إلخ .

ويجري الأبحاث في الوقت الحاضر لدراسة المستوى اللغوي الذي يستخدم في كل وجه من أوجه النشاط في المجتمع العربي . مثل التجارة والصناعة والخدمة الاجتماعية ... إلخ . بحيث يستطيع متعلم العربية أن يركز على الميدان الذي يتصل بدراسته - وخاصة في ميدان المفردات والمصطلحات - بعد أن يحصل القدر الأساسي المشترك بين كل تلك المستويات . وكل الدلائل تشير إلى أن التأليف في الفصحى المعاصرة سيتركز في الغرب وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية - على هذا الاتجاه في السنوات المقبلة .

على أن تناول هذه المستويات في الغرب لم يقتصر على إصدار مجموعات القراءة فقط . فقد ظهرت في عام ١٩٦٠ دراسة في حوالى خمسين صفحة قام بها اللغوي الأمريكي ريتشارد هاريل للنواحي الصوتية والصرفية لما أسماه عربية الإذاعة المصرية . وقد حدد موضوع دراسته بأنه يشمل العربية الفصحى المسموعة من راديو القاهرة والتي قام بتسجيلها - كما ذكر في المقدمة - وهو في الولايات المتحدة .

ويقوم منهج دراسته على فكرة بسيطة ومعقولة . وتتخلص في مقارنة الصفات الصوتية والصرفية للغة هذه الإذاعة بما يقابلها من صفات العربية الفصحى كما وصفها لنا النحاة العرب القدامى . ومن عملية المقارنة هذه ينتج لديه نقاط اختلاف أو اتفاق (وإن كان يركز اهتمامه على نقاط الاختلاف بالطبع) . وهذه النقاط هي ما يمكن أن يسميه « خصائص فصحى الإذاعة المصرية » .

وقد ساعد المؤلف على القيام بتلك الدراسة خبرته الفائقة في الدراسات الصوتية الخاصة باللهجة المصرية . فهو صاحب دراسة^(١) في صوتيات لهجة القاهرة تعد في رأيي - على اختصارها - من أحسن ما كتب في هذا الموضوع إلى الآن . على أن عيب الطريقة الحسابية التي اتبعها الأستاذ هاريل في دراسته أنها قد لا تفرق بين الصفات التي تندرج تحت ما يمكن أن يسمى بالفرق « الأصيل » بين المستويين اللغويين موضوع

(١) قام المؤلف بهذه الدراسة كوضوع لـدكتوراه أثناء تدريسه اللغة الإنجليزية بالقاهرة ، ثم نشر ملخصاً لها في الكتاب التالي :

Richard S. Harrell, The Phonology of Colloquial Egyptian Arabic, American Council of Learned Societies, Series B no. 9 (Washington, D. C., 1957).

الدراسة وما يعد مجرد سبق لسان أو خطأ صرفاً في المستويين معاً . فثلاً : تظهر طريقة المقارنة الحاسوبية أن صوت « التاء » في مستوى الفصحى كثيراً ما يقابله في مستوى الإذاعة صوت السين ولما كان هذا الإبدال شائعاً ، وكثيراً ما يمر بدون ملاحظة - إلا من المختصين في اللغة - فإننا نستطيع أن نعد من الفروق الأصلية بين المستويين مما يسوغ القول بأنه حقيقة من خصائص مستوى فصحي الإذاعة في مصر وغيرها من المستويات المشابهة . أما إسقاط باء جمع المذكر السالم في الحالة الوحيدة التي سجلها الأستاذ الباحث في عبارة « بالنسبة لحضرات (مستمع) هاتين الموجتين » فإن مرجعه في رأيه أما سوء الاستقبال الإذاعي في الولايات المتحدة وأما سبق لسان من المذيع . وهناك بالطبع احتمال ثالث وهو أن يكون المذيع قد نطق بصوت الباء قصيراً جداً مع الاحتفاظ به أطول من صوت الكسرة في الوقت ذاته - كما يحدث في بعض الأحيان بدرجة تعذر على الباحث معها أن يلاحظه . ولما كانت هذه الحالة تختلف - كما قال الباحث عن صفات كل من الفصحى الموصوفة في التراث والعامية المصرية فإنه قد سجلها وتركها جانباً^(١) دون أن يصدر عليها حكماً . ونحن نرى أنها مجرد خطأ من المذيع ولا تكشف شيئاً من خصائص فصحي الإذاعة المصرية .

على أن هناك اعتراضاً آخر على تحديد مادة الموضوع بتلك الصورة . فإن « عربية الإذاعة » ليست ذات مستوى واحد . ففيها الأحاديث الدينية والتعليقات السياسية ، والنشرات الإخبارية ، والأحاديث العلمية . . . الخ . فإجراء دراسة تتخذ أساساً لها هذه المستويات مجتمعة ، وبدون تفریق بينها . لا بد وأن يؤدي إلى إعطاء نتائج مضللة . وعلى كل حال فنتائج الدراسة في حد ذاتها قليلة جداً خاصة وأنها ركزت على - أوروبياً لم يجد مؤلفها الكثير خارج - الناحية الصوتية وبعض الصبغ الصرفية القليلة . وترجع قيمة هذه الدراسة^(٢) في نظري - لا إلى ما ورد فيها بالذات - فقد كان الكثير منه معروفاً من قبل - بل إلى أنها فتحت الطريق أمام غيرها وإن كانت الثمار لم تنضج بعد .

(١) المرجع السابق : ص ٤٥ .

(٢) نشرت هذه الدراسة ضمن مجموعة بعنوان : "Contributions to Arabic Linguistics" بإشراف القري الشهير (Charles A. Ferguson) وكان عنوان الدراسة ذاتها - A linguistic analysis of

أما في مصر فقد اتخذ الموضوع وجهاً آخر : فقد قام إجماع على أن العصر الحديث حمل معه نهضة لغوية تمثلت في التخلص من السجع والجناس وغيرها من الحلى اللفظية بحيث أصبحت الكتابة أداة للتعبير المباشر لا للتلاعب بالألفاظ وغيره من المعوقات الشكلية . كما جرى العرف على اعتبار هذا الشكل الجديد من التعبير مجرد رجوع إلى بساطة اللغة الأولى أو مجرد تنقية للغة من أوزار حملها لها عصور التخلف الفكري التي مرت بها البلاد العربية . ولم يتحدث الكثيرون عن نشوء لغة فصحي عصرية . ومع ذلك فلا يعلم المرء من وصف التغيير الذي حدث - أو الذي تخفى أن يحدث - بأنه لغة مستقلة عن اللغة التي طرقت بها مصر أبواب العصر الحديث :

فهذا فرح أنطون يلقبها « باللغة الجديدة » في رده على القاضي ويلمور الذي دعا إلى إحلال العامية محل الفصحى في الكتابة والتعلم حتى يستطيع العامة فهم ما يكتب الخاصة فينتشر العلم ويتم الحضارة البلاد . فيعد أن يرفض فرح أنطون هذا الرأي ، ويقدم الأدلة على وجود الأخطاء فيه يقول : « إن المسر ويلمور مصيب كل الإصابة إذا كان غرضه في اقتراحه هذا إنشاء أسلوب جديد للكتابة يفهمه جميع أبناء اللغة . . . ولكن هذه اللغة الجديدة المطلوبة التي تقتضيها حالة العصر ويوجب سير التمدن قيامها ليست اللغة العامية . لأن هذه لغة ساقطة ، ولكنها لغة بين اللغة الفصحى القديمة التي لا يفهمها العامة والخاصة أيضاً وبين العامية . وهذه اللغة الجديدة موجودة الآن وهي لغة المجلات والجرائد التي تحسن اختيار ألفاظها وأساليبها وتتجنب الخطأ فيها . . . »^(١) .

وكذلك يفضل زكي مبارك في بعض ما كتب بعد حوالي ربع قرن من الزمن وإن كان قد رأى أن تلك اللغة لم توجد بعد : « إننا نريد « لغة من لغات المنية » ، نريد لغة يفهمها الفلاح والملاح والتجار والبناء . . . يرى فيها العوام ما يشامون من البساطة والجمال ، ويرى فيها الخواص ما يريدون من السمو والتحليق ، نريد لغة مبسولة

Egyptian Radio Arabic- ونشر الجمعية Harvard Univ. Press عام ١٩٦٠م وصدرت طبعها الثانية عام ١٩٦٤ .

(١) فرح أنطون . حياته - أدبه - مقتطفات من آثاره . منشورات دار صادر بيروت ص ٥٦ - ٦٣ .

على نحو ما يبذل الضوء والهواء . . . إن البيان الذي سمعته عنه لا يعرفه إلا الأقلون من كتاب هذا الزمان ، وإلا فأين الكاتب الذي استطاع أن يصل بقلمه العلوب إلى أفئدة الجماهير من أهل الريف ؟ نحن نريد لغة تشبه لغة القوانين والمعاهدات . لغة محددة الألفاظ واضحة المعاني . . . وهذه اللغة المنتظرة يجهد في خلقها كتاب الصحف اليومية الذين عرفوا بالتجربة أن لهم « زبائن في جميع الميئات »^(١) .

ولا يهتنا في هذه المرحلة أن نقصص في النزاع الخاص بتسمية هذا النوع الجديد من التعبير أو في تقرير ما إذا كان لغة مستقلة أم لا . كل ما يهتنا هو أن نسجل أن مطالب الحضارة الحديثة من جهة ، وصيحات المتطرفين - ولا نقول المرغضين - من أمثال ويلكوكس وويلمور من جهة أخرى قد نهت الكثيرين من أمثال فرح أنطون الكاتب المسرحي وزكي مبارك الكاتب الصحفي إلى أن قوالب التعبير القديمة قد ضاقت فعلا عن الوفاء بمتطلبات العصر الحديث ، عصر الجريدة الصباحية التي لا تنتظر أحداً والتي ينتظرها كل إنسان : ولقد قضيت في مهنة التعليم نحو عشرين سنة ، واختبرت أوقافاً من التلاميذ في المدارس المصرية والأمريكية والفرنسية ، وكنت أحضس الطلبة على القراءة والاطلاع . وكان الطلبة يسألون : ماذا نقرأ ؟ وأقسم صادقاً أنني لم أوفق مرة واحدة إلى الجواب ، لأنني لا أجد ما أوصي بقراءته غير عدد يسير جداً من المصنفات لا يفتن ولا يشوق^(٢) .

ثم تنتقل عبر الزمن حتى نصل إلى الوقت الحاضر لرى صورة الفصحى بعد هذه المحاولات ، أو بعبارة أدق لرى كيف يرى أصحاب الفصحى ودارسوها والمتعاملون بها صورة هذه اللغة في الوقت الحاضر . ولكي ننفاد التطويل فنستختار رأيين فقط يتناول كل منهما اللغة من زاوية مختلفة ، لعرضهما في هذه المرحلة : الرأي الأول يتناول الفصحى المعاصرة من حيث بنيتها وتركيبها المميزة بينما يتناولها الرأي الثاني من حيث طريقة أدائها وكيفية وفائها بالحاجات التعبيرية لاجتماعنا المعاصر .

فن ميدان الدراسات اللغوية المتخصصة ، نرى الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس :

(١) زكي مبارك . المرجع السابق ص ٢٦ - ٣٠ .

(٢) زكي مبارك المرجع السابق : ص ٣٤ - ٣٥ .

يقول في تعليق له على بحث ألقاه الأستاذ محمد خلف الله أحمد ، في إحدى جلسات الدورة الرابعة والثلاثين لجمع اللغة العربية ، عن مستقبل الفصحى - نراه يقول إن لدينا الآن فصحى جديدة لها صفاتها الخاصة بها والتي هي أقرب إلى صفات العامية المحلية منها إلى صفات الفصحى القديمة . . . ولا شك - كما قال الدكتور إبراهيم مذكور - إن لدينا لغة فصحى حديثة لا تكاد تمت إلى الفصحى القديمة إلا بصلصة قليلة . فحين أقارن بوصفي لغوياً ما يكتب في الصحف ونسبه باللغة الفصحى من حيث هندسة الجملة ومن حيث الأصوات بما نسمعه نجد هذه الظواهر المحلية لا تزال سائدة بيننا الآن^(١) ولا نظن أننا نحمل كلام الدكتور أنيس فوق ما يحتمل إذا قلنا إنه بعد هذه الفصحى التي يتحدث عنها مرحلة متوسطة بين « فصحى التراث » وبين العامية المصرية .

ومن ميدان البرامج الثقافية الإذاعة المصرية - وهي البرامج التي تلعب فيها اللغة بمستوياتها المختلفة وبكل ما لديها من إمكانيات حضارية دوراً رئيسياً في الارتفاع بمستوى المخاطبين - من ميدان هذه البرامج نرى مديرتها الأستاذة فاروق شوشه^(٢) يقرر أن لدينا الآن - إلى جانب العاميات (بصيغة الجمع) - لغات فصحى ، أو فصحيات أربع :

- ١ - لغة التراث - وهي لغة جامدة تنظر إلى الحلف .
- ٢ - لغة العلم - وهي لغة تختلف تماماً عن لغة التراث لأنها لا تعتمد على

(١) مجمع اللغة العربية . مجموعة البحوث والمحاضرات للدورة الرابعة والثلاثين عام ١٩٦٨ - ٢٧٦ ص

(٢) الأستاذة فاروق شوشه هو صاحب أقدم برنامج بالفصحى عن الفصحى لا يزال حياً في الإذاعة المصرية ، ونفى به برنامج « لغتنا الجميلة » . هذا فضلاً عن عمله كبير البرامج الثقافية بالإذاعة وبمؤهلاته الشخصية كمتخصص في اللغة العربية ودراستها ، وكشاعر وكاتب للأغنية الجماهيرية فعلاحة بالفصحى المعاصرة هي من النوع الذي يؤمله لأن يكون حكماً فيها تصلح له وفي إمكانية تطويعها لختلف الأغراض . وفي اعتقادي أن رأيه هو القسيم الطبيعي لرأي الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس - العالم اللغوي وعضو مجمع اللغة العربية - الذي أوردناه من قبل .

التوارث المؤلف قدر اعتمادها على الاشتقاق والتعريب والتحت اللغوي في محاولتها لاستيعاب منجزات الحضارة العلمية والبحوث التجريبية .

٣ - اللغة الأدبية - أساسها الانفعال والعاطفة والشعور .

٤ - لغة الاتصال بالجمهير - وهذه اللغة تولدت من تفاعل اللغات الثلاث الأولى وهي لذلك تختلف عن كل منها على حدة . فهي ليست حبيسة التراث ، وليست لغة علم وتجربة ، كما أنها تختلف كثيراً عن لغة الأدب والفن . ومع ذلك فهي ليست مقطوعة الصلة بأى منها تماماً^(١) .

وفي مكان آخر يتحدث الأستاذ فاروق شوشة عن لغة الاتصال بالجمهير هذه فيميز فيها بين لغة الصحافة ولغة الإذاعة . ثم يقرر أن الأخيرة ذات مستويات مختلفة وأنها تتعدد بتعدد الفنون الإذاعية ذاتها كالحديث والحوار والبرنامج الخاص والتيليابة والأعمال المترجمة فضلاً عن لغة الخبر والتعليق السياسي . . . إلخ^(٢)

هذه لمحة من صورة الواقع اللغوي في مصر منذ أواخر القرن الماضي إلى الوقت الحاضر كما رآه عدد من رجال الفكر والأدب واللغة^(٣) . وفي غالب الأحيان لم يقصد

(١) فاروق شوشة . « لغة الاتصال بالجمهير » هي لغة الحاضر والمستقبل ، مقال منشور بمجريدة الأخبار ١٩٧٠/٧/١٩ - الملحق الأدبي .

(٢) فاروق شوشة : « ليس يكفي أن تكون لغتنا الجميلة .. بل لابد أن تكون أولاً لغتنا العصرية » مقال منشور بمجريدة الأخبار ١٩٧٠/٨/٢ الملحق الأدبي .

(٣) يتصل بهذه الصور - وإن كان بطريقة غير مباشرة - البحث الذي نشره الأستاذ بلاتك عن « التغيرات الأسلوبية في عربية الخطاب » :

H. Blanc : Stylistic Variations in Spoken Arabic : A sample of Interdialectal Educated Conversation.

وقد صدر في المجموعة المشار إليها في هامش رقم (٢) ص ٨٠ .

وقد قام البحث على دراسة عمادة بين عدد من الشبان العرب المثقفين ممن نشأوا في أقطار عربية مختلفة (العراق ولسطين وسوريا) بهدف اكتشاف التغيرات التي يدخلها التحدث العربي اليوم على لهجته إذا ما قابل عربياً من بيئة لغوية مختلفة عن بيئته هو . ويمكن ذلك إما باصطناع صفات من لهجة أعلى في المكانة الاجتماعية من لهجته هو أو باصطناع صفات من صفات الفصحى . وبناء على تلك -

أصحاب هذه الآراء أن يقدموا لنا دراسة علمية تعضد آراءهم ، بل كانوا يصدرون في

الدراسة الطريفة قسم الباحث أنواع الحديث في تلك الظروف المختلطة ومن حيث صفاته اللغوية إلى ما أسماه :

١ - العامى الخالص

(الحلى)

٢ - العامى المعدل

(المشترك)

٣ - شبه الفصح أو العامى الرقيق

٤ - الفصح المعدل

(على)

٥ - الفصح المشترك أو العام

ولاشك أن الظرف اللغوي الذي وصفه الكاتب واقعي وكثير الحدوث . والتحدث العربي فيه يقوم بمحاولة -بعمدة لاصطناع صفات لغوية يظن - بناء على تقديره الشخصي - أنها هي التي يفهمها المتحدثون معه . وقد ينبجح في تقديره ذلك وقد يفشل بناء على درجة ترفيقه في اختيار التراكيب والمفردات بالطريقة التي تدخل بها في دائرة الفهم لدى سامعيه من البيئات المختلفة .

أما بحثنا الذي نحن بصدد هنا فإنه يقوم على دعوى أن لكل من المواقف الاجتماعية في شتى الحياة اليومية التي لا حصر لها - مثل البيع والشراء والتحيات وإلقاء المحاضرات والاشتراك في المحاورات السياسية على مستويات مختلفة وعبادة المرضى ... إلخ - لكل من هذه المواقف مقوماتها الخاصة كما أن له أصولاً مرجعية تبين حدودها قوانين العرف والعادات . ومن هذه الأصول « نوع اللغة » التي تستخدم في كل موقف . فكل من يشترك في موقف اجتماعي من أبناء البيئة المصرية يجد نفسه وقد دخل في قبضة المستلزمات التي تفرضها التقاليد الاجتماعية على المشاركين في مثل هذا الموقف - سواء أكانت لغوية أو غير لغوية - دون أن يحتاج الأمر إلى تفكير واع من جانبه . ولذلك فراه يستخدم نوع اللغة المناسبة للموقف بطريقة تلقائية تماماً كما يتصرف في جوانب المواقف الأخرى طبقاً للعرف المتبع . فإذا خالف التكلم واحداً من مستلزمات الموقف غير اللغوية كأن يرفض دفع ثمن السلعة التي أخذها أو يخالف أحد المستلزمات اللغوية كأن يخاطب البائع بنوع من اللغة يختلف عن النوع المناسب للموقف عوقب على ذلك في الحال بقوة تناسب الجرمية كالفرض مثلاً في الحالة الأولى أو السخرية أو حتى عدم الفهم في الحالة الثانية . ولتصور رد الفعل لمن يسأل باعماً وسط زحام السوق : بكم تباع الخبز اليوم ؟ ومثل ذلك التنادرة التي تحكى أن نحوياً ذهب إلى السوق ليشتري بطيخاً فقال للبائع :

- بكم هاتان البطيختان اللتان ناضجتان اللتان على عشط مستقيم ؟

فأجاب البائع :

معظم ما كتبوا عن معاناة اللغة على الصعيد العملي ، وهي - في رأبي - أهم وأصدق تصويراً لإمكانات اللغة التعبيرية مما تستطيع الدراسات اللغوية النظرية أن تقره .

فأين نحن حقيقة من كل هذه الصور ؟

• هل في مصر لغة واحدة فقط هي الفصحى ، وما عداها ليس إلا مجموعة من الأخطاء والنحن والدخيل . كما يقول البعض ؟

• أم أن لدينا فصحي في ناحية وعامية في الناحية المقابلة ، ولا شيء وراء ذلك أو بين ذلك ، كما يعتقد الكثيرون ؟

• أم أن لدينا لغات ثلاث : فصحي في أقصى اليمين ، وعامية في أقصى اليسار ومتوسطة أو ثالثة بينهما كما قال فرخ أنطون وتوفيق الحكيم ؟

وفيما يتعلق بالفصحى ذاتها :

• هل هي واحدة في كل عصر وزمان هي التي ورثناها عن العرب الأوائل وما لدينا منها في العصر الحديث ليس إلا نتيجة لتغير خارجي لم يمس منها جوهر التركيب كما يؤخذ كفضية مسلمة لدى الكثيرين ؟

• أم أن لدينا فصحي حديثة لا تكاد تمت في هندسة جملها وفي أصواتها إلى الفصحى القديمة كما يقول الدكتور إبراهيم أنيس والعلماء الغربيون ؟

وأخيراً ... وليس آخرأ - هل الواقع اللغوي عندنا يتفق حقيقة مع إحدى هذه الصور التي رسمها له رجال اللغة والفكر أم أنه يختلف عن كل ما ذكر إلى الآن ؟

إن الجواب على تلك الأسئلة لا يكون - في رأبي - بمناقشة الآراء التي قبلت في حد ذاتها ، بل بتقديم وصف للواقع اللغوي كما هو من وجهة نظر هذا البحث . وهذا هو ما نؤى أن نقدمه في الفصل التالي .

— بيوكسان وروسيان فأى آله ربكما تكذبان !

ولا كان الظروف الذي وصفه الأستاذ بلانك لا يتصل ببيئة اجتماعية محددة فقد أقام تقسيمه على صفات لغوية في المقام الأول . أما في بحثنا هذا فالأمر يختلف : فالمستويات اللغوية الخمس التي قرناها للبيئة المصرية تقوم على مواقف اجتماعية حقيقية مما دعانا إلى أن نبدأ من هذه المواقف ثم نصف اللغة التي يتطوّر كل منها باعتبارها جزءاً مكملًا للموقف غير مستقل بذاته . وتأكيداً لهذا المنهج أطلقنا على المستويات مصطلحات اجتماعية في المقام الأول مثل عامية الأيمن والتنويرين إلخ .

الفصل الثالث

مستويات العربية

في مصر المعاصرة

تحديد هذه المستويات

تقوم هذه الدراسة على الاعتراف بوجود خمس مستويات من اللغة في كل مجتمع لغوي متكامل^(١) في مصر المعاصرة . هذه المستويات هي ما سنصطلح على تسميته فيما يلي من هذا البحث باصطلاحات نحددها كآلاتي :

- ١ - فصحي التراث : فصحي تقليدية غير متأثرة بشيء نسبياً .
- ٢ - فصحي العصر : فصحي متأثرة بالحضارة المعاصرة على الخصوص .
- ٣ - عامية المثقفين : عامية متأثرة بالفصحي وبالحضارة المعاصرة معاً .
- ٤ - عامية المتنورين : عامية متأثرة بالحضارة المعاصرة .
- ٥ - عامية الأميين : عامية غير متأثرة بشيء نسبياً ، لا بالفصحي ولا بالحضارة المعاصرة .

ولعل من المفيد في هذه المرحلة أن تقدم تعريفاً لكل واحد من هذه المستويات بشيء يقربه من القارئ ويوضح ما نعنيه بصفة مبدئية . وسنركز في هذا الوصف على الجانب المنطوق وخاصة كما يستخدم في برامج الإذاعة المصرية المختلفة ، نظراً لوضوح الخصائص الصوتية أكثر من غيرها .

- ١ - فصحي التراث : تكاد تكون الآن وفقاً على رجال الدين من علماء الأزهر . واستخداماتها المنطوقة تكاد تنحصر أيضاً في البرامج الدينية المعدة مسبقاً مثل برنامج « رأى الدين » الذي كان يشرف عليه أحد علماء الأزهر ويتولى فيه قراءة الأسئلة الدينية المرسله من المستمعين ، ثم يرد عليها ضيف الحافقة بفصحي متأثرة بقواعد القراءات القرآنية تأثراً قوياً .

(١) نجمل القارئ على صفحة ٥٣ من هذا الكتاب للوقوف على المقصد بالجمع اللغوي التكاملي .

٢- **ولصحي العصر** : وجعلها أوسع كثيراً من مجال المستوى السابق . فهي تبدو في كل الموضوعات التي تتصل بحياتنا المعاصرة والتي تستخدم فيها العربية الفصحى . ومثلها في الإذاعة نشرات الأخبار والتعليق السياسي . والأحاديث العلمية المعدة مسبقاً والتي يقرؤها أصحابها من ورقة مكتوبة . ونظراً لاتساع هذا المستوى وشموله . فإن بداخله أماناً مختلفة مثل النمط العلمي والنمط السياسي والنمط الأدبي والنمط الاجتماعي على ما سيأتي بيانه^(١) .

٣ - **عامية المثقفين** : وهي التي تستخدم عادة في الأمور التجريدية وفي المناقشات التي تجرى بين المثقفين في الموضوعات الحضارية مثل مسائل العلم والسياسة والفن والمشاكل الاجتماعية . ويمثلها في الإذاعة برامج الرأي والمناقشات والحوار مثل بعض أحاديث صافية المهندس في برنامج ركن المرأة عندما تتحدث عن العادات والتقاليد أو عن أخبار خارجية بغرض بيان ما فيها من مغزى يتصل بحياة ربة البيت المصرية مثل حديثها عن إضراب عمال الكهرباء في إنجلترا وموقف ربات البيوت هناك من الذين قاموا به . كذلك يمثل هذا النوع البرنامج التليفزيوني « المسرح في بادنا » الذي يناقش فيه مؤلفو المسرح مع بعض النقاد حول مسرحية من المسرحيات ويتناولون جوانبها المختلفة من قصة وحوار وإخراج وإضاءة ومدى اهتمام الجمهور بها ... إلخ .

ويتنشر هذا المستوى ويتغلغل في كل ميادين الثقافة والمعرفة في المجتمع المصري في الوقت الحاضر . بحيث إنه لا يدور حديث أو تجرى مناقشة بين المثقفين خارج إطاره . ولذلك فقد أصبحت « عامية المثقفين » بمفرداتها وتعبيراتها ومرونتها مستوعب الخاضرة المصرية الحديثة ولسان العلم المعاصر :

وقد امتدت هذه اللغة إلى حلقات برنامج كان الكثيرون يتوقعون أن يكون من أكثر البرامج إخلاصاً للفصحى وهو برنامج « مع النقاد » من إذاعات البرنامج الثاني . ومع أن ذلك أمر طبيعي (على ما سنبين في موضعه) إلا أنه أثار غضب بعض النقاد

(١) انظر ص ١٢٨ - ١٣٣ من هذا الكتاب .

بدرجة جعلته يلقب هذا المستوى اللغوي « باللغة الخشنى »^(١) . كذلك امتدت هذه اللغة إلى مدرجات الجامعة وكادت تصبح الآن الوسيلة الوحيدة للتعليم والمناقشة فيها .

٤ - **عامية المتورين** : وهي التي يستخدمها غير الأميين عموماً في أمور الحياة العملية اليومية من بيع وشراء ورواية أخبار . كما يجري بها الحديث بين الأهل عن المشاهدات اليومية والانطباعات عن الأصدقاء والجيران وألوان الطعام والملابس ... إلخ .

ويمثل هذا المستوى في الإذاعة بعض البرامج الخفيفة مثل برنامج « سيناثيات » الذي كان يشرف عليه الأستاذ كمال الملاخ وخاصة تلك الحلقات التي كان الضيف فيها من السيدات .

٥ - **عامية الأميين** : يتصل هذا المستوى - كما يبدو من اسم المصطلح الدال عليه بأمية أصحابه . ولهذا السبب لا يوجد بين برامج الإذاعة برنامج معين يتخذ منه لغة أساسية له على عكس المستويات الأربع الأخرى . ومع ذلك فقد يسمع المرء نماذج منه في البرامج التي تقوم على الاتصال بالجمهور خارج الاستديوهات مثل برنامج « على الناصية » الشهير . وأولاً أن المذيعين - بكل أسف - يتبعون أسلوب « إغناء الحوار » قبل تسجيله لكان من الممكن الحصول على مادة لغوية طيبة من هذا النوع .

على أن هذا المستوى يحظى بنصيب كبير في البرامج التمثيلية والدرجات وخاصة الفكاهية منها . فهو لغة « أولاد البلد » من الجنسين على الرغم من بعض المبالغات التي يلجأ إليها بعض الكتاب والتي سماها توفيق الحكيم « المبالغة في تصيد المهابط من الألفاظ بغرض إضحاك الناس أو بحجة تصوير واقعا .. مع أن واقعا ليس في كل الأحيان بهذا السوء^(٢) .

(١) حياض خضر : « اللغة الخشنى في البرنامج الثاني للإذاعة » جريدة الأخبار ١٩٧٠/٨/٢٩ الملحق الأدبي .

(٢) الورطة ص ١٩٤ .

ومن البرامج الإذاعية التي تستخدم هذا المستوى والتي احتلت قمة الشهرة لفترة طويلة بلا منازع ، خالتي بنه ، وهي جزء من برنامج ركن المرأة . فهي وزوجها وعم سيد ، يمثلان هذا المستوى بكل خصائصه كما سنذكرها مؤثراً^(١) . وقد شاركهما في هذه الشهرة - بل وسبقهما فيها - المعلم وعماشة ، في مغامراته الرضائية وإن كانت الرغبة المبالغة في الإضحاح قد أفسلت كثيراً من خصائصه اللغوية .

العوامل التي تحكم تفاعل هذه المستويات بعضها مع بعض :

على أن هذه المستويات الخمس لا تعيش منزلة بعضها عن بعض داخل حدود مغلقة ، بل إنها في اتصال وتفاعل دائمين فيما بينهما . ويحكم هذه الصلات ويبقيها حية وجود : بعض العوامل المشتركة بينها والتي من أهمها الآتي :

(١) إن كل هذه المستويات - على الرغم من اختلافها - ترجع في أساسها إلى أصل تاريخي لغوي واحد هو ما نسميه بالعربية ، مما يبق باب التأثير والتأثر فيما بينها مفتوحاً على مصراعيه .

(ب) وأن كل هذه المستويات توجد وتعمل وتتفاعل معاً داخل مجتمع واحد متكامل هو المجتمع أو بعبارة أدق قطاعات المجتمع المصري ، مما يجعل من الممكن مادياً لأي شخص أن ينتقل من الواحد إلى الآخر متى توافرت الشروط النفسية والاجتماعية .

(ج) وأن بعض الوظائف الاجتماعية التي يؤديها مستوى ما قد تختلف اختلافاً حاداً عن بعض الوظائف التي يؤديها غيره ، وقد تختلف اختلافاً طفيفاً عن بعضها الآخر . فمثلاً ، عامة المثقفين ، تؤدي وظائف كثيرة مثل : المحاضرة الجامعية ، و المناقشة التلفزيونية ، وقد يستخدمها بعض الأرواح الشباب في الحديث مع زوجته في بعض الأحيان . فإذا ما قارنا هذه الوظائف بما تؤديه عامة المتنورين ،

(١) انظر من ١٨٩ - ١٩١ من هذا الكتاب .

لوجدنا خلافاً حاداً بينهما في الوظيفة الأولى « المحاضرة الجامعية » بينما نجد الخلاف بينهما هيناً في الوظيفة الأخيرة وهي « الحديث مع الزوجة » . فهذه المناسبة الأخيرة بطبيعتها يصلح لها أي من المستويين طبقاً لنوع الموضوع بينما لا يمكن « لعامة المتنورين » أن تؤدي الغرض المطلوب في المحاضرة الجامعية مهما كانت الأحوال . فتقارب المستويات من ناحية الطرف الاجتماعي الذي يصلح له كل منها في بعض المناسبات يبقى صلة - ولو كانت قليلاً - بين كل مستوى والذي يجاوره .

(د) وأن كل فرد من أفراد المجتمع المصري (إلا في الحالات النادرة وبين الأमीين فقط وخاصة النساء منهم) يستطيع استخدام أكثر من مستوى . والمثقف الذي أكمل تعليمه الجامعي من شأنه أن يكون قادراً على استخدام المستويات الثلاثة : الثاني والثالث والرابع كل فيما يناسبه . ولما كان الشخص ذاته وحدة متشابكة فإن المستويات التي يستخدمها - حتى ولو كانت في مناسبات مختلفة - تبقى على اتصال فيما بينها .

(هـ) وأن الشخص الواحد قد يستخدم مستويين أو أكثر في نفس المصادفة ، بل وينتقل بين المستويات صعوداً أو هبوطاً من جملة إلى أخرى . وإن كان ذلك الانتقال لا يجري بدون قواعد أو قوانين تحكمه . فلا بد فيه من تحقق الشروط التي سنذكرها في موضعها^(١) .

هذه العوامل الخمس يمكن أن تسمى هنا « عوامل مزج » أو خلط للمستويات وتأثيرها معاكس لتأثير « عوامل الفصل » التي أشرنا إليها في المقدمة^(٢) والتي أدت إلى تعدد المستويات اللغوية وانفصالها في المجتمع المصري (من عوامل الفصل المذكورة اختلاف درجة الثقافة ، واختلاف النشأة - فالذي يولد في أسرة من الأमीين يتعلم مستوى لغوياً يختلف عن المستوى اللغوي الذي يتعلمه من يولد في أسرة من المثقفين - واختلاف الظروف الاجتماعي ... إلخ) .

وتصارع « عوامل الفصل » و « عوامل المزج » المذكورة وبجاذبيتها باللغة في

(١) انظر من ٢٠٧ - ٢١٢ من هذا الكتاب .

(٢) انظر من ٩ - ١١ من هذا الكتاب .

التجاهين متقابلين أدى إلى أن توجد هذه المستويات وتتصل معاً (أو تنفصل) بطريقة خاصة . فهي في الواقع لا توجد منفصلة عن بعضها تمام الانفصال . والتحديد الذي ذكرناه لكل مستوى يعنى أن يؤخذ على أنه مجرد تخطيط أكاديمي يهدف إلى تسهيل دراسة كل مستوى على حدة . وإلا فإن هذه المستويات الخمس تندرج في واقع المجتمع المصري من المستوى الأول إلى الخامس أو بالعكس بحيث ينساب كل مستوى في المستوى المجاور له انسياباً يتعذر معه تحديد بداية كل مستوى أو نهايته . كل ما يمكن بيانه على وجه القطع هو وسط المستوى أو قابه في المنطقة التي تكون بعيدة عن حدوده المشتركة مع المستوى الذي فوقه والذي تحته أى حيث تتركز صفاته اللغوية والاجتماعية وتتجمع بطريقة لا تدع مجالاً للشك في حقيقته .

ولما كانت هذه الخاصية - وهي انسياب المستويات بعضها في بعض - من النقط الرئيسية التي يقوم عليها البحث فإننا سنورد لها تمثيلاً من عالم المحسوس ليوضحها توضيحاً لا يترك مجالاً للشك في تحديد ما نقصده هنا :

يتحدث علماء الطبيعة عن ألوان الطيف السبعة . ونحن لو استخدمنا منشوراً زجاجياً حللنا به أشعة الشمس أو نظرنا إلى قوس قزح عند ظهوره في السماء فإننا سنرى هذه الألوان السبعة تظهر متلاصقة ومرتبطة على النحو التالي . الأحمر فالبرتقالي فالأصفر فالأخضر فالأزرق ، فالنيلي فالبنفسجي . (وما قبل الأحمر - أو ما تحته كما يقولون - وما بعد البنفسجي - أو ما فوقه - مناطق من ضوء تعجز العين الإنسانية المجردة عن رؤيته بحسب خلقتها) .

على أننا لو دققنا النظر في المنطقه الواقعة على جانبي كل لون (وهي ما يمكن أن يطلق عليه اسم « الهامش اللوني » حيث يتصل اللون باللون المجاور له لوجدنا أنه لا يوجد خط واضح يظهر عنده ابتداء لون وانتهاء آخر . بل سنرى أن لون الهامش عبارة عن خليط من اللونين المتجاورين ولا يمكن نسبه كلية إلى أحد اللونين دون الآخر وخاصة في وسطه (أى وسط الهامش) . وهذا هو السبب في أن تلك الألوان السبعة تظهر بتلك الطريقة الخاصة : كل لونين أساسيين بينهما لون فرعى ناتج عن اختلاطهما ذلك أن تجاور لونين أساسيين كالأحمر والأصفر مثلا

بالطريقة المذكورة (أى طريقة انسياب كل من اللونين في الأخرى في منطقة الهامش) ينتج عنه تولد اللون الفرعى الناشئ عن اختلاطهما في تلك المنطقة وهو هنا اللون البرتقالي . ومثل ذلك يقال عن سبب وجود الأخضر (وهو لون فرعى) بين الأصفر والأزرق (وهما لونان أساسيان يتكون منهما اللون الأخضر) .

على أن اللون في منطقة الهامش أيضاً لا يظهر بطريقة فجائية . فهو بدوره يبدأ خفياً جداً من الجانبين ثم يزداد وضوحاً كلما اتجهنا إلى منطقة الوسط فيه حيث يسمى عندئذ بالبرتقالي أو الأخضر وغيرها من الألوان الفرعية .

فما تراه العين العجلى ونسبه ألوان الطيف السبعة ليس إلا مناطق الوسط أو القمم اللونية أو النقط التي يتركز فيها اللون . وكلما ابتعدنا عن هذه المناطق من أى من الجانبين كلما خف تركز اللون إلى أن ندخل في منطقة الهامش الذي يحيط بتلك القمم اللونية ، وهكذا .

فالألوان الطيف في الواقع هي مناطق وسط واضحة اللون هي ما نسميه الأخضر والأصفر والأزرق ... إلخ وما بينهما مناطق هوامش لونية يعسر تحديد طبيعة ألوانها على وجه القطع ويعسر نسبتها إلى إحدى مناطق الوسط على أى من جانبيها .

ولهذا فالانتقال من لون إلى آخر يتم في الواقع بطريقة تدريجية لا تلاحظها العين ولا تستطيع معها أن تعين النقطة التي يبدأ فيها لون وينتهي آخر . كل ما تستطيع القطع به هو النقطة التي يتركز فيها اللون أى القمة اللونية وهي في المركز .

وهكذا الحال بالنسبة للمستويات اللغوية الخمسة التي حددناها . فهي ليست ذات حدود واضحة جامدة تفصل كل واحد عن الآخر . والانتقال من مستوى إلى ما يجاوره يتم تدريجياً بحيث يمكن أن نميز في كل مستوى بين « منطقة وسط » أو قمة « وبين منطقة هامش » تلك المنطقة التي تختلط فيها صفات المنطقتين المتجاورتين اختلاطاً قد يتعذر معه في بعض الأحيان القطع بنسبة إنتاج معين إلى مستوى ما أو إلى المستوى الذي يجاوره . وهذا ليس عيباً في « المستويات » بل انعكاس للواقع اللغوي كما هو :

فلا كتاب « الفصحى المعاصرة » لا يكتبون في درجة واحدة من المعاصرة اللغوية

من حيث بنية العبارة ، وجملة الأساليب ، ومدى الانسلاخ عن القوالب التصويرية القديمة كما أن محصلهم من المفردات يختلف بصورة ملحوظة . ووضعنا لكتاب مثل الراضى وطه حسين والعقاد وهيكمل والزيات والمازنى فى نمط واحد من هذا المستوى لا يبرره إلا تحديدنا لمعنى المستوى على هذا الأساس التدريجى . فإى بينهم من الفروق ليس من القلة بحيث يمكن التغاضى عنه كلية ، وليس من الجذرية بحيث يبرر تخصيص كل منهم بمستوى قائم بنفسه .

ومثل هذا يمكن أن يقال بالنسبة للغة المنطوقة . فنحن ندرج معاً فى مستوى واحد هو « فصحى التراث » أشخاصاً من أمثال الشيخ بدر عبد الباسط ، والشيخ محمد أبو شهبه ، والشيخ أحمد الشرباصى ، والشيخ سيد سابق - وجميعهم من نجوم البرامج الدينية فى الإذاعة والتليفزيون بمصر - على الرغم من وجود خلافات بينهم فى مدى القرب من « الفصحى المثالية » التى صورها لنا العلماء الأقدمون فى كتب التراث .

قواعد التفريق بين المستويات :

أما القواعد التى يتم عليها التفريق بين المستويات الخمس فترجع إلى أساسين رئيسيين :

١ - الأساس اللغوى : وهو مجموع الصفات التى يختص بها كل مستوى من الدواخى الصوتية والصرفية والنحوية وأنواع التعبيرات التى تشيع فيه .

٢ - الأساس الاجتماعى^(١) : وهو ينقسم إلى شقين :

(أ) الظروف الاجتماعية التى تنبئ لطائفة معينة من أفراد المجتمع المصرى أن يكتبوا القدرة على استخدام بعض المستويات الخمس دون بعضها الآخر .

(ب) الظروف الاجتماعية التى تتحكم فى لغة الفرد وتجعله يكاد يكون مضطراً لى استخدام مستوى لغوى معين فى ظرف أو موقف اجتماعى معين فى الوقت الذى تسمح حصيلة اللغوية باستخدامه مستويات أخرى فى مواقف مغايرة .

(١) انظر الملحق الخاص بدراسة بعض المسائل المتعلقة بالمستويات بصفة عامة ، ص ٢٠١ - ٢١٣ .

ذلك أنه إذا تحقق لنا أن كلا من هذه المستويات اللغوية الخمس يتصف بصفات لغوية تميزه عن غيره وأن كل مستوى من هذه المستويات يصلح فى مناسبات اجتماعية معينة دون غيرها . أو يصاحف فى مناسبة قد لا يصاحف لها مستوى آخر وإذا تحقق لنا أيضاً أن ظروف النشأة والتربية وغيرها تساعد الشخص على أن يكتسب مستوى أو عدداً من المستويات دون غيرها - إذا استطعنا البرهنة على ذلك فإن النتيجة الحتمية التى لن نجد مفرّاً من الاعتراف بها هى أن هذه المستويات قائمة ومرجودة فعلاً فى مجتمعنا المصرى وأن لكل منها كيانها الخاص المميز . بل قد نذهب إلى أبعد من ذلك فنبرهن على أن كل مستوى يحمل فى داخله عوامل بقاء - على الأقل فى الوقت الحاضر - وأنه - طالما بقيت هذه العوامل - محكوم لهذه المستويات بالبقاء فى ظروفها الحالية .

الصفات اللغوية التى تميز كلا من المستويات الخمس :

قواعد وأصول عامة :

تلك الصفات تنبع من مصدرين رئيسيين : الفصحى والعامية ، ومصدر فرعى : هو اللغات الأجنبية من قديمة كالفارسية والقبطية وحديثة كاليونانية والإيطالية والإنجليزية . . . إلخ . ويختلف نصيب كل مستوى من صفات هذه المصادر ونسبة ما يوجد فيه من صفات كل مصدر إلى صفات المصادر الأخرى . أى أن صفات كل مستوى أو « شخصيته » هى عبارة عن مزيج أو « تركيبة » بنسب متفاوتة من خصائص العامية والفصحى والدخيل . وقبل أن نبين الصفات اللغوية لكل مستوى على حدة نرى من المفيد أن نرسم خريطة عامة لكيفية توزيع الملامح اللغوية على المستويات الخمس وكيفية تحديد نسب العامية والفصحى والدخيل فى كل مستوى . إذ أن استخدام تلك الطريقة ستبدو المستويات كما هى فى الواقع : أفراداً فى كل متكامل أو « أعضاء نظام لغوى واحد » كما يقول الإصطلاح اللغوى . فالمستويات الخمس تستهوب النشاط اللغوى فى المجتمع المصرى كله عن طريق اقتسامه فيما بينها ، أو بعبارة أخرى عن طريق تخصيص كل مستوى بجانب من جوانب هذا النشاط .

ولكى نستطيع رسم هذه الصورة العامة سنفرض أن السلم اللغوى الذى تحدثنا عنه مستويات التربية المعاصر

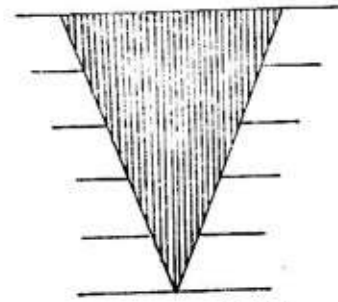
في المقدمة^(١) - وهو يمثل في فهمنا النشاط اللغوي للمجتمع - ستفرض أنه بدرجاته كلها يتوزع في خمس طبقات مرابطة بعضها فوق بعض - لا شيء فوقها ولا تحتها - وأن الطبقة العليا تمثل المستوى الأول « فصحي التراث » بينما تمثل الطبقة التي تحتها « فصحي العصر » والتي تليها « عامية المثقفين » والتي بعدها « عامية المتورين » والخامسة - وهي الأخيرة - « عامية الأميين » انظر الشكل التخطيطي رقم (١) .

رقم (١)

فصحي التراث
فصحي العصر
عامية المثقفين
عامية المتورين
عامية الأميين

شكل فرضي يبين تركيب المستويات في المجتمع

رقم (٢)



شكل فرضي يبين نسبة صفات الفصحي في كل مستوى

٩٩ أن في عامية الأميين قدراً من صفات الفصحي سيكون موضع حديثنا في مكان آخر^(١) . وبين الشكل رقم (٢) كيفية هذا التوزيع ونسبته في كل مستوى بطريقة تخطيطية .

ولكي نبين طريقة تمثيل هذا الشكل التخطيطي لكيفية توزيع صفات الفصحي وتدرجها تنازلياً من مستوى إلى آخر ، نأخذ مثالا من الواقع اللغوي نوضح به ما نقول: ترك لنا النحاة العرب تصويراً « مثالياً » لصوت القاف في الفصحي . فقد وصفوه لنا بأنه صوت مجهور لهوى شديد . فإذا ما استعرضنا أصوات القاف الموجودة في المستويات الخمس المذكورة وجدنا أن صورتها تختلف من مستوى إلى آخر ولكن بطريقة منتظمة . فهي تتدرج في بعدها عن هذا « المثال » كلما انتقلنا من مستوى إلى الذي يليه بطريقة تناظر التخطيط الذي يمثله شكل (٢) وتوضيح ذلك كالآتي :

في المستوى الأول وهو فصحي التراث يتحقق أكبر قدر موجود الآن من الصفات التي ذكرها الأقدمون^(٢) للقاف (لاكل الصفات التي ذكروها) . فعلماء الأزهر ومن لهم مثل ثقافتهم والمجيدون من قراء القرآن اليوم ينطقون القاف مهموسة لهوية شديدة . أي يتحقق فيها صفتان من ثلاثة (باستثناء صفة الجهر) .

أما في المستوى الثاني وهو فصحي العصر فإن صوت القاف يصيحه تغير آخر: فبدلاً من أن ينطق من الهاء في أقصى الحنك نراه ينطق من نقاط متقدمة تمتد فيها بين الهاء وبين الحنك اللين (وهو مخرج صوت الكاف) . فالمدعيون والأطباء والهامون والمدرسون وغيرهم لا ينطقون صوت القاف بمثل « الخلفية » التي ينطقها بها

(١) انظر ص ١٩١ - ١٩٢ من هذا الكتاب . ويرجع وجود هذا القدر أساساً إلى التأثير بالقرآن وبالوعظ الديني ، كما يرجع جانب منه إلى النهضة الاجتماعية الأخيرة وما صاحبها من نهضة لغوية موازية لها .

(٢) تحليل القارئ على المناقشة التي يقدمها الدكتور كمال بشر لتفسير الخلاف الموجود بين الواقع المعاصر لصوت القاف وبين صورته المثالية التي رسمها لنا القدماء ، وذلك في الصفحات من ١٣٨ - ١٤٢ من كتابه علم اللغة العام ، القسم الثاني : الأصوات ، دار المطرف ، ١٩٧٠ .

فإذا ما أردنا أن نبين نسبة توزيع صفات الفصحي على المستويات المختلفة - مبتدئين من أعلى إلى أسفل - وجدنا أنها تنتجه انجماً تنازلياً مبتدئة « بفصحي التراث » حيث توجد أكبر كمية منها ثم تقل تدريجياً في « فصحي العصر » ثم تقل أكثر في « عامية المثقفين » ثم أكثر في « عامية المتورين » وإلى أن تكاد تختفي في « عامية الأميين » - نقول « تكاد تختفي » ولا نقول « تختفي تماماً » نظراً إلى

(١) انظر ص ١٠ - ١١ من هذا الكتاب .

قراء القرآن . بل إن بعض الناطقين - وخاصة النساء - يكادون يخلطون بينها وبين صوت الكاف (١) . ولا يمكن القول بأن هذا تغيير لا يستحق الذكر لأنه صفة تميز طبقة المتكلم ونوع ثقافته . فالو أن طبيياً مثلاً نطق صوت القاف كما ينطقه عالم الأزهر لكان ذلك موضع دهشة من السمعين . (لأنه استخدم صفة صوتية لا تتفق مع صفات المستوى الذى ينتظر منه أن يتحدث به) . أما إذا كان الناطق طبيياً - لا طبيياً - فلن يمر الحادث دون إطلاق بعض التكمهات عن الطب الشرعى . . . الخ . وإثارة الدهشة أو التفكه من العلامات القاطعة على حدوث الخطأ اللغوى من المتكلم . وهو هنا الكلام بمسوى لا يتفق مع الظروف اللغوى حتى ولو كان أعلى فى «الصحة» اللغوية من المستوى المناسب للظرف القائم .

المستوى الثالث : فإذا ما هبطنا إلى المستوى الثالث - أى إلى «عامية المثقفين» - وجدنا أن تغيراً آخر قد حل بهذا الصوت . فنصف أصوات القاف تقريباً ينطق فى هذا المستوى همزة بينما ينطق الباقى بصوت القاف الخاصة بالمستوى الثانى . ويمكن أن نستمع إلى مناقشة فى التليفزيون أو بين اثنين من المثقفين فى موضوع عام لتقابل تعبيرات مثل «تقليد جديد» ، «النقد الأدبى» ، «قمة الأداء» . . . الخ . كذلك تقابل أيضاً «الفرد واحد» ، «من مأس مختلف» ، «أهل ما يستلم عمله» الخ . والظاهرة الواضحة فى هذا المستوى من العامية والتي تميزه عن غيره من العاميات هى انتشار أصوات القاف فيه بصورة ملحوظة (٢) . ولعل هذا هو منشأ التعبير الشائع «بيتكلم بالآف» صفة لمن يتعالمون بثقافتهم على من حولهم عندما

(١) ذكر أمانى الأستاذ أنيس منصور أن (الآفة) الكبرى التى لاحظها عندما اشترك فى بلان اختيار الأصوات الجديدة للإذاعة كانت عدم قدرة الغالبية العظمى من المتأهلين على النطق بصوت القاف بطريقة مقبولة . كما ذكر أنه هو وزملاءه أعضاء اللجنة كانوا يحكمون فى الحال برسوب الذين ينطقون القاف مختلطة بصوت الكاف .

(٢) تخم الأستاذ مشتل وصفه لصوت القاف فى العامية المصرية بقوله أنه لو كان علينا أن نختار صفة واحدة لتميز بها حديث المثقف عن غيره لما اخترنا فى الغالب سوى «القدرة على استخدام صوت القاف فى المواضع الصحيحة من الكلام» انظر

يتحدثون فى الشئون العامة ويدعون العلم بيوطن الأمور (١) .

أما فى عامية المتورين : فإن صوت القاف يكاد يخفى منها ، بينما يتغلب صوت الهمزة بصورة ملحوظة . والواقع أن ما يوجد فى هذا المستوى من أمثلة صوت القاف بصفة أصلية لا يخرج عن عدد محصور من الكلمات التى تتصل بأموال الدين والحضارة الحديثة مثل القرية ، القرآن ، القاهرة ، كتاب القراءة ، القنابل . وقد دخل فى هذه المستوى كلمات حضارية جديدة بصوت القاف مثل «على مستوى القاعة» .

عامية الأميين : يكاد يقتصر ظهور القاف فى هذا المستوى على كلمة واحدة هى القرآن . بينما يستعاض عن كلمة «القرية» ، «بالفلاحين» ، «وعن القاهرة» ، «بمصر» ، «وعن القراءة» ، «بالإرايه» ، «وعن القنابل» ، «بالأنابل» . . . وهكذا .

هذه الصورة التى رسمناها هنا للتدهور التنازلى الذى لحق بصوت القاف الفصحى ينسجم مع مغزى الشكل التخطيطى رقم (١) كما يمثل الواقع اللغوى فى الوقت نفسه : ومن الممكن تطبيق الطريقة عينها على غير صوت القاف من أصوات الفصحى التى أصابها التغير فى اللهجات الحديثة على ما سنذكره فيما بعد . ولكن نبين مدى شمول صورة التطور الهرمى المقلوب التى رسمناها لتوزيع صفات الفصحى على المستويات الخمس سنأخذ مثلاً آخر من تلك الصفات ويكون هذه المرة من ميدان القواعد : فنحن نعلم أن من خصائص الفصحى استخدامها نوعين من الجمل : الجمل الفعلية والجمل الاسمية ، ولكن ليس بنفس النسبة . فالفصحى القديمة تميل نحو استخدام الجملة الفعلية أصلاً وتكاد تقصر استخدامها للجملة الاسمية عادة على أغراض خاصة مثل الاهتمام أو التخصيص . . . الخ . وقد وردت أمثال هذه الملاحظات فى أقوال الأقدمين وخاصة علماء المعانى منهم . فالأصل فى جملة فصحى التراث إذن أن تكون من البناء الفعلى أى (فعل + اسم = جاء محمد) .

أما في العامية المصرية فالأمر على العكس ، إذ الأصل في جملتها أن تكون من البناء الاسمي أي (اسم + فعل = محمد ج) .

ولذلك إذا ما تتبعنا توزيع الجملة الفعلية في المستويات الخمسة فسنجد أن صورة التوزيع العامة لا تخرج من حدود الرسم التخطيطي رقم (٢) .

في فصحي التراث : يتحقق أكبر قدر ممكن من صفات الفصحي : تأخذ الجملة الفعلية مكان الصدارة في الاستخدام اللغوي بينما تأتي الجملة الاسمية في المقام الثاني .

أما فصحي العصر : فيقل نصيبها من هذا النوع من صفات الفصحي عن نصيب المستوى السابق فتعكس الآية فيها . فالجملة الاسمية هي الأثيرة في الاستخدام لدى كتاب العصر وخاصة القصاصين وكتاب المسرح والصحفيين . ويكفي أن يلتقط المرء أية جريدة يرى مصداق هذا . حقيقة أن لغة الصحافة تفوق غيرها في هذا السبيل (باستثناء كتاب « تيار الوعي » من القصاصين) . ولكن الصفة العامة اليوم هي إظهار الجملة الاسمية في الكتابة ، وإن كانت الجملة الفعلية لازالت تستخدم بكثرة . وقد يكون من الممكن تصنيف الكتاب المعاصرين تصنيفاً داخلياً بحسب قربهم أو بعدهم عن لغة التراث على أساس نسبة شروع الجملة الفعلية الاسمية في كتاباتهم . وهذه أمثلة من الخبير الصحفي وردت في جريدة الأهرام (أخبار الصباح لكمال الملاخ) واختيرت بطريقة عفوية من عدد اليوم .

— المعرض السادس لفنان مصر الراحل رائد الفن الديريالى في مصر عبد الهادي الجزار يفتحه وكيل وزارة الثقافة .

— أكبر معمرى الأردن الحاج على شيلش (١٢٠ سنة) مات أمس في قرية أبو عبيدة ، شمال الأردن .

— عميد كلية اللغة العربية د . إبراهيم نجما أصدر د . عبد العزيز كامل قراراً بتجديده عمادته .

على أن الأخبار لم تكتب كلها في صيغة الجملة الاسمية ، بل ورد بعضها في صيغة الجملة الفعلية وإن كانت نسبة شيوخ الأخيرة إلى الأولى في هذا العدد بالذات لم تزد على ٤ إلى ٨ ومثالها :

— أصدرت الجامعة العربية كتاباً بالإنجليزية (٢٥٠ ص) عنوانه « معالم السياحة في العالم العربي » .

وفي عامية المثقفين : نقل نصيبها عن نصيب مستوى فصحي العصر . فتكاد الجملة الفعلية تختفي من الاستعمال ولا يبقى من آثارها التي تستخدم بانتظام سوى بعض الحالات المعلومة ومن أهمها الجمل التي تبدأ بالأفعال المبينة للمجهول (في الواقع من الصفات التي تميز هذا المستوى عن المستويين الرابع والخامس استخدام الجملة الفعلية ذات الفعل المبني للمجهول بكثرة) . ومثالها من الأحاديث المسجلة من الإذاعة .

— يقال إن الشبان في السن دى بيميلوا للانطواء والعزلة .

— بيؤخر علينا أن ما عندناش روح المغامرة . .

— وتترك على نار هادئة حتى تنضج . .

وفي عامية المتورنين : يقل ظهور الجملة الفعلية فيها كثيراً عن ظهورها في عامية المثقفين . ويكاد يقتصر ظهورها هنا على الحالات التي تكون جواباً عن سؤال يلعب فيه الفعل دوراً هاماً مثل — مين شافك هناك ؟ — شافني ناس كبير !

وفي عامية الأميين : يكاد يقتصر ظهور الجملة الفعلية في هذا المستوى على التعبيرات الشائعة والجمل المحفوظة مثل « يسمع منك ربنا » و « جاله الداء الخاف » . . الخ ومع ذلك فقد تظهر أيضاً بعض حالات قليلة من جمل الإجابة على الأسئلة ذات الصيغة الفعلية ، كما مر في المستوى السابق .

هذه هي الصورة العامة لطريقة توزيع صفات الفصحي على المستويات الخمس وعلاقة ذلك بالشكل التخطيطي رقم (٢) . فلذا قلنا إن « الجملة الفعلية » هي من

صفات فصحي التراث أى تكرر فيها فإن ذلك يمثل قاعدة المثلث المقلوب (أى الجزء العريض فيه) وكلما بعدت عن تلك القاعدة كلما قلت نسبتها نهبى فى مستوى (٢) أقل منها فى مستوى (١) وفى مستوى (٣) أقل منها فى مستوى (٢) وفى مستوى (٤) أقل منها فى مستوى (٣) وهكذا إلى درجة تكاد تختفى معها فى مستوى (٥) وهذه الصورة المتدرجة فى القاعة تشبه تدرج مساحة المثلث المقلوب فى الصغر فى نزولنا من قاعدته إلى قمته .

أما إذا أردنا أن نبين نسبة توزيع صفات العامية على المستويات الخمس فسنبين علينا أن نسير فى اتجاه عكسى مبتدئين « بعامية الأبين » حيث يتماثل أعلى نسبة من صفات العامية ثم نأخذ فى الصعود حيث تقل العامية تدريجياً مارين « بعامية المتنورين » و « بعامية المثقفين » . و « فصحي العصر » إلى أن نصل إلى أعلى مستوى وهو « فصحي التراث » حيث تكاد تتلاشى صفات العامية . و مرة أخرى نقول « تكاد تتلاشى » ولا نقول « تتلاشى تماماً » نظراً إلى أن فى « فصحي التراث » كما تستخدم الآن فى مصر (بل وفى بقية البلاد العربية) آثاراً من صفات العامية سيأتى بيانها فى الموضع المناسب (١) و يبين الشكل رقم (٣) كيفية توزيع صفات العامية على المستويات الخمس ونسبتها فى كل مستوى بطريقة تخطيطية .



شكل (٣)

شكل (٤)

شكل فرضى يبين نسبة صفات الفصحى إلى صفات العامية فى كل مستوى

شكل فرضى يبين نسبة صفات العامية فى كل مستوى

(١) انظر ص ١١٩ من هذا الكتاب .

ولكى نبين طريقة توزيع صفات العامية على المستويات الخمس وعلاقة ذلك بالشكل التخطيطى رقم (٣) فسنأخذ مثالا من الواقع اللغوى لهذه الصفات . ولكى نبرز كيفية عمل النظام الواحد - الذى سلكنا فيه كل الصفات اللغوية للمستويات الخمس - فيمكن لنا أن نتناول الوجه الآخر من الأمثلة ذاتها التى استخدمناها لبيان صفات الفصحى ونستخدمها فى بيان توزيع صفات العامية . ونعنى بذلك « صوت القاف » و « بنية الجملة » ولكن من وجهة نظر العامية هذه المرة .

والصفة التى نريد تتبعها هنا - وهى من صفات العامية - هى ظاهرة حلول الهزرة محل القاف فى مثل آل = قال ، ساء = ساق ... الخ .

فى عامية الأبين : يتمثل هذا الحلول بصورة كاملة ، ولا يوجد فى هذا المستوى من أصوات القاف سوى مثال أو اثنين (كالقرآن . مما يمكن أن يعد من قبيل القرص من فصحي التراث بتأثير عامل الدين) بينما تستخدم الهزرة بدلا عنها بصورة منتظمة تنفق فى حجمها مع حجم قاعدة المثلث التى تمثلها .

وفى عامية المتنورين : يخف أثر هذه الظاهرة قليلا فيظهر عدد من أمثلة القاف ، ولكنها على كثرتها النسبية لا تزال فى حكم الحالات الممدودة دون أن تصح القاف ذات قاعدة مطردة أو يكون لها شيوع يعتد به .

أما فى عامية المثقفين : فالأمر يختلف إذ تبدأ ظاهرة حلول الهزرة محل القاف فى الاضمحلال الحقيقى . وعلى الرغم من أن ظهور القاف ذاتها فى هذا المستوى لا يدخل بعد فى حكم القاعدة المطردة إلا أنه من الشيع والكثرة بحيث تبلغ حالات ظهوره عدداً مساوياً لحالات ظهور الهزرة تقريباً .

وفى فصحي العصر : يبدأ انهيار الظاهرة العامية ، إذ يختفى فى هذا المستوى صوت الهزرة البديل وتتأثر القاف بالميدان كله . ولكنها قاف من نوع خاص قد تأثرت بظاهرة عامية شائعة وهى ميل الأصوات الخلفية (كالقاف والغين والحاء والعين) إلى الانتقال إلى مخرج متقدم نحو مقدمه الحنك .

أما في فصحي التراث : فإن الظاهرة العامية تنهار ولا يبقى منها إلا أثر ضئيل ومشكوك في حقيقته هو فقدان صوت القاف اصفة الجهر التي كانت لها في السابق .

كذلك من الممكن تتبع تأثير بنية الجملة العامية على المستويات المختلفة ، وذلك بانواع طريقة عكسية لما اتبعناه في بيان تأثير بنية الجملة في الفصحي ، وإن كان ذلك غير ضروري بعد ما قدمناه من أمثلة .

على أن شكل (٢) وشكل (٣) وما يمثله إذا أخذ كل منهما على حدة يعتبران تشويهاً للواقع . فصنفت الفصحي وصفات العامية توجد مختلطة معاً في كل مستوى وينسب متفاوتة تختلف من الواحد إلى الآخر . وتحديد هذه النسب من المعالم التي تعطى لكل مستوى شخصيته ووظيفته الخاصة به . لذلك كان علينا - لكي نقرب من الواقع قليلاً - أن ندمج شكل (٢) و (٣) في شكل مركب واحد هو رقم (٤) . فباستخدام هذا الشكل نستطيع أن نبين مقدار ما في كل مستوى من تأثير صفات الفصحي وتأثير صفات العامية ، مما يساعدنا على تفسير كثير من ظواهر الواقع اللغوي كما يوجد في المجتمع المعاصر . ففي وسط الشكل^(١) توجد منطقتان عامية المثقفين ، وفيها يتساوى نصيبها من صفات الفصحي وصفات العامية تماماً . فإذا ما صعدنا نحو المستوى الأول . تتناقص صفات العامية وتزيد صفات الفصحي بنفس النسبة . ويحدث العكس إذا ما هبطنا نحو المستوى الخامس .

ومع ذلك فشكل (٤) وإن كان يعتبر أقرب إلى الواقع من شكل (٢) و (٣) على افتراضها فإنه لا يمثل الواقع تمام التمثيل . ذلك أن صفات الفصحي وصفات العامية لا توجد فقط مختلطة في كل مستوى ، بل تتفاعل معاً بصورة يمسر معها تخليص ما للعامية وما للفصحي في كثير من الظواهر . بل إنه لمن الخطأ العلمي أن يفصل الباحث فصلاً حاداً داخل المستوى الواحد بين صفات ينسبها إلى الفصحي

(١) يوجد في شكل (٤) عيب طبيعي هو أن المساحة التي تمثل كلا من المستويات الخامس غير متساوية كما كان ينبغي . والعمل في الشكل على نسبة الجهر المخصص للعامية إلى الجزء المخصص للفصحي في كل قسم لا مساحة القسم كله بالنسبة إلى غيره من الأقسام . ومع ذلك فهذا العيب ينجح تماماً في شكل رقم (٥) .

وصفات ينسبها إلى العامية . فصنفت المستوى الواحد تشكل وحدة متكاملة - بصرف النظر عن أصلها التاريخي - وهي بهذا المعنى لا ينبغي أن تنسب إلى أي شيء آخر سوى المستوى الذي توجد فيه . ودليلنا على ذلك نستقيه في هذه المرحلة من بحثنا هنا من شعور المتكلم . فالمثقف الذي يشرح موضوعاً علمياً أو يناقش زميلاً له في محاضرة سماها أو مشكلة اجتماعية ويستخدم في كل ذلك ، المستوى اللغوي الذي أطلقنا عليه اسم « عامية المثقفين » - هذا المثقف لا يخطر بباله مطلقاً أنه يستقي في حديثه صفات من العامية وصفات من الفصحي ويخلط بينهما . بل نراه يمضي في كلامه دون أن يشغل نفسه بالتركيب اللغوي في حد ذاته بقدر ما يشغل بالفكرة التي يعالجها وكيفية نقلها إلى سامعيه والدفاع عنها . وشعور المتكلم بأنه لا يتكلم لغة فيها « ترقيع » - أو بعبارة أدق عدم شعوره بأن في لفته « ترقيعاً » - هو بعينه ما نبر عنه هنا ، « بالوحدة الداخلية » لكل مستوى .

على أن الباحث اللغوي كثيراً ما يلجأ في بعض مراحل بحثه إلى أشياء قد لا تمثل الواقع تمام التمثيل . يفعل ذلك بصفة مؤقتة من أجل تسهيل عمله التحليل اللغوي ، وهو عالم تمام العلم بمدى « صناعية » الطريقة التي يتبعها . وهدفه من وراء ذلك التجزئ أن يصل في النهاية إلى بيان حدود « الكل » الذي يستكشف جوانبه . وهو هنا مستويات اللغة الخمس التي حددناها في بداية هذا الفصل . وهذا هو أساس استخدامنا هذه الخرائط التخطيطية لصفات العامية والفصحي وتوزيعها في المستويات الخمس .

على أنه بالرغم من كل هذه التحفظات فإننا نستطيع أن نقول إن شكل (٤) يعكس الواقع بطريقة معقولة . فلو ألقينا نظرة في القطاع الذي يمثل المستوى الثالث فيه فسنجد أنه نظراً لمركزه المتوسط بين المستويات الأربعة الأخرى يتساوى فيه تأثير صفات الفصحي وتأثير صفات العامية بشكل يدعو إلى الحيرة مما يجعل من الصعب على المرء أن يكشف حدود الوحدة الداخلية التي لا بد وأن يكون قائماً عليها والتي لا بد وأن تتوافر لكل مستوى لغوي متكامل - على ما سبق بيانه .

هذه الصورة القلقة التي يرسمها شكل (٤) للمستوى الثالث هي في الواقع انعكاس للوضع القلق الذي لهذا المستوى في واقع الاستعمال ، باعتباره نقطة التقاء التيارين اللغوي والفصحي ، وباعتباره أيضاً الجسر ذا الاتجاهين الذي تعبر عليه الصفات الهابطة من المستويين الأول والثاني في رحلتها نحو المستوى الخامس والذي تعبر عليه الصفات الصاعدة من المستوى الخامس والرابع في رقيها نحو المستوى الأول .

هذا الوضع نفسه هو الذي هيأ لتفويق الحكيم أن يصف اللغة الثالثة (هي ما يقابل المستوى الثالث هنا) بأنها هي التي تصاح لأن تكون فصحي إذا نطقها حسب قواعد الفصحي وتصلح لأن تكون عامية إذا اعتبرتها كذلك . وهو أيضاً الوضع الذي هيأ للأستاذ عباس خضر أن يحكم عايباً حكماً مشابهاً ولكن من وجهة نظر متشائمة حين قال عنها «إنها لغة خاصة لا هي عربية سليمة ولا هي عامية خالصة . . لغة شاذة شوهاء : لغة غثى .» (١)

على أن هناك جانباً من المادة اللغوية في مصر المعاصرة لم نتناوله في التخطيط الذي رسمناه إلى الآن : فالشكل التخطيطي الذي قدمناه فيما سبق يقوم على أساس وضع صفات الفصحي الخالصة في جانب ووضع صفات العامية الخالصة في الجانب المقابل ثم خلط هذين النوعين من الصفات النظرية بطريقة تدريجية في الفراغ الموجود بينهما بحيث تكون المادة اللغوية الخاصة بكل منطقتة أو مستوى خليطاً بنسب متفاوتة - وبصورة تدريجية - من صفات الفصحي وصفات العامية . ونتيجة ذلك أن يعكس التخطيط الذي قدمناه في (شكل ٤) التركيب اللغوي للمستويات الخمسة بحيث يبدو الجزء الخاص بمستوى (٢) مثلاً وقد تغلبت فيه صفات الفصحي على صفات العامية والجزء الخاص بمستوى (٤) وقد انعكست فيه النسبة ، بينما تتساوى صفات الفصحي وصفات العامية في المنطقة الوسطى أي في مستوى (٣) وهكذا .

ولكن الواقع اللغوي المصري يزيد على ما رسمته تلك الصورة : فهناك جزء لا يسهان به من المادة اللغوية - سواء في المفردات أو التراكيب - لا يرجع إلى الفصحي أو العامية بقدر ما يرجع إلى مصادر خارجية عنهما هي اللغات الأجنبية التي اتصل بها أبناء العربية بطريقة أو بأخرى .

(١) المرجع السابق .

وتأثر العربية بلغات أجنبية عنها واقتراضها منها ظاهرة ليست وليدة اليوم أو الأمس القريب ، بل هي قديمة قدم تاريخها المعروف . فؤرخو العربية يحدثننا عن وجود كلمات أجنبية اقترضها اللغة فاستقرت فيها على قدم المساواة مع المفردات الأصلية واستخدمها القرآن دون تمييز أو تفریق مثل : سندس واستبرق والصراط ولابريق الخ .

وفي العصر الحديث نرى اللغة بجميع مستوياتها حافلة بعدد هائل من الكلمات الأجنبية مثل : شورت وبرلمان وماونوكير . . . الخ كما نرى فيها تراكيب مقرضة مثل : صولريخ جو - أرض ودبابرة برمائية ومحلات عبد النبي إنخران . . . الخ . وهذا كلاء أمر واضح وسلم به . ولكن الأمر الذي يحتاج إلى إيضاح هو علاقة عملية الاقتراض هذه بالمستويات اللغوية ونسبة المقرض ونوعيته في كل مستوى ومدى اتساق كل هذا في نظام مشترك بين المقرض والأصلي .

والذي نريد أن نقترحه هنا هو أن هذا الطوفان من السخيل اللغوي لا يتسرب اليوم إلى عربيتنا المعاصرة بطريقة عشوائية تخضع للصدف ، ولكنه يتبع نظاماً دقيقاً يتفق في كنهية دخوله مع طبيعة المستويات اللغوية الخمس وخصائصها الاجتماعية والحضارية كما يتفق في الخط الذي يسير عليه وفي مراحل انتقاله من مستوى إلى آخر مع تدرج هذه المستويات وعلاقة كل منها بالآخر . واتوضيح هذه الفكرة نضرب مثلاً بالكلمتين : « الآي لاينر » Fye-liner و « النوهاو » Know-how . فع أن هاتين الكلمتين قد دخلتا المصرية المعاصرة إلا أنهما لم تدخلها من باب واحد : فالأولى دخلتها من باب عامية المتنورين ، بينما دخلتها الثانية من باب عامية المتقفين . والسبب في ذلك واضح ويرجع إلى اتفاق المستوى الحضاري للكلمة الأولى مع المستوى الحضاري لعامية المتنورين واتفاق المستوى الحضاري للكلمة الثانية (وهي ترتبط بعملية التخطيط وحركة التصنيع في البلاد) مع المستوى الحضاري لعامية المتقفين . وعلى هذا نستطيع أن نقول إن حصيلة كل مستوى من السخيل اللغوي تتفق طرداً وعكساً مع مدى قرب أبناء هذا المستوى أو بعضهم من منابع الحضارة والعلم الأجنبيين . فكلما زادت صلة أبناء مستوى بمناخ الحضارة الأجنبية كلما زاد تأثرهم بمقومات تلك الحضارة - مما يستتبع بدوره زيادة اقتراضهم من اللغوة اللغوية المبررة عن تلك المقومات -

والعكس العكس . وليس المقصود بالقرب من منابع الحضارة والعلم الأجنبيين الاتصال المباشر فقط ، بل يكفي في هذا الاتصال غير المباشر أيضاً : فالسيدة التي تستخدم « الآي لاينر » تعتبر متصلة بمنابع الحضارة الأجنبية على الرغم من أنها قد لا تكون على علم بأية لغة أجنبية .

وإذا ما سلمنا بالأسس السابقة ، فإننا نجد - عند فحصنا الدخيل في عربية مصر المعاصرة - أنه موزع على المستويات الخمس المذكورة بصورة تقرب من التخطيط التالي :

١ - فصحي التراث :

نصيب هذا المستوى من الدخيل اللغوي عبارة عن تلك الكلمات التي افترضتها اللغة في عصور ازدهارها ، واعتبرها علماء العربية جزءاً من تراثها فدونه في قواميسها وصححوها باستعماله دون قيد . (مثل الصوبخان - ديوان - زنجبيل - المغناطيس . . إلخ) ونظراً إلى أن هذا المستوى تاريخي ورثاه كما هو عن الأقدمين فإن نصيبه من الدخيل ثابت وغير متجدد وأقل كثيراً جداً من نصيب المستوى الذي يليه .

٢ - فصحي العصر :

للدخيل في هذا المستوى مصدران :

١ - فصحي التراث : فحصوله ذلك المستوى من الكلمات أجنبية الأصل والتي وصفناها فوق هذا الكلام مستخدمة في فصحي العصر بشكل عام .

(ب) اللغات الأوروبية المعاصرة باعتبارها حاملاً للعلم والحضارة الغربية : فنجد عصر محمد علي والعلماء دائبون على ترجمة العلم الغربي إلى اللغة العربية . وهم في نقلهم لأفكار هذا العلم كثيراً ما يخالفهم التوفيق في صياغة كلمات عربية الأصل للتعبير عنها مثل :

المضادات الحيوية = Ant-biotics

النظائر المشعة = Isotopes

الأشعة السينية = X-Ray - ... إلخ

غير أنهم كثيراً ما يعجزون أيضاً عن - أو لا يرون ضرورة إلى - ابتكار اصطلاحات عربية للتعبير عنها . فينقلون المصطلحات الأصلية كما هي ، مثل : الفيروس - الملاريا - الهليكوبتر . . . إلخ . وقد يظهر بعد البحث أن إبقاء المصطلح الأجنبي مرغوب فيه ، ربما لعدم وجود مقابل عربي يفي بمدلوله تمام الوفاء . ولعل هذا هو السبب في ترجمة مجمع اللغة العربية لمصطلح "Phoneme" (في مجموعة مصطلحات علم اللغة والأصوات) بـ : الصوت اللغوي - الفونيم^(١) . فلما كان التعبير عن المصطلح الأصلي « بالصوت اللغوي » من العموم والسمة بحيث لا يكاد يعنى شيئاً محدداً اضطرت اللجنة - على ما يبدو - إلى اعتماد المصطلح الأجنبي كما هو فكنته بحروف عربية مجيزة بذلك استخدامه في الكتابة العربية « النصيحة » . وعلى هذا فن الواضح أن نصيب فصحي العصر من الدخيل ليس فقط أكثر من نصيب فصحي التراث منه بل إنه في ازدياد كل يوم على الرغم من الجهود الذي يبذله مجمع اللغة العربية في وقف هذا التيار . ونحن مثلاً لا نزال نستخدم في الكتابة ألفاظاً مثل : التليفون والأوتوبيس والامتسل والفرملة على الرغم من سك الجمع لها البدائل التالية على التوالي : المسرة والحافلة وورق الشمع أو المهرق والكابحة .

ولا يقف الأمر عند الألفاظ وحدها بل يمتد إلى التعبيرات أيضاً . وتغلغل هذه في اللغة يتم خطوة وبصورة أقل لفتاً للنظر من تغلغل الكلمات . وفي اللغة طاقة لا تكاد تحصى من ابتكارات المترجمين أصبحت جزءاً لا يتجزأ من التراث العربي ، وقد ندهش الآن إذا ما قيل إن الكثير منها كان موضع استنكار علماء العربية في وقت مولده . وخير مثال على ذلك ما جاء في بحث للسيد محمد كرد علي ألقاه في الدورة الثالثة عشرة لجمع اللغة العربية عام ١٩٤٦^(٢) وجمع فيه قدراً كبيراً من التراكيب التي وصفها بأنها « ما أنزل الله بها من سلطان » . ونحن ننقل هنا قدراً

(١) مجلة مجمع اللغة العربية : ج ١٨ ، ص ٢٥٥ .

(٢) نشر البحث في مجلة المجمع : ج ٧ ، ص ٣٠ - ٣٧ تحت عنوان : تطور الألفاظ والتراكيب والمعاني .

كبيراً نوعاً ما من القائمة التي أوردتها لأهمية دلالتها فيها نحن بصدد: «... لا أكتمكم يا سادتي أن معنى لم يتألم قط أكثر من لفظ أو إضافة جاءنا بها المشتغلون بعلم الترجمة، ففسيراً إلى التربة «التربوي». وأتينا بعد ذلك بألفاظ وتراكيب لو حلفنا لأهل عصور زهو العربية بالطلاق واعتناق أنها عربية ما صدقوا ولا آمنوا.

جاءنا متفاصحو المترجمين بتركيب: النزعة الواقعية. القوة الوجدانية. الذاتي. الموضوعي. الإقليمي. الفكرة الأساسية. الطريقة الاعتيادية. السبب المباشر... تغلبت العناصر التقدمية على الرجعية. وطن معنوي مثالي. الوطن المرقوب المرغوب. من حيث الأساس. تفرض نفسها على اتجاهات السياسة... ضرب الرقم القياسي. النزعات السياسية السائدة. عمله على ضوء كذا. رفع رأس أمته عالياً. يحيطونها بهالة من الرهبة. استغل الموقف. جرى على خطته التقليدية. تخلقت جو من المفاوضات تجرى في جو يسوده الود. الوضع الحاضر. الوعي القومي. سر المهنة. فقيداً الواجب. التربة المثالية. المجال الحزبي. المثل الأعلى. الشخصيات البارزة. السوق السوداء. الجهود الجبارة. الحل الحامض. حقل الأدب والعلم. الروح الوثابة. أترن الحرب. الرغبة الملحة. جملة داوية صارخة. وأخيراً تم الشيء الفلاني بحسب الخطة المرسومة. رجل الساعة. الأهداف القوية. حركة خاطفة. الروح المعنوية المتوثبة. في ظل النظام. ظهر على مسرح السياسة. يضحى على مذبح أغراضه. طاب يد فلانة. ذر الرماد في العيون. يشق طريقه إلى الحياة. فشلت المناورة. انفرجت شفتاه عن عدة إبتسامات كان لها أثر طيب في تلطيف جو الاحتفال... ويضيف السيد كرد على بعد ذلك قائلاً: «ألا تصابون بالبرداء وقاكم الله شرهما، إذا سمعتم مترجماً يقول: هذا الشعور ليس سائياً بل إيجابياً. وتربية فلان الإيجابية العالية. المركز الاستثنائي... إلخ».

ولاشك أنه من الصعب على المرء اليوم أن يشارك مستمعي عام ١٩٤٦ من أعضاء مجمع اللغة العربية استنكارهم لهذه الألفاظ. بل من الصعب علينا اليوم أن نتصور إمكانية التعبير عن الأغراض المعاصرة بدون هذه الألفاظ.

والفارق الأساس بين مستوى فصحي التراث وفصحي العصر في موضوع الاقتراض أن الباب

لا يزال مفتوحاً أمام الأخيرة للاستزادة من معين اللغات الأجنبية. والسبب في ذلك واضح، فالمجتمع العربي المعاصر لا يزال يستورد مظاهر الحضارة ومبتكرات العلم من المجتمعات الغربية، وكثيراً ما يقترض مع كل منها المصطلح الأجنبي الذي أطلق عليه في مهده الأصل.

على أن هذا الاقتراض - كما نعلم جميعاً - لا يتم دون رقيب أو حسيب. فالمؤسسات الرسمية الموجودة في الدول العربية (مثل مجمع اللغة العربية بمصر، والمجمع العلمي بدمشق، ولجنة التعريب بالمغرب... وغيرها) تناهض الاقتراض الحرف من اللغات الأجنبية خوفاً على اللغة من أن تفقد شخصيتها الخاصة في طوفان الدخيل. بل إن الأمر لا يقتصر على المؤسسات الرسمية فهناك ما يمكن أن يسمى: «رأى عام لغوي» في العالم العربي يناهض مبدأ الاقتراض اللغوي في الفصحى. وقد نتج عن كل ذلك وجود نوع من المقاومة لتيار الدخيل أخضعه للرقابة وخلق نوعاً من التوازن بين عوامل الاقتراض وعوامل الحماية اللغوية.

٣ - عامة المثقفين :

يتوفر لهذا المستوى من الظروف ما يجعله أوسع الأبواب قبولاً للدخيل اللغوي. ونستطيع أن نوجز هذه الأسباب في أن ظروف هذا المستوى من حيث اتساع أفق أصحابه الثقافي وصلتهم بمنايع الدخيل هي عينها ظروف مستوى فصحي العصر مع فارق واحد هو عدم وجود الرقابة اللغوية في حالة مستوى عامة المثقفين.

فالمثقلون بعامة المثقفين هم صفوة النتاج العلمي والحضاري والثقافي للمجتمع المصري. وغالبيتهم على معرفة بلغة أجنبية واحدة على الأقل، وبعضهم قد تلقوا تعليمهم وتخصصاتهم في الخارج وبينهم وبين منابع العلم والثقافة الأجنبية صلة مباشرة. فهم بهذا الوصف يعتبرون سابقين لمجتمعهم في نواحي الثقافة والعلم والتفنن والحضارة الحديثة، كما يضع على عاتقهم مهمة التبشير بهذه الألوان الغربية على مجتمعهم. وفي محاولاتهم للقيام بتلك المهمة يصطدمون بعقبة افتقار اللغة إلى المصطلحات والعبارات الجاهزة التي يمكنهم أن يستخدموها في التعبير عن مظاهر تلك الحضارات (وهذا أمر طبيعي، فمن غير المعقول لغوياً أن يوجد في لغة عبارات وأسماء تنطبق

على أفكار ومسميات لم تدر بخلد أبناء هذه اللغة ولم تتصل بحياتهم) ولذلك فمن الطبيعي أن يلجأوا إلى شرح الأفكار الغربية مع ذكر المصطلحات الأجنبية التي تعبر عنها. ولما كان هذا المستوى عامياً من ناحية وشافهايا من ناحية أخرى فإن أصحابه لا يتعرضون في اختيارهم اللغوي للقيود التي يتعرض لها من يتناول الموضوعات ذاتها في مستوى فصحي العصر. ولا حاجة بنا إلى التأكيد على أن المقف الذي يكتب يتخضع لشروط قاسية لا يتخضع لها هو ذاته عند ما يشرح شافهاياً ما يكتبه.

هذا هو الفارق الأساسي بين فصحي العصر وعامية المثقفين في مرفقهما من الألفاظ الأجنبية: القيد بالنسبة للأولى والحرية النسبية بالنسبة للثانية. وخير مثال على ذلك ما نراه في ميدان الحياة الجامعية في مصر: فؤفؤ الكتب الجامعية يذلون مجهوداً كبيراً لتنتية ما يكتبون من الدخيل، وإذا ذكروا مصطلحاً أجنبياً فإنهم يقدمونه بمحروف لاتينية تبقيه حيث هو خارج حدود اللغة العربية. أما في قاعة المحاضرات فإن الكثيرين منهم لا يتخرجون من تطعيم لغتهم بكلمات ومصاحات أجنبية حتى في الحالات التي لا تقتض فيها اللغة العربية إلى وجود المقابل العربي الصحيح. وقد سجلت لأحد علمائنا في حديث شخصي معه الكلمات الآتية في حرالي الدقيقتين: «إكسوجين» / «المائياتكس» بناع الحكاية دي / من غير «رطلط» ، وذلك على الرغم من وجود المقابلات العربية: «مادلة» / والحبة بناعة الحكاية دي / ومن غير نتيجة — على التوالي. حقيقة يلزم بعض المتكلمين أنفسهم بعدم تطعيم لغتهم بكلمات أجنبية حتى في المحادثات الشفاهية ولكن هؤلاء أقل بكثير ممن يلتزمون بالفصح في كتاباتهم.

٤ - عامية المتورين :

على الرغم من عدم وجود القيد اللغوي التي تمنع أبناء هذا المستوى من استخدام الألفاظ الأجنبية في محادثاتهم فإن نصب عامية المتورين من الدخيل أقل بكثير من نصب المستوى السابق. والسبب في ذلك هو ضيق المحيط الثقافي الذي تدور فيه لغة هذا المستوى بالمقارنة مع المحيط الثقافي لعامة المثقفين. فالألفاظ المستخدمة هنا تكاد تقتصر على التواصي الحضارية التي تتعلق بالكباب وأدوات التجميل والأثاث والأدوات المنزلية ووسائل السفر... إلخ (مثل المانوكير والبادوكير والبانكيك والحوب

والأباجورة والباروكه... إلخ) ويمثل هذا النوع الألفاظ التي وصلت إلى المجتمع المصري وسدت حاجة من حاجات طبقة معينة فيه فاستقرت بينهم وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من حياتهم. وعدم انتشار هذه الألفاظ بين بقية طبقات المجتمع يرجع بصفة أساسية إلى مستوى المعيشة الخاص الذي تمثله. وقد تنجح بعض هذه الألفاظ في الانتشار وتتخطى حدود طبقها الضيقة فتصبح ملكاً لكل الطبقات وبالتالي لكل المستويات اللغوية على السواء مثل كلمة «بودرة» و«سكر البودرة»... إلخ.

٥ - عامية الأميين :

يقف جهل أبناء هذا المستوى باللغات الأجنبية وانخفاض مستواهم المعيشي حائلاً بينهم وبين الاتصال المباشر بالحضارة الأجنبية وما يمثلها في المجتمع المصري المتنور. ولذلك يقتصر نصيب هذا المستوى من الألفاظ الأجنبية على تلك التي استقرت في المجتمع المصري وعاشت فيه وأصبحت جزءاً أصيلاً في كيانه مما أخضع معظمها للنظام الصرفي للغة العربية فجزت عليه قوازيها في الاشتقاق والتصريف وغيرها. ونحن نرى هذه الألفاظ اليوم تعبر عن ألوان من النشاط الأساسي في المجتمع المصري بطريقة تضمنها على قدم المساواة مع الألفاظ المصرية الأصيلة بقطع النظر عن أصلها التاريخي. وأوضح مثال على هذا النوع الألفاظ المتصلة بلعبة كرة القدم، تلك التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من كيان المجتمع المصري: فهناك «الستر» ومشتقاته «يستر» و«سترو» وهناك «باص» و«بياصي» و«باصي» و«باصي» وهناك «شوته» و«شات» و«يشوت»... إلخ. وبالإضافة إلى لعبة الكرة فهناك مجموعات أخرى من الكلمات مثل: «جراش» و«تجريش» و«يجرش» و«أسفلت» و«يسفلت»... إلخ. وقد اشتق حديثاً أفعال من أسماء أجنبية سبق إقراضها مما يؤذن بتأصيلها أو بإعطائها حتى الإقامة مثل: «ينلغن» من «التلفون» و«يكسل» بمعنى يلغى وإن كانت هاتان الكلمتان لم تستقرا بعد في عامية الأميين.

ومكنا نرى أن هناك عاملين يتحكمان في مقدار تسرب الدخيل اللغوي ونوعه إلى المجتمع المصري بجميع مستوياته. وهما:

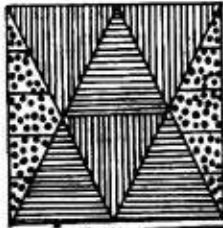
١ - وجود الصلة الثقافية أو عدم وجودها.

المجتمع . أى أنها فى الواقع نوعية من الألفاظ تشبه فى استقرارها نصيب فصحي التراث من الدخيل مع فارق واحد هو أن مجموعة فصحي التراث تاريخية وأن مجموعة عامة المتنورين بمجموعة تاريخية ومعاصرة فى الوقت ذاته .

وهكذا نستطيع القول بأن كل مستوى من المستويات اللغوية الخمس الموجودة فى مجتمعنا المعاصر يتركب من مجموعة من الصفات والخصائص اللغوية تستمد أصولها من مصادر ثلاثة :

- ١ - خصائص الفصحى التاريخية .
- ٢ - خصائص العامية التجريدية .
- ٣ - خصائص من لغات أجنبية .

ويستمد كل مستوى شخصيته ومقوماته من نسبة كل نوع من هذه الخصائص فيه وبممكننا أن نصور ذلك بتفانيم شكل تخطيطى خالص يأخذ فى الاعتبار كل هذه المصادر ، ويمكن أن يعتبر لهذا تطوراً للشكل رقم (٤) السابق بإضافة



المستوى الأول
المستوى الثاني
المستوى الثالث
المستوى الرابع
المستوى الخامس

شكل رقم (٥)

شكل فرضى يبين تخطيطاً لنسبة نصيب كل من المستويات اللغوية من صفات الفصحى وصفات العامية والصفات المترفة من اللغات الأجنبية

٢ - وجود القيد اللغوية على استخدام الدخيل أو عدم وجودها .
وتوقف نسبة الدخيل فى كل من المستويات الخمس على درجة نشاط كل من هذين العاملين فى كل مستوى :

فى المستوى الثالث : (أى عامة المتفانين) توجد الصلة الثقافية المباشرة بين أصحابه وبين الثقافات الأجنبية كأقوى ما تكون ، فى الوقت الذى تخفى فيه القيد اللغوية تقريباً على استخدام الدخيل . ولذلك توجد فى هذا المستوى أعلى نسبة من الألفاظ الأجنبية .

أما فى المستويين الثانى والرابع : فتكاد نسبة الدخيل فى كل منهما تكون متعادلة ويرجع ذلك إلى تعادل كفتها من تأثير العاملين السابقين (وإن كان هذا بصورة عكسية) كالاتى : فى المستوى الثانى (أى فصحي العصر) يشد تأثير العاملين معاً ، فتوجد الصلة الثقافية فى نفس قوة وجودها فى المستوى الثالث ولكن يعارضها ويققل من تأثيرها وجود قيود لغوية قوية تحد من حرية الافتراض من الألفاظ الأجنبية . بينما نجد الأمر على العكس فى المستوى الرابع : إذا يضعف فيه تأثير العاملين معاً فلا توجد فيه قيود لغوية على استخدام الدخيل فى الوقت الذى تضعف فيه الصلات الثقافية بين أصحاب المستوى وبين منابع الثقافة الأجنبية إلى درجة من الضحية نجد معها فى النهاية أن حصيلة هذا المستوى من الألفاظ الدخيلة تكاد تعادل نصيب المستوى الثانى منها .

وفى المستوى الأول : (أى فصحي التراث) وهو مستوى تاريخى موروث لا يتغير بالزيادة أو النقصان ، نجد أن هذين العاملين قد انتهت فاعليتهما . ولذلك فنصيبه من الدخيل ثابت مقرر ، فى الوقت الذى تزداد فيه حصيلة المستويات الأخرى بما يضاف إليها من ألفاظ جديدة مقترضة . ولذلك نستطيع القول بأن نصيب هذا المستوى من الدخيل أقل من نصيب كل من المستويات السابقة .

وفى المستوى الخامس : (أى عامة الأميين) لا توجد الصلة الثقافية المباشرة بين أبناء هذا المستوى وبين الحضارات الأجنبية على وجه الإطلاق ، ولذلك فعمل الرضم من عدم وجود القيد اللغوية على استخدام الدخيل فإن نصيب هذا المستوى منه يكاد يقتصر على ما يترسب فيه من الألفاظ التى استقرت وتقدم عليها العهد فى

المتطنتين الجانبيتين لتمثلا نسبة الخصائص المستمدة من اللغات الأجنبية في كل مستوى :
وهكذا نستطيع القول بأن شكل (٥) يلخص الخطوط العريضة للأسس التي
يقوم عليها الفروق والعلاقات اللغوية للمستويات الخمس . ونحن في استعراضنا
للصفات اللغوية هنا نستطيع أن نأخذ صفة منها على حدة (مثل البناء مثلا)
نستعرض صورتها والتعبيرات التي دخلت عليها في كل مستوى من المستويات الخمس
ثم نعود ونأخذ صفة أخرى وهكذا إلى أن ننهي من الصفات التي نريد مناقشتها .
ولكننا لو اتبعنا تلك الطريقة فسوف نكون كمن يهتم بالصفات اللغوية في حد ذاتها
لا بالمستويات نفسها .

ولذلك فقد قامت الطريقة التي اتبعناها فعلا على ذكر صفات - أو ما يهونا
ذكره من صفات - كل مستوى على حدة ، مما يكفل لنا رسم صورة متكاملة
لكل مستوى . على أننا سراعى عند ذكرنا لصفات كل مستوى أن نرتبها بطريقة
تكفل للقارئ - إذا ما أراد - أن يتبع صفة معينة كما وردت فيها جميعاً مستعيناً
بالشكل التخطيطي رقم (٥) .

أسس اختيار الصفات اللغوية لإجراء المقارنة :

كلمة أخيرة لا بد منها قبل أن نبدأ في استعراض صفات المستويات الخمس
وهي أنه ليس الهدف هنا استعراض كل الصفات اللغوية لكل مستوى فذلك عمل
لا يمكن الإحاطة به في كتاب واحد (يمكن أن نتذكر أن فصحي التراث وحدها
قد وردت صفاتها في مجلدات عدة من النحو والصرف والقراءات والقواميس) . ولكن
هدفنا هو أن نأخذ عينات من الصفات اللغوية نستطيع عن طريق استعراضها أن نرسم
الخطوط العريضة لكل مستوى وأن نميزها بصفات محددة تفرق كلاً منها عن الآخر .

وتحقيقاً لهذا الغرض العام فسنتخار من خصم الصفات اللغوية للمستويات الخمس
ما يتوافر فيه الشروط الآتية :

- ١ - أن يكون ذا طبيعة واضحة ما أمكن حتى لا يقتصر استخدامه على
المتخصصين في الدراسات اللغوية أو من لهم اهتمام بهذه الجوانب وحدهم .
- ٢ - أن يكون عاما تمتد آثاره في المستويات الخمس ما أمكن حتى يمكن لنا
أن نسلط المستويات الخمس معاً في إطار واحد هو شكل (٥) .

٣ - أن يكون في هذه الصفات - أو بعبارة أخرى في صور ظهورها في كل من
المستويات الخمس - من التقابل أو من الفروق ما يكفل رسم الصورة المتميزة لكل
مستوى على حدة .

ونحن نحيل القارئ على المثالين الذين قدمناهما عند شرح المقصود بشكل (٢) :
كتمودج لما تحققت فيه الشروط الثلاثة المذكورة هنا .

• • •

أما الصفات الخاصة بكل من المستويات الخمس على حدة فبيناها كالتالي :

١ - الصفات اللغوية التي تميز « فصحي التراث » :

تختلف « فصحي التراث » - وهي ، من ناحية المنزلة الاعتبارية ويقطع النظر
عن وظيفتها الاجتماعية ، أعلى مستوى في قمة « السلم اللغوي » للمجتمع المصري -
تختلف بعض الشيء عن « الصورة المثالية » التي تركها لنا اللغويون القديما للغة
العربية . ولنا على ذلك دليل مشاهد ندرسه جميعاً . فلا يوجد الآن في مصر
(ولا في أي بلد عربي آخر) من يستطيع مهما بلغت درجة إتقانه للفصحى - أن
ينطق بها دون أن يكشف عن البلد العربي الذي نشأ فيه . ومعنى ذلك بدون حاجة
إلى الدخول في مناقشات لغوية - أن نطلقنا جميعاً للفصحى مشوب بصفات عمالية -
يمكن لنا أن نسميها صفات عامية - لم تكن لهذه اللغة في عصورها الأولى .
أي أن « فصحي النحو العربي » قد أصبحت الآن « مثالا » في التجريد لا يمكن أن
تتحقق في الواقع بكامل صفاتها .

على أن الفروق بين الالنتين : « فصحي التراث » و « فصحي النحو » هي من
القلة ، ويتركز مظهرها في الصفات الصوتية التي لم يعن بها النحاة - مثل النبر -
بحيث يمكننا أن نعتبر أن « فصحي التراث » هي « فصحي النحو » زائداً عليها
الصفات العامية التي أشرنا إليها . وهي الصورة التي يعكسها القسم العلوي من الشكل
رقم (٥) .

وما دمنا سنعتبر مستوى فصحي التراث بهذه الصورة فلن نكون بحاجة إلى تقديم

وصف جديد له بعد أن تكفل علماء العربية القدامى بهذه المهمة . فقد تركوا لنا وصفاً دقيقاً لفصحى النحو ، من معظم نواحيها : فخصصوا أبواب الإدغام وكتب القراءات لأصواتها ، وأبواب الصرف لبنية كلماتها ، وأبواب النحو لبنية الجملة فيها ، وأبواب المعاني لأصواتها ، كما أودعوا القواميس من متخصصة وغير متخصصة ، ما جمعه من كلمات . وقد هياكل ذلك للغة العربية أن تصبح من أكثر لغات العالم توثيقاً في تاريخ الإنسانية إن لم تكن أكثرها في ذلك باستثناء اللغة الإنجليزية .

ونضراً إلى وجود هذا التوثيق الجيد فسنعبره نقطة بداية أو معياراً على أساسه نفيس أو نفاهاً صفات المستويات الأخرى . وإن كنا - كما قلنا سابقاً - سنختار من الصفات ما يتقدم غرضنا الرئيسى هنا وهو رسم الخطوط العريضة للمستويات الخمس .

أما الصفات التي سنوردها فسنناقشها تحت عناوين ثلاثة :

(أ) الأصوات .

(ب) بنية الكلمات .

(ج) بنية الجمل .

وذلك على النحو التالى :

(أ) الأصوات :

السواكن :

١ - الأصوات الأستانية ت / ذ / ظ /

ينطق متفون الخطاب والقراءة في هذا المستوى بالأصوات الأستانية من مخرجها الصحيح (وهو ما بين طرف اللسان وأطراف الأسنان العليا) . ولا كان هذا النطق متأثراً بقراءة القرآن . والمتدربون عليه لديهم حساسية فائقة لكل ما ينبو عن قواعده للدراسة ، فإن كل نطق لا يتفق مع الصفة المذكورة لتلك الأصوات بعد خطاً في هذا المستوى .

٢ - صوت ج ينطق دائماً معطشاً .

٣ - الأصوات الخلفية ق / خ / غ / ح / ع

تصدر هذه الأصوات دائماً من أقصى نقطة ممكنة من مخرجها . فالقاف والحاء والعين من الالهة (لا من الخنك اللين كما هو الحال في غيرها من المستويات) والحاء والعين من أقصى الحلق . على أن هناك ظاهرة عضوية مصاحبة لهذه الأصوات تعطيلها في هذا المستوى - دون سواه - تأثيراً صوتياً خاصاً . هذه الظاهرة هي ما يسمى في علم اللغة بـ *Labialization* ، وهي تضيق على الصوت الذى تصاحبه ضخامة ترجع إلى توسيع فراغ الفم نتيجة لانفتاح الفكين واستدارة الشفتين مع بروزهما قليلاً إلى الأمام .

٤ - الأصوات المنخفضة : ط / ض / ص / ظ . تنطق هذه الأصوات بدرحة

عالية من التفضيم مع استدارة في الشفتين .

الحركات :

١ - للناطق بالحركات في فصحي التراث طريقة خاصة بها . أهم الصفات الصوتية التي تعطى لهذا المستوى طابعه الصوتى الخاص . هذه الطريقة تتأخر في الاحتفاظ لكل صوت من أصوات الحركة (طويلاً كواو المد وياء المد وألف المد وقصيراً كالضمة والكسرة والفتحة) بطوله النسبى دون السماح لوضع المقطع الذى فيه الحركة بالتأثير على طولها كما يحدث في بقية المستويات على ما سيأتى بيانه (١) . وكنيجة لهذه الظاهرة يجد السامع لكلام ينطق في هذا المستوى إيقاعاً خاصاً . ويرجع تقدير أطوال الحركات إلى التدريب الذى يرافقه المهيئون في دراسهم للقراءات وخاصة قواعد المد والقصر (حيث تقدر أطوال الحركات طبقاً لما يسبقها أو يلحقها من الأصوات من ناحية وطبقاً لتوعها هي من قصيرة أو طويلة من ناحية أخرى) . ومن العسير أن يصف المرء للقارئ الانطباع الذى يحدث عن صوت ما بطريقة تستحضره له تماماً . فالرسيلة الوحيدة لتحقيق ذلك هي سماع الصوت نفسه لا قراءة وصفه . ولكن لما كان هذا متأثراً فسنحاول إعطاء مثال يقرب الفكرة بعض الشيء .

(١) انظر صفحات ١٢٨ - ١٣٩ و ١٦٥ - ١٦٦ من هذا الكتاب

جاء في إجابة لفضيلة الشيخ بار عبد الباسط في برنامج « رأى الدين » قوله :

« والخطبة لا تثبت أى حق للمخاطب قبل خطيبته / ولا للمخطوبة قبل مخاطبها . »

وقد لاحظنا أنه نطق هذه الجملة على مرحلتين تفصلهما سكتة خفيفة بعد كلمة « خطيبته » . وعلى الرغم من اختلاف طول القسمين في عدد كلماتها إلا أنه أعطى كلا منزماً وقتاً مساوياً . وقد اقتضاه ذلك أن يسرع عموماً في الشق الأول ويبطئ في الشق الثاني مما أعطى العبارة كلها نوعاً من التوازن الإيقاعي . وقد قرى هذا التوازن مهارته الفاتحة في تناول أصوات المد في العبارة : ففي القسم الأول منها ثلاثة أصوات يقابلها ثلاثة مائلة في القسم الثاني هي :

لا	...	المخاطب ...	خطيبته
لا	...	المخطوبة ...	مخاطبها

وقد أعطى لكل صوت مد في القسم الثاني وقتاً مساوياً لما أعطاه لنظيره في القسم الأول ولما كان عدد الأصوات في القسم الأول أكثر بكثير من عددها في القسم الثاني فقد احتفظ بالتوازن بين القسمين على الرغم من ذلك بأن أسرع كثيراً في نطقه بالأصوات الساكنة في القسم الأول دون الثاني . فعل ذلك على حساب الأصوات الساكنة لأنها لا تؤثر على الإيقاع بنفس الدرجة التي تؤثر بها عليه أصوات المد والحركات .

وتوزيع أصوات المد داخل كلمات فصحي التراث يختلف عن نظيره في كل المستويات الأخرى . وينتج عن ذلك خلق نوع من الإيقاع لعبارات الفصحي يختلف عن إيقاع عبارات العامية مما سنتناوله في موضع آخر .

٢ - كذلك يمتاز نطق الفتحة المفخمة في هذا المستوى بمصاحبة ظاهرة « تدوير الشفتين » التي وصفناها سابقاً . مثال ذلك نطق ألف المد في كلمة « للقاء » ، وفتحة الباء في كلمة « الخطبة » وهما واردتان في البرامج المشار إليه .

٣ - وجود ظاهرة القلقة المعروفة في القراءات . وتقضى هذه الظاهرة بأنه إذا سكن أحد الأصوات ط / ب / ج / د وبعده صوت صحيح (مثل : الخطبة ،

القلبة) فإن الصوت الساكن يحرك بحركة مجانسة لحركة ما قبله . والداعي لهذا « التحريك » إبقاء هذه الأصوات^(١) مجهورة على الدوام . فلو لم تحرك لكان من الممكن أن تهمس في حالة ما إذا كان الصوت التالي لها ساكناً مهموساً مثل كلمة : « رجفة » .

مسائل أخرى :

١ - كذلك من الخصائص الصوتية لهذا المستوى ما يسمى بالغة ، وما يسمى بالأقلاب (وهو قلب نون التنوين ميماً إذا تلتها باء) ، وذلك من آثار التدريب على القراءة والقراءات . وإن كانت آثار هذا التدريب تمتد لتؤثر على طريقة النطق بالفصحى في غير قراءة القرآن . مثال الأول : الاستعاضة عن تنوين كلمة « مداراة » بفتحة أنفية في قوله : « فترة مداراة ورياء » ومثال الثاني : تحول تنوين كلمة « قول » إلى ميم في قوله « قَوْلُهُمُ بعيد عن الحق والصواب » .

٢ - النبر : وهو الضغط على مقطع معين في الكلمة بقوة أكبر نسبياً من الضغط على غيره من مقاطع تلك الكلمة . مثال ذلك أن النبر في كلمة مثل « راحت » يكون على المقطع الأول في الكلمة وهو / را / مما يجعله أقوى نسبياً من المقطع الثاني في الكلمة وهو / حت / وأوضح منه في السمع .

ولما كان اللغويون القدامى لم يتناولوا مسائل النبر في وصفهم للفصحى ، فن غير الممكن أن نقرر ما إذا كان النظام الموجود الآن مخالفاً أو مشابهاً لما كان يجري عليه النطق في الماضي . غير أنه من الملاحظ أن الفصحى تنطق في كل بلد عربي بنظام من النبر شبيه بنظام نبر العامية و لهجة نفس القطر مما يجعل من المرجح أن يكون نظام النبر كما كان موجوداً في الفصحى القديمة قد اندثر وحل محله نظم أخرى متأثرة باعتبارات عملية .

ونظام النبر في فصحي التراث في المجتمع المصري الآن هو من الصفات التي تجعل من اليسير كشف جنسية المتكلم في الوقت الحاضر على ما أشرنا إليه سابقاً .

(١) يتخذ البعض هذه الظاهرة دليلاً على أن صوتي القاف والطاء كانا مجهورين في الماضي وألا ما ضمنا بين أصوات مجهورة .

(ب) بنية الكلمات :

تختار من النظام الصرفي لفصحى التراث كما تستخدم في مصر الآن مما يفيدنا في إجراء المقارنة مع المستوى التالي له وهو فصحي العصر نقطتين فقط تاركين غيرهما - على قلته - لعدم الاتفاق العام عليه :

١ - الأفراد وغيره : فهذا المستوى يختص بوجود أربعة أنواع من الصيغ للدلالة على التجمعات العددية . هي :

صيغة المفرد	مثل	سيف
صيغة المثنى	مثل	سيفان
صيغة جمع القلة	مثل	أسيف
صيغة جمع الكثرة	مثل	سيوف

٢ - نظام العدد : وهو معروف بقوانينه المتشعبة المذكورة في كتب النحو . ويحرص المتكلمون بهذا المستوى على النطق بصيغ العدد نطقاً يتفق وهذه القواعد مثل : « لخمس خلون من رمضان سنة مائتين وألف » . . . إلخ .

أما المعارك التي دارت أو كانت تدور حول أوزان مثل جمع وعنوان و « موضوع » وهل هو عناوين أو مواضيع أو يجب أن نقول عنوانات وموضوعات . . . إلخ . فلا نريد أن « نثيرها جذعة » هنا مرة أخرى . ذلك أن الخلاف في هذه المسائل ونحوها كان في الواقع حول « نوع » الصحة أو الخطأ في الاستعمال لا مجرد وجود الرواية أو الصيغة أو القياس الذي يمكن اتباعه في مثل هذه الأمور .

والسبب في قلة نقاط الخلاف الصرفي بين مستويي فصحي التراث والعصر هنا هو أن سرعة تطور الصيغة أقل من سرعة تطور الصوت ، وخاصة في لغة مثل اللغة العربية تلعب الصيغة فيها دوراً أساسياً في التخصص المعنوي للشققات المختلفة لأصل المادة .

(ج) بنية الجملة :

١ - للجملة في فصحي التراث نوعان من البنية يختلفان في نسبة شيوعهما على الترتيب التالي :

(١) فعل + اسم (فاعل) = جملة فعلية

(ب) اسم (مبتدأ) + خبر = جملة اسمية

وعلى الرغم من وجود هذين النوعين فيها إلا أنها ليسا في الأصلية سواء . . . فكما ذكرنا سابقاً يستخلص من أقوال علماء العربية وملاحظاتهم أن الجملة الفعلية هي الأساس في التعبير وأن الجملة الاسمية يؤول بها لأغراض خاصة كالأهتاف بالاسم . . . إلخ ويؤيد هذه الأقوال ما نلاحظه في كتابات التراث وفي القرآن الكريم من زيادة شيوع الجملة الفعلية بدرجة كبيرة .

٢ - كذلك تمتاز بنية فصحي التراث باعتبارها على علامات الإعراب للدلالة على معانيها المختلفة . وأهم من ذلك في تمييز هذا المستوى الغري استمساك الناطقين به بهذه العلامات وعدم إسقاطها في وصل الكلام (انظر مثلاً القطعة المذكورة في الصفحة التالية وخاصة وضع الضم على (وبعد) وهو مما يسقط الآن في النطق الفصيح) . ويظهر ذلك خاصة في المواضع التي كادت تختفي منها علامات الإعراب في مستوى فصحي العصر . وأهم هذه المواضع ما يلي :

(١) الأعلام الثلاثية أو الثنائية سواء كانت مسبوقة بألقاب التكريم أو لم تكن . مثال ذلك مما ورد في البرنامج الإذاعي المشار إليه قول مقدم البرنامج :

« ومعنا صاحبُ القضيبة الأستاذُ الشيخ / بدرُ عبدُ الباسط /

(ب) الأرقام .

(ج) أسماء البلاد والمدن .

وترجع أهمية ذكر الناطقين بهذا المستوى لعلامات الإعراب في أسماء الأعلام إلى كونه أصبح خاصة مميزة لهم . وما يدل على اختصاصهم تقريباً بهذه الميزة أن المجمع

اللغوي رأى - بعد أن اختفى الإعراب كلية أو كاد في استعمال الغالبية العظمى من أسماء الإعلام الثلاثية - رأى أن يترخص فيجيز للناطقين بالفصحى أن يسقطوا علامات الإعراب في الوصل من أواخر الإعلام الثلاثية . وقد جاء قراره هذا بعد مناقشات استمرت عامين ودارت في جلسات متتالية من دورات المجلس . وجاء نص القرار كما يلي :

« يجوز الوقوف بالسكون عند تنابع الأعلام في مثل «سافر محمد على حسن» مع حلف «ابن» تيسيراً على القراء والكتاب ، وتخلصاً من صعوبة الإعراب . »^(١)

ولكى تتضح نوعية اللغة التي تستخدم في ذلك المستوى نقدم نموذجاً لها من التسجيلات التي تمت للبرامج الدينية بالإذاعة . ويلاحظ فيها وإن كان ذلك غير ظاهر في الكتابة بالطبع - تميزها بطول أصوات المد ، والقلفة ، والإدغام ، والاستسماك بالإعراب ، وإخراج الأصوات من خارجها الموصوفة في كتب والأقدمين وخاصة الأصوات الأسنانية والحلفية ، إلى آخر الأوصاف التي ذكرناها .

وتمثل القطعة التالية إحدى حلقات برنامج «رأى الدين» . والمقدم والضيف من علماء الأزهر الشريف . ونلاحظ فيها على الأخص ألف الإثنين في مثل «ولا يحمل لهما أن ينجليا أو يتلامسا أو يتناجيا . . .» فقد أعطاهما المتكلم في كل الموضع حفاها من الطول كما تقرره قواعد القراءات ، ولم يقصرها كما هو المتبع في النطق بفصحى العصر الآن :

مقدم البرنامج : «بسم الله الرحمن الرحيم / أيها السادة والسيدات / سلام الله عليكم ورحمته وبركاته / وبعد فإحدى الفتيات / بعثت إلينا تقول : / رأيتُ خطيباً أخطب يقبلها / وهو لم يَتَعَدَّ عليها / فلما استنكرتُ هذا / قال لي : / إنه لا شيء في ذلك . / فهل للخطيب هذا الحق أثناء الخطبة ؟ / ويسأل نفس السؤال الفداء محاسن سيد / ومعنا صاحبُ الفضيلة الأستاذ الشيخ / بدرُ عبدُ الباسط / نعرضُ على سيادته هذا السؤال . /

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ج ٢٠ صفحة ١١٠ وما بعدها .

الضيف : بسم الله الرحمن الرحيم / الحمد لله رب العالمين / والصلاة والسلام على أشرف المرسلين / سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . / أما بعد / فإن الله سبحانه وتعالى شرع للخطاب الحق في رؤية مخطوبته فقط / حتى لا يفر منها عند الزفاف / وحتى تكون مألوفة له . / والخطبة لا تثبت أي حق للخطاب قبل خطبته / ولا للمخطوبة قبل خطبتها . / ولا يحمل لهما أن ينجليا ، أو يتلامسا ، أو يتناجيا ، فضلا عن القبلة . /

وإن على أهل الخطبة ألا يمكننا الخطاب من الاختلاء بخطيبته / فكم من مأساة وقعت بسبب هذا الهاون / الذي يدعو إليه بعض الكتاب وبعض القصاصين / الذين استقوا ثقافتهم من معين غير معيننا .

والقول بأن مدة الخطبة / ليختبر الخطاب خطيبته / والخطبة خطبتها / قول بعيد عن الحق والأصواب . / فإن هذه الفترة / كما هو الواقع / فترة مداراة ورياء يتناق كل منهما الآخر / حتى إذا تم الزواج / كانت المعاملة على غير ما اعتاده كل منهما من الآخر / في زمن الخطبة . /

وليعلم الجميع / أن الخطبة لا تعطى أي واحد من الخطابين حقاً / إلا أن الخطاب أول من غيره / فلا يحمل لمسلم أن يخطب على خطبة أخيه / أدبنا الله بأدب الإسلام / بمنه وكرمه / والسلام عليكم ورحمة الله . /

مقدم البرنامج : شكراً ، شكراً / وإلى اللقاء غداً إن شاء الله / والسلام عليكم ورحمة الله . /

٢ - الصفات اللغوية التي تميز فصحي العصر :

فصحي العصر هي السجل المكتوب لعصر الحديث ومعارفه . وقد يبقى هذا السجل مكتوباً ، وقد يقرأ جهره ، وقد يحاول القلة - بشيء من النجاح أحياناً - أن يرتجلوا مثل المكتوب في مستواه اللغوي وفي التزامه بالقوانين التي يجرى عليها .

وتتنوع الموضوعات التي تناوفا فصحي العصر بتنوع حضارة المجتمع ومعارفه : فهناك العلم بفروعه من طب ، وحيوان ، وهندسة وكيمياء وطبيعة ، وزراعة ، وذلك ... إلخ .

وهناك الفن من موسيقى ، ونحت ، ورسم ، وتصوير ، وزخرفة ... إلخ . وهناك الدراسات الإنسانية من تاريخ ، وجغرافيا ، وأجناس واجتماع ، ولغات ، واقتصاد ، وسياسة . . . إلخ . وهناك الأدب من شعر ، وقصص ، وروايات ، ومسرحيات ، ورحلات . . . إلخ . وهناك الصحافة بموضوعاتها المختلفة من أخبار داخلية وخارجية وسياسية ورياضية وإعلانات وقد أخذت أهتمام . . . إلخ . وهناك الإذاعة ببرامجها المتنوعة **تنوع المجتمع نفسه** .

ولهذا السبب تتمثل في فصحي العصر جهود المجتمع في اللحاق بغيره من المجتمعات التي سبقته وجهوده في تطويع الأفكار الجديدة لبنية اللغة ومفرداتها . وهذا هو السبب أيضاً في أنه على الرغم من أن فصحي التراث أعلى درجة من حيث ما يسمى بالصحة اللغوية من فصحي العصر . فإن الأخيرة أبعد منها متناولا وأشد منها مراساً وخاصة في مجال النطق والارتجال . فالتكلم الشفاهي بفصحي التراث أسهل على متقنها من التكلم الشفاهي بفصحي العصر على متقنها . ذلك أن الموضوعات التي تعبر عنها فصحي التراث في الوقت الحاضر موضوعات قليلة العمق محدودة التنوع مما لا يتطلب كثيراً من تركيز الانتباه أثناء الكلام . فيستطيع المتكلم أن يمنح جانب الصحة اللغوية بعض انتباهه دون أن تضيق منه خيوط الفكرة . أما في فصحي العصر فإن غنى الموضوع وعمقه وسعة الأفكار وتنوعها تستدعي تركيز الانتباه عليه بقدر لا يترك للمرتجل ولن لا يقرأ من ورقة مكتوبة فرصة التفكير في الصحة اللغوية وخاصة علامات الإعراب .

نتيجة أخرى لتنوع الموضوعات التي تتناولها فصحي العصر واختلاف الميادين التي تعبر عنها هي : التشعب اللغوي لهذا المستوى وموازاته بناهياً لهذه الموضوعات المتنوعة . وهذا شيء طبيعي . فلغة كتاب عن « الحلية » مثلا لا يبد وأن يكون فيها اختلاف عن لغة كتاب عن « نقد الشعر » وهكذا . ومع ذلك فإن الأسس التي يقوم عليها هذا البحث في تحديده المعنى المستوى اللغوي كما تقدم شرحه (ص ٥١ - ٥٢) لا تسمح لنا باعتبار هذه الخلافات أسساً كافية لتخصيص كل من الموضوعات السابقة بلدة أو حتى مستوى مستقل كما اقترح بعض الباحثين (١) .

(١) انظر فاروق شوشة . المرجع السابق . وعلى كل حال فالخلاف هنا لا يرجع إلى غفيرة الاعتراف بوجود الظاهرة اللغوية بل إلى طريقة تصنيفها ، كما سيوضح في ص ١٢٦ - ١٣٣ من هذا الكتاب .

فهناك قدر مشترك من الثقافة العصرية بين أصحاب الفروع المختلفة من المعرفة يتخلق بينهم قدراً من الاشتراك في طريقة التفكير العامة ، وفي تناول الأشياء . وينعكس ذلك على الطريقة التي يعرضون بها موضوعاتهم وبالتالي على اللغة التي يكتبون بها . ويكفي أن نستعرض بعض النماذج التي اختيرت بطريقة عفوية من بعض ما وقع عليه النظر من كتب في فروع العلم المختلفة لئرى مدى التشابه بينها لا في طريقة العرض فقط بل وفي بنية الجملة من الناحية اللغوية أيضاً :

١ - النموذج الأول :

ويتناول التفريق بين الكشف الصوق والاستدلال العقلي :

« ومرتبة الذوق أو المشاهدة أو الكشف الصوق ، هي مرتبة الصديقين . أما مرتبة الاستدلال العقلي فهي مرتبة الراسخين في العلم . وقد فسر الغزالي المشاهدة بأنها نور يغمر النفس فيظهر معه كل شيء .. وهذا النور من الوضوح والجللاء بحيث إنه يخفى لشدة جلالاته ، وقد لا يظن إليه العارف نفسه لإشراف حياته . وأيا كان الأمر فإن نسبة الذوق أو المشاهدة إلى الاستدلال العقلي هي ، في رأى الغزالي ، نسبة الروح القدس النبوي إلى الروح العقلي والروح الفكرى . ويريد بالروح العقلي الملكة التي يدرك بها الإنسان المعاني الضرورية البديهية ، وبالروح الفكرى الملكة التي يمكن بها الاستدلال من صحة حكم على صحة حكم آخر . أما الروح النبوي القدس فهو الذي يختص به الأنبياء وبعض الأولياء ، وفيه تتجلى لوائح الغيب وأحكام الآخرة » (١) .

٢ - النموذج الثاني :

مأخوذ من تحديد « المكان » من وجهة نظر النسبية .

« أن المكان متصل ثلاثى الأبعاد ، ونعني بهذا أننا نستطيع أن نحدد موضع النقطة الساكنة بواسطة ثلاثة أعداد (إحداثيات) س . ص . ش . وأن هناك عدداً لا نهائياً من النقط المتجاورة يحدد موضع أى منها الإحداثيات س . ص . ش . يمكن أن تكون قريبة بأية درجة تختارها إلى الإحداثيات س . ص . ش . الخاصة بالنقط

(١) د . محمود قاسم « دراسات في الفلسفة الإسلامية »، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦٦ ص ٦٠ . مستويات العربية للماستر

الأولى ولهذا السبب نسميها المتصل . ونظراً لأن له إحدائيات ثلاثاً فإننا نقول عنه إنه ثلاثى الأبعاد^(١) .

٣- النموذج الثالث :

يتحدث عن مفهوم الشعر من وجهة نظر الرومانتيكية

« إن الشعر من وجهة النظر الرومانتيكية لا يقتصر مفهومه على التعبير عن العواطف ، وإنما يتجاوز ذلك إلى شيء آخر هو توصيل هذه العواطف المعبر عنها إلى نفوس القراء والسامعين على نحو يثير لدى هؤلاء المتلقين للشعر عواطف شبيهة بالعواطف التي يوصلها إليهم هذا الشعر^(٢) .

٤- النموذج الرابع :

يتحدث عن طرق التزاوج بين الحشرات :

« والقاعدة في الحشرات كعظم الحيوانات هي أن الذكر هو الجنس النشط الذى يبحث عن شريكه . ولكن هناك بعض الأمثلة القليلة تقوم فيها الأنثى بالبحث عن الذكر . ومن الأمثلة المعروفة الفراشة النباح (هيبالس هيوميول) . ففي هذه الحالة يكون لون الذكر الأبيض اللامع هو الذى يدل عن وجوده عند ما يكون محلقاً بأجنحته المهترئة بسرعة . وينشر بهذه الطريقة رائحة تساعد أيضاً في هدى الأنثى عندما تكون طائرة بين الحشائش للبحث عنه^(٣) .

٥- النموذج الخامس :

من نقد لقصيدة للمازى كتبها في محادثة بينه وبين طفل :

« أمر هذا الطفل يحتاج إلى نظر . لنقرأ القصيدة قراءة حرفية . هناك جزء من الجدل القوي بينه وبين صوت الشاعر . هذا الجدل الذى يكون بين متناظرين

(١) ألبرت اينشتين : « النسبية » ترجمة د . رئيس شحاته ، القاهرة ١٩٦٥ ص : ٥٥ .

(٢) د . محمود الربيعي « في نقد الشعر » القاهرة ١٩٦٨ ، ص : ١٣٨ .

(٣) د . أمز « حياة الحشرات » ترجمة د . سميرة الزبادى . القاهرة ١٩٦٣ ص : ٢٧١ .

متكافئين . بل ربما يكون الطفل أقوى من الوالد إلى حد ما . الوالد يسأله سؤالاً ما لا يستطيع أن يكلمه ، ولكنه لا يجد جواباً شافياً عن سؤاله . وبروح الطفل يهذى كل يوم . هذا الهذيان يأخذ في الواقع شكل التحدى . الهذيان ضرب غريب من المعنى لا يحقق مفهوم الإجابة بطريقة مباشرة . ولكنه نوع من الرد القسوى لا يسهان به ...^(١) .

٦- النموذج السادس :

من كتاب عن المعاجم العربية :

« وفي كتاب « أساس البلاغة » ظاهرة تستحق العناية ، فإن الغالبية من المواد التى أفردها بالذكر والشرح مستقلة : ثلاثية الأصول ، وقل ما ذكره من مواد غير الثلاثى . بل يمكن إحصاء هذه المواد ومناقشتها ، وتبلغ نحو اثنتين وستين مادة رباعية ، ومادتين خماسيتين هما مادتا : ص ه ص ل ق / ع د ل ب^(٢) .

٧- النموذج السابع :

في وصف « الأسماك الرئوية »

« هي أسماك قديمة يرجع ظهورها إلى العصر الديفوني المتوسط . وهي تكوّن مع الأسماك المصلية الأجنحة طائفة تعرف بقمعية الأفواه . وقد انقرض معظم أنواع هذه الطائفة . ولا يمثل الأسماك الرئوية في العصر الحالى إلا ثلاثة أجناس . ولا يقتصر تنفس هذه الأسماك على الخياشيم وحدها بل لها - إلى جانب ذلك - جهاز تنفسها ، هوأى على شكل رئة لها دورة دموية خاصة^(٣) .

فبالرغم من اختلاف فروع المعرفة التى اختيرت منها النماذج السابقة فإننا لا نجد فرقا كبيراً بين طريقة العرض في أى منها ، كما أننا لا نجد فرقا كبيراً بينها في بنية الجملة . فهى جميعاً تكاد تقتصر على استخدام الجملة الاسمية ذات المدلول المباشر . ولتقارن مثلاً بين النصوص الخاصة بالتصوف والنسبية والحشرات والنقد الأدبى والأسماك .

(١) د . مصطفى ناصف « وزالطفل - دراسة في أدب المايفي » القاهرة ١٩٦٥ ص : ٣٠١ .

(٢) د . عبد السميع محمد أحمد « المعاجم العربية » ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص : ١٤١ .

(٣) د . حسين فرح زين الدين « أطلس أسماك نهر النيل » القاهرة بدون تاريخ ص ١٧ .

فنحن نلاحظ أنها - على اختلاف الموضوع - تتشابه في استخدام عبارات بسيطة في تركيبها البنائي - مباشرة في مدلولها ، مع تسلسلها في الأفكار وأيضاً في ارتباط كل فكرة بما قبلها ارتباطاً مباشراً .

- مرتبة الذوق أو المشاهدة أو الكشف الصوفي هي مرتبة الصديقين .

- إن المكان متصل ثلاثي الأبعاد .

- القاعدة في الحشرات - كعظم الحيوانات - هي أن الذكر هو الجنس النشط الذي يبحث عن شريكة .

- أمر هذا الطفل يحتاج إلى نظر .

- الأسماء الرومية هي أسماء قديمة يرجع ظهورها إلى العصر الديفوني المتوسط .

وحتى النص رقم ٣ الذي يتناول موضوعاً مقدماً هو تعريف الشعر من وجهة نظر الرومانتيكية - هذا النص ليس فيه من الصفات اللغوية البنائية ما يؤهله لأن يفرد في مستوى خاص . حقيقة قد نجد تصوراً في فروع متشابهة من المعرفة وكتاب آخرين (خلاف الذين سافتنا الصديفة المحضة - كما قررنا سابقاً - إلى الاقتباس من لغتهم) ممن يكتبون لغة معقدة أو ليست بمثل التسلسل أو الوضوح الذي عرضناه هنا . ولكن ذلك لا يضعف - أو لا ينبغي أن يضعف - القضية التي نحاول البرهنة عليها . فوجود مثل الأعمال التي اقتبسنا منها النصوص السابقة وتشابهها بهذا القدر من شأنه أن يضعف أية محاولة للاعتراف بقيام لغة خاصة - أو حتى مستوى لغوي مستقل - لكل فرع من فروع المعرفة .

نعم هناك ملامح خاصة بلغة كل فرع من فروع المعرفة تتمثل في اختصاص كل واحد منها بمجموعة من الاصطلاحات والاستعمالات التي لا يشركه فيها فرع آخر : « فالمشاهدة » في النص الأول ، « والإحداثيات » في النص الثاني و « المواد » في النص السادس « والمصلبة » في النص السابع كلها أمثلة لهذه الاصطلاحات التي لا ينبغي أن تنقل خارج هذه الفروع أو تخلط بما قد يتفق مع بعضها في الحروف من مصطلحات فرع آخر . فوجود لفظ مثل « المشاهدة » في نموذج من النوع الرابع أي علم الحشرات لا يعني تشابهه في المدلول مع مصطلح « المشاهدة » في نموذج

من النوع الأول أي التصوف . ولكن هذه الخلافات هي في النهاية خلافات في الألفاظ وحتى تم شرح مدلول كل لفظ منها زال الغموض عن النص الذي توجد فيه .

ومع ذلك فينبغي تحقيقاً للتفريق بينها والتصنيفها أن نقسم فصحي العصر إلى أقسام متعددة بتعدد فروع المعرفة التي تعبر عنها ، نطلق عليها اسم « الأنماط » فيكون عندنا نمط علمي ، ونمط موسيقي ، ونمط لغوي ، ونمط فلسفي ، ونمط تجاري ، ونمط سياسي ... إلخ . وبذلك الطريقة نتمكن من أن نجري الإحصائيات الخاصة بمصطلحات كل نمط وعمل قوائم بالألفاظ الشائعة فيه بحيث نستطيع اتخاذها أساساً لدراسات متقدمة من أنواع مختلفة .

جانب آخر من جوانب فصحي العصر لم تتناوله الملاحظات السابقة هو الجانب المنطوق . ويتمثل في بعض المحاضرات والخطب التي تلي في مناسبات خاصة . والخلاف الذي يظهر على الصعيد المنطوق بين المتكلمين ومن موضوع إلى موضوع أشد وضوحاً من نظيره على الصعيد الكتابي . ذلك أنه في حالة المنطوق لا توجد فرصة للمراجعة والتصحيح . كما هو الحال في الكتابة ، كما أن التشكيل - في حالة القراءة من ورقة معدة - لا يستخدم عادة مما يسمح للقدرة الشخصية ودرجة إتقان اللغة أن تظهر بوضوح . وحتى في الحالات القليلة التي يستخدم فيها التشكيل ، فإن في الصفات الأخرى التي لا يحكمها التشكيل مثل خارج الأصوات ما يكفي للتفريق بين شخص وآخر .

وبرامج الإذاعة التي تستخدم « فصحي العصر » وسيلة للتعبير ، تدرج تنازلياً بناء على درجة إتقانها وقربها من « المثال » الذي أقامته نظم التعليم للفصحي في الوقت الحاضر .

وبالإضافة إلى درجة التعليم التي أشرنا إليها سابقاً فهناك عوامل إضافية تحكم هذا التدرج اللغوي في برامج الإذاعة التي تستخدم الفصحي . فمن هذه العوامل الموضوع نفسه : فبرنامج عن الفصحي مثل « لغتنا الجميلة » يكون مستواه اللغوي أعلى من برنامج عن « طرائف حول العالم » وبنوع في « ركن المرأة » . ومن هذه

العوامل « شخصية الإذاعة » نفسها (البرنامج العام ، صوت العرب ، الشرق الأوسط ، إذاعة الشعب . . . إلخ) : فموضوع عن اللغة الفصحى في البرنامج العام مثل « لغتنا الجميلة » يكون عادة أقرب إلى « المثال الفصحى » من موضوع مشابه في إذاعة الشرق الأوسط مثل « أجد هوز » .

عامل آخر له أهميته في الوقت الحاضر ، هو جنس المتكلم : فالنساء بصفة عامة أقل قدرة على تحقيق « المثال » الفصحى من الرجال في ظروف مشابهة . وهذا هو ما نلاحظه في البرامج التي يقدمها مذيع ومذيعة يقرآن من ورقة معدة مثل برنامج « بمناسبة ومن غير مناسبة » .

ومع ذلك وعلى الرغم من هذا التدرج في « الصحة اللغوية » فهناك قدر مشترك من الصفات بين كل هذه الدرجات من الفصحى . هذا القدر المشترك هو الذي يضم بينها ويجمعها كأئمة أو أنماط لمستوى واحد . ونحن في دراستنا لهذا المستوى نهدف إلى استخلاص هذا القدر المشترك من الصفات لاستخدامه كأساس لتعيين حدود هذا المستوى وفصله عن غيره من المستويات الأخرى .

ولما كان مستوى فصحى العصر بأنماطه المذكورة (من فلسفية وعلمية وتجارية وفنية . إلخ) يتلوف تربيته تنازلياً (من حيث علاقته « بالمثال » الذي توارثناه عن القدماء) مستوى فصحى التراث ، فنذكر من صفاته ما يميزه عن المستوى السابق عليه ، أى ما يؤهله لأن يكون مستوى منفصلاً عنه . ولكننا قبل أن نفعل ذلك نرى من الضروري أن نتميز بين نوعين من الفروق التي تلاحظ بين طريقة استخدام فصحى التراث وطريقة استخدام فصحى العصر :

الأول : نوع من صفات فصحى العصر يميزها عن فصحى التراث ولكنه يعد من قبيل الخطأ في المستويين بإجماع الآراء ولا تجد له قبولاً في الاستعمال إلى الآن .

الثاني : نوع من صفات فصحى العصر يميزها عن فصحى التراث ، ويعتبر خطأ في فصحى التراث ، ولكنه فقد صفة الخطأ في مستواه ، أى في مستوى فصحى العصر ، بحيث أصبح لا يهتم بتصحيحه أحد ، بل لا يفكر أحد في أنه خطأ في أصله :

فمثال النوع الأول : الخطأ في الإعراب . فعلى الرغم من كثرته وشيوعه في فصحى العصر إلا أنه لا يزال يعد من قبيل الخطأ . يحاول تفاديه كل مستخدم للفصحى مهما بلغت درجته من الثقافة ، كما يلاحظه العارفين به ، ويصححونه كلما سنحت الفرصة وفي أى مستوى كان .

ومثال النوع الثاني : نطق الأرقام في نشرات الأخبار أو في غيرها من المناسبات التي ينطق فيها بالفصحى المعاصرة . فرقم ١٨٨ مثلاً ينطق عادة « مية ثمانية وثمانين » دون أن يصحح هذا النطق ، بل ودون أن يفكر في تصحيح هذا النطق - كثيرون . فالنوع الأول ، وهو ما يعد من قبيل الخطأ في المستويين لا يعتبر صفة مميزة لمستوى فصحى العصر على الرغم من انتشاره لأنه خطأ لم تنتف عنه صفة الخطأ ، ولذلك فلن نذكر منه شيئاً هنا .

أما النوع الثاني ، فعلى الرغم من أنه يعد خطأ في المستوى الأول وهو فصحى التراث ، إلا أنه لا بد وأن يعد من قبيل « الصواب » في المستوى الثاني وهو فصحى العصر مادام يلتق قبولاً من السامعين وما دام لا يسبب ما يسببه الخطأ الباقى على صفته الأصلية من رد فعل بين السامعين .

هذا النوع الثاني من الصفات هو الذي يعد حقيقة من المميزات الخاصة بفصحى العصر وهو بهذا الاعتبار ما يصلح أساساً للفرقة بينها وبين الفصحى الأخرى .

على أن الفروق الموجودة بين فصحى التراث وفصحى العصر لا ترق جميعها إلى درجة الصواب القاطع أو الخطأ القاطع كما هو الحال في مثال قراءة الأرقام المذكور . فهناك أنواع أخرى من الفروق تمثل اتجاهات عامة في الاستخدام يميز مستوى عن مستوى دون أن يكون خطأ في واحد وصواباً في غيره .

مثال ذلك ما ذكرناه سابقاً^(١) من اختلاف المستويين الأول والثاني في درجة استخدامهما للجمل الفعلية والجمل الاسمية . مثل هذا الفرق يسد أيضاً من الصفات المميزة وخاصة إذا كان جزءاً من اتجاه عام يتلوج في كل المستويات ويسلكها معاً في إطار واحد كما هو الحال بالنسبة للمثال المذكور - على ما سيأتى بيانه في مكانه المناسب .

أما الصفات اللغوية التي يمكن أن نستخدمها في تعريفنا بفصحى العصر فيأتيها كالاتي :

١ - الأصوات :

يبدأ في هذا المستوى تحول الأصوات وتغير صفاتها بدرجة ملحوظة نحو أشكالها العامة . وذلك على النحو التالي :

في السواكن :

١ - الأصوات الأستانية : ث / ذ / ظ ← س / ز / ظ :

تنطق الأصوات الأستانية في هذا المستوى من غير مخرجها الذي وصفناه في المستوى السابق ، دون أن يعنى أحد بتصحيح هذا النطق عنابته بتصحيح الخطأ في استخدام علامات الإعراب . فصوت الثاء ينطق بنفس صفات صوت السين ويشبه به ، وصوت الذال ينطق بنفس صفات صوت الزاي ويشبه به ، كما أن صوت الظاء ينطق من مخرج صوت الزاي ولكن مع تضخيم فيه أى زاي غليظة أو مفخمة كما يقول الاصطلاح ، (وقد اخترنا لها رمز الظاء بنقطتين فوقه) .

على أن هناك بعض المتقنين - وخاصة من قارئ الأخبار في الإذاعة والتليفزيون - يحاولون أن يلتزموا نطق الأصوات الأستانية من مثل المخارج التي كانت لها ولكنهم قلّة على كل حال .

٢ - صوت ج :

صوت الجيم هنا هو أشهد الأصوات تدهوراً . فهو يختلف عن غيره من صفات فصحي التراث في أنه لا يتلرج في صفاته مع مستوى إلى آخر ، بل ينتقل انتقالاً فجائياً من كونه صوتاً معطشاً (أى مركباً) في فصحي التراث إلى كونه صوتاً انفجارياً عامياً في فصحي العصر . فهو يبلغ قاع التطور من أول نغمة في المستوى الثاني ويبقى على ذلك في باقي المستويات . (أى في مجتمع القاهرة . وإلا فإنه يأخذ صوتاً أخرى في أماكن أخرى) .

ومن الملاحظ أن الكثيرين ممن يحسنون النطق بالصوت المعطش ، يستحون من النطق به ، لما قد يتهمون به من « التكلف » . فالإذاعي المعروف فاروق شوشة لا ينطق بذلك الصوت معطشاً في برنامجه المتخصص عن الفصحى ، لغتنا الجميلة . كما أن الأستاذ محمود حسن إسماعيل ، الإذاعي القديم ، في إحدى حلقات « أيجد هوز » التي استضيف فيها . كان ينطق صوت الجيم مرة بالتعطيش ومرة أخرى بدونه . والمصريون المثقفون ثقافة عصرية لا يستريحون عموماً إلى استخدام الجيم المعطشة ، مما يخلع عليها صفة « الخطأ » في فصحي العصر .

٣ - الأصوات الخلفية : ق / خ / ع / ح / ع :

يختلف نطق هذه الأصوات في هذا المستوى عن نطقها في المستوى السابق من ناحيتين :

الأولى المخرج - فهي تنطق من نقاط متقدمة قليلاً نحو مقدمة الحنك عن النقاط التي تنطق منها في فصحي التراث .

والثانية - شكل الشفتين مع هذه الأصوات . فالشفتان معا في هذا المستوى لا تستديران خلافاً لما يحدث في المستوى السابق .

هذا الخلاف الذي يتميز به نطق هذه الأصوات هنا يعطيا نوعاً من « الرقة » يختلف عن صفة « الغلظ » التي تطبعها في فصحي التراث كما أنه يعتبر أول درجة من درجات التطور الذي يصيب هذه الأصوات تدريجياً من مستوى إلى مستوى . ومن الملاحظ أنه يوجد عموماً طريقتان للنطق بهذه الأصوات . إحداهما وهي « الأرق » أو بعبارة اصطلاحية الأكثر تقدماً في المخرج هي طريقة النطق عند النساء المثقفات . فهن يكندن ينطقن صوت القاف « نصف كاف »^(١) على عكس النطق عند الرجال ، وإن كان الأخيرون لا يبلغون في نطقهم مبلغ النطق الخلق في فصحي التراث .

(١) أنظر ص ١٨٠ - ١٨١ من هذا الكتاب .

٤ - الأصوات المفخمة : ط / ص / ص / ط

تتأثر هذه الأصوات في مستوى فصحي العصر بدرجات متفاوتة ، أذناها ما يحدث في نطق غالبية المثقفين من الرجال لهذه الأصوات بدون تدوير الشفتين (على عكس ما يحدث في فصحي التراث) وبتخفيف قليل لدرجة التخميم . وأقصاه ما يحدث في نطق بعض المثقفات من فتيات الحظ من الثقافة العربية عند ما ينطقن بصوتى « الطاء » و « الصاد » و « تاء » و « دال » على التوالي مع إبقاء الحركة الهجورة لها مفخمة أو شبه مفخمة ، وأيضاً في تخفيفهن لدرجة التخميم في صوتى « الصاد » و « الطاء » .

وهذا التغير في درجة التخميم وفي توزيع صفاته يحدث نتيجة لتأثير صفات العامية كما سنشرحها في الموضع المناسب^(١) . ولما كنا سنقدم أمثلة لصفة التخميم في فصحي العصر مع تحليل لتوزيعها مع النموذج الذى اقتبسناه في نهاية هذا القسم فسنكتفى بهذا القدر هنا .

وفي الحركات :

يبدأ في هذا المستوى تطور الحركات وخاصة في أطوالها . فن الصفات الواضحة التى يظهر فيها الفرق بين فصحي التراث وفصحي العصر أن الحركات في الثانية أقصر من نظيراتها في الأولى بصفة عامة . فكلمة مثل « ساعدوم » لا تنطق فقط في فصحي العصر بألف وواو مد أقصر من نطقها في فصحي التراث بل أن ألف المد فيها تكون أقصر بكثير من واو المد في نفس الكلمة .

وعلى الرغم من أن هذا هو الاتجاه العام في هذا المستوى إلا أن الناطقين يختلفون بدرجة واضحة في مدى استخدامهم لأصوات الحركة فيه ، فكما كانت ثقافة الشخص العربية أعمق كلما زادت أطوال الحركات نسبياً في نطقه وخاصة في المواضع التى يختلف فيها النظام العامى عن النظام الفصحى .

ولا يتوقف الأمر على درجة ثقافة المتكلم فقط بل إن للموضوع دخلاً في التأثير

(١) انظر أيضاً ص ١٨٢ - ١٨٣ من هذا البحث .

على أطوال الحركات أيضاً : فمع أن أطوال هذه الأصوات أكثر في برنامج « لغتنا الجميلة » عنها في برنامج « أمجد هوز » ، إلا أن أطوال الحركات في برنامج « لغتنا الجميلة » تختلف نسبياً تبعاً لاختلاف موضوع الفقرة المقروءة ذاتها . فلو قارنا بين جملتين واردتين في حلقة واحدة مثل :

(أ) إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً . (قرآن كريم)

(ب) يقول القاضي عبد الجبار في تفسير ذلك .

لو قارنا بين هاتين العبارتين لوجدنا أن :

١ - مقادير الحركات في الأولى أطول بكثير جداً عنها في الثانية . والسبب واضح . فالأولى - وهى آية من القرآن - جزء من التراث فقراءتها أقرب إلى قراءة التراث . أما الثانية - وهى من كلام مقدم البرنامج نفسه - فهى من فصحي العصر ويجرد وصلة و لكلام نالها مما يجرمها الحق ، في الحركات الطويلة التى للأولى . ولا يقتصر الأمر على القرآن بل يحظى بمثل هذه القراءة ذات الحركات الطويلة كل ما رقى في موضوعه في إحساس مقدم البرنامج كالشعر مثلا .

٢ - تنطق الفتحة المفخمة في هذا المستوى دون أن تصاحبها ظاهرة تدوير الشفتين التى تصاحب نطق نظيرتها في فصحي التراث .

٣ - كذلك تختفى هنا أيضاً ظاهرة القلقة التى وصفناها فيما سبق .

أما صفات الفنة والإدغام بفنة مما ذكرناه كصفات خاصة بفصحي التراث فلإنها لا تظهر هنا بنفس القدر الذى تظهر به هناك ، وخاصة في طول أو استمرار الفنة .

(ب) بنية الكلمات :

كما ذكرنا سابقاً لا يوجد كثير من نقاط الخلاف بين نظام بنية الكلمات في فصحي العصر وفصحي التراث كما تنطق الآن . حقيقة بخطى الكثيرين اليوم في النطق بكثير من الكلمات نطقاً يتفق مع بنيتها المتوارثة كقولهم « أكفأ » بتشديد الكاء يقصدون

الشخص الكفء ، وقول المتوفى بكسر الفاء يقصدون المتوفى بفتحها . ويهتم برنامج
« لغتنا الجميلة » بتقديم قوائم من مثل هذه الأخطاء مع ذكر تصحيحاتها طبقاً
للقواعد القديمة . ومع ذلك فمثل هذه الأخطاء - كما قلنا سابقاً - لا تشكل
قاعدة لأنها تأتي من يصححها دائماً كما يحدث في البرنامج المذكور .

أما النوع الآخر من « الأخطاء » وهو الذى صار قاعدة لا يصححها أحد فهو
الذى نهم به . فلم نسمع مقدم برنامج لغتنا الجميلة يقول فى قوائم تصحيحاته مثلاً :
ويقولون « ميه تمنية وتمنين » والصواب أن يقولوا : مائة وتمانية وتمانين إلخ .

أما نقاط المقارنة فهى تقابل ما ذكرناه فى القسم السابق الحاضر بفصحى التراث
وهى :

١ - الأفراد وغيره :

يجد فى هذا المستوى ثلاثة أنواع فقط من الصيغ للدلالة على التجمعات
العربية هى :

صيغة المفرد	مثل	سيف
صيغة المثنى	مثل	سيفان
صيغة الجمع	مثل	سيوف أو أسيف

أما دلالة صيغ جمع الفعلة على ما بين الاثنين والعشرة فلم تعد ذات مغزى فى
الاستعمال الحديث للفصحى .

٢ - نظام العدد :

ينهار نظام العدد بخصائصه المعروفة فى التراث ويختفى تماماً فى فصحى العصر .
فسواء أنطق المذبح رقم ١٨٨٢ « ألف وثمانمائة واثنين وثمانين » أو نطقها - كما هو
الأغلب - ألف تمنية اثنين وتمنين ، فإن رد الفعل لدى السامعين سواء . لا أحد
يلاحظ الفرق ، وحتى لو لاحظوه فإنهم لا يهتمون بالفرق . بل لا نقال إذا قلنا
إن الكثيرين قد لا يلتفتون للصيغة الصحيحة تلقى الاستحسان .

وقد أقلق هذا الوضع أعضاء المجمع اللغوى ورأوا فيه خطراً على سلامة اللغة

فخصوصاً « لمشكلة العدد » عدة جلسات وكتب فيها عدد من الأعضاء عدة أبحاث
بهدف معالجة أسبابها . وقد ركزوا على جانب من المشكلة أو بعض أسباب تدهور
النظام وهى الصعوبة التى تتمثل فى وجوب مخالفة العدد المعدود فيها بين الثلاثة والعشرة
ومركباتها . وانتهت المناقشة - على طولها - بغير فائدة . وكل ما استطاعوا الاتفاق
عليه هو « لفت نظر مستخدمى الفصحى إلى تركيب بديل يتقدم فيه المعدود على العدد
وهو بهذه الصفة يجوز فيه المخالفة بين الاثنين والموافقة بينهما . فتقول :

رجال خمسة أو رجال خمس . . . إلخ^(١)

مع ذلك فإن المشكلة لم تحل ، ولا نتوقع لها حلاً . فسقوط نظام العدد يرجع
إلى أسباب كثيرة من بينها - وليس كلها - قاعدة المخالفة المذكورة .

(٣) بنية الجملة :

١ - للجملة فى هذا المستوى - كما أن لها فى المستوى السابق - نوعان من
البنية : البنية الاسمية والبنية الفعلية . ولكن المستويين يختلفان مع ذلك من ناحية نسبة
شروع كل من نوعى الجملة إلى الآخر فهما . فنحن نلاحظ فى فصحى العصر
وجود اتجاه قوى إلى تفضيل الجملة الاسمية على الفعلية .

ويمكن أن نعزو هذا الاتجاه إلى مصدرين :

١ - المصدر الأول : المستويات العامية التى تكاد تقتصر فيها بنية الجملة على
النمط الإسمى .

٢ - المصدر الثانى : اللغات الأجنبية . فنحن نلاحظ أن اللغة التى تستخدم
فى ميادين ثقافية تتصل اتصالاً قوياً بأصول أو منابع أجنبية مثل الصحافة ومثل
القرال الأدبية الحديثة « كتيبار الوعى » ، هذه اللغة يزداد فيها استخدام الجملة
الإسمية أكثر من غيرها .

فالبريقيات التى لا تكف مفاتيح « والتكسر » فى دور الصحف الكهوى عن دقها
ترجم ترجمة مباشرة تتسبب فى صياغة الجملة العربية على نسق جملة اللغة المنقول

منها الخبر وهي الإنجليزية في العادة . ولا يقتصر الأمر على البرقيات الخارجية قطعية العمل الصحفى ذاته - وهو بمعناه الحديث ، فن منقول عن الثقافات الغربية - طبيعة هذا العمل تقتضى نوعاً من اللغة يستوقف الانتباه عند صلب الخبر ، أو موضوع الخبر وهو العنصر الأسمى في الجملة مما يستدعى تقديم هذا العنصر وخاصة في الأخبار القصيرة . وخبر مثال على هذا النوع ما يكتبه كمال الملاح في الصفحة الأخيرة من الأهرام . وقد قدمنا له بعض النماذج من قبل (ص ١٠٢) .

أما القوالب الأدبية والكتابية الغربية التي تؤثر أو من شأنها أن تؤثر على نسق الجملة العربية عند النقل إليها فإنها تأتي من ميادين عملية وفنية وأدبية متنوعة . وأوضح هذه القوالب وأشدها تأثيراً على نسق الجملة العربية ما اصطلاح على تسميته « تيار الوعى » . والنموذج الآتى مختار بطريقة عضوية من رواية لواحد من الأدباء الشبان الذين يكتبون هذا القالب :

أنت عصام نفسه ... هو لا غيره ... ماذا بقى له بعد هذا ... غاضب يحاول الهروب من ضيقه ... الأرق ... هناك مورد ثابت مكرر . محل رتيب . لا ... لا شيء ... شبع لا جوع . راحة لا قلق . جديد لا عتيق . صفحة جديدة تؤكد أنه هو لا هو كما يزعمون . الانتحار لقب مستقبلي . عمود سبي . السمعة اسم الندم . كان واللى يدعوان للبقاء أسوأ جديداً . مشاعر طيبة من أجل عادة قبيحة هي زواج ابنتها الوحيدة . بقيت سجيناً منزلاً واحداً . الأواني بجوارها . الغسيل موضوع في النار الحارقة . هي تقول له . يا زوج ابني العزيز ، فيك وضعت ثقفى ، بانتظام كان يزورنا . لا تزال شابة حية تعيش في سجنها المنزل مثل حيوان عرّف عن كل الأطعمة لسبب مجهول إلا طعاماً من صنع هذا الحيوان الأليف . في البيت الجاور ذى الطرائق العديدة . انضم طفل عار وطفلة عارية إلى حلقة واحدة . خلعنا جلدة الطفل المدلية من حق البنت . بيوت الأرياء عرت الصدور . لا رضاه إلا يعرى الكل . وجود حتى . أنت ... أنت ... بيوت عتيقة يحكمها جيل سابق . برود سابق لأوانه . خزفلات ... أى أرض هي لك . حين سواها ... الخ (١)

(١) محمود عوض عبد العال ، سكرمر ، الطبعة الأولى . القاهرة من ١٠٩-١١٠ .

وارتباط هذا النوع من القوالب الأدبية بالجملة الإسمية هو ارتباط طبيعي في الواقع . ذلك أن المؤلف في مثل تلك الأعمال يتخلى عن الدور التقليدى الذى كان يقوم به المؤلفون عادة ، وهو دور المؤرخ الذى يحكى أحداثاً متتابعة انتهت قبل أن يمسك القارىء بالرواية ليقراها . (وبذلك يتخلص القارىء) من الأسلوب السردى الذى لا يخلو عادة من تقريرية تبث الملل إلى نفسه (١) . فتخلص الكاتب من حكاية الأحداث التى انتهت وتركه « الأسلوب السردى » في تعبير الدكتور السكوت تعنى في التعبير اللغوى تخلصه من « البنية الفعلية » وما يتركب منها . فحكاية الأحداث تعتمد أساساً على الفعل في تركيباته المختلفة .

٢ - كذلك تختلف الجملة في فصحي العصر عن جملة فصحي التراث في عدم التزام الناطقين بها بعلامات الإعراب فالتسكين في كل موضع هو طريق السلامة كما يقولون . وهذه الظاهرة - على العكس من الخطأ في علامات الإعراب - نمر دون أن تثير اهتماماً كبيراً أو تحدث انزعاجاً لأحد من متقنى الفصحى ، مما يعطيها درجة الصفة المميزة لهذا المستوى .

وبالطبع تختلف درجة التمسك بهذه العلامات من شخص إلى آخر ومن موضوع إلى موضوع ومن مناسبة إلى أخرى على ما شرحناه من قبل . ومع ذلك فهناك مواضع بنائية يكاد يتفق فيها الجميع على تسكين أواخر الكلمات وصلاً وفقاً على حد سواء . هذه المواضع هي :

(١) الأعلام : من أحادية وثنائية وثلاثية . الخ ولم يسلم من هذا التسكين برنامج متخصص مثل « لغتنا الجميلة » فقد جاء في إحدى حلقاته قول مقدمه « يقول القاضى عبد الجبار في تفسير ذلك . . . بتسكين كل من عبد ولجبار .

ويبدو أن تأصل ظاهرة تسكين الأعلام وتغلغلها في استعمال المتخصصين أنفسهم قد حصل أعضاء المجمع اللغوى ، لا على محاولة إصلاح هذا العيب ، كما هو موقفهم بالنسبة لغيره من العيوب والأخطاء اللغوية الأخرى ، بل على الترخيص

(١) د . حملى السكوت : ثورة في التسكين الروائى ، دراسة لرواية « سكر مر » منشورة كمقدمة لها ص ١٠ ، ١١ .

هذا الوضع بل وتطويع قواعد اللغة له بعد أن تعذر تطويعه لقواعد اللغة . ويستلقت نظري خاصة قول المرحوم الزيات في عرض وجهة نظره التي أخذ المجمع بها فيما بعد :

« ومن واجب جميع اللغة العربية ، وهو - وبنده المستول عن سلامتها ورعائها ، أن يطوع قواعدها لقبول هذا التركيب (بقصد تركيب « سافر محمد على حسن » بتسكين كل من هذه الأعلام وصلات) ولو بشيء من الإكراه . . . فالأمر - كما قلت - لا يعدو التماس وجه من الوجوه لتصويب تركيب اقتحم اللغة . . . ولم يلبث أن تمكن وتحصن حتى أصبح طرده من الأمور المعضلة » (١) .

(ب) الأرقام : ولا يقتصر الأمر في هذه الحالة على إسقاط علامات الإعراب وإحلال السكون محلها في حالة الوصل ، بل إن صيغة الرقم الفصيحة تختفي تماماً وتحل محلها صيغته في اللغة العامية : مثال ذلك قول مقدمة إحدى البرامج التي تستخدم « الفصحى » لغة لها :

« هل عدد الجمهوريات / خمسة ؟ / أو خمستاشر ؟ / أو ثلاثة وعشرين ؟ / .
وكما ذكرنا سابقاً كانت مشكلة العدد من المشاكل التي استنفدت من المجمعين وقتاً وجهداً كبيرين ولكن بدون جدوى ودون أن يتوصلوا إلى قرار بشأنها على العكس من مشكلة الأعلام السابقة .

على أن ظاهرة إسقاط علامات الأعراب وإحلال السكون محلها في حالة الوصل تعني أكثر من مجرد أسقاط العلامة . إنها تعني إحداث تغيير جنسي في الأصل الذي يقوم عليه تركيب الجملة في اللغة العربية الفصحى . فعلامة الإعراب هي الظاهرة أو العرض الذي يبتدى به إلى حقيقة التركيب الداخلي للجملة ، وحقيقة الصلات التي تربط مكوناتها وأفرادها بعضها ببعض . واختفاء العلامة في الفصحى أساسها القديم يمكن أن يؤدي إلى حدوث واحد من أمرين

الأول : أن يحدث غموض في حقيقة الصلات بين مكونات الجملة ، كما هو الحال إذا ما أسقطنا علامات الإعراب من مثل :

محمدًا ضرب على

(١) من مقال للمرحوم أمين الخويلج مجلة المجمع ج ٢٠ ص ١٢١ .

لتصبح « محمدًا ضرب على »

فإنه في هذه الحالة لا يعرف الضارب من المضروب أي لا تعرف حقيقة الصلة بين الاسم الذي قبل الفعل والاسم الذي بعده أي بين محمد وعلى وهذا لا يمكن للغة حية أن تقبله أو تسكت عليه . ولم يحدث في العربية على أية حال .

الثاني : - وهو ما حدث فعلاً - أن تتخلى اللغة عن الأساس الذي يجعل من الإعراب ضرورة دلالية قصوى في عملية الإفادة . أي تتخلى عن « حرية الكلمات داخل الجملة » وتلتزم بنظام ثابت تسلك فيه كلماتها مما يجعل من هذا الترتيب علامة على نوع العلاقة بين هذه الكلمات . وهذا الأساس التركيبي - أي ترتيب الكلمات داخل الجملة - هو الذي تقوم عليه اللغة العامية في الإفادة ، مما مكنتها من الاستغناء عن علامات الإعراب .

وبناء على ما ذكرناه فإن إسقاط علامات الإعراب في الاستخدام المعاصر للفصحى ترتب عليه إحداث تغيير جوهري في بنية الجملة العربية . ذلك هو الاعتياد على ترتيب الكلمات « بدل الاعتياد على علامات الإعراب » في فهم معاني الجمل . أو بعبارة أخرى يعنى ترك قواعد الفصحى وإحلال قواعد اللغة العامية محلها . فالتسوية بالفصحى الحالية من علامات الإعراب هو في حقيقته لغة عامية تتخذ لنفسها بعض المظاهر الخارجية للفصحى .

وعلى ذلك فالشخص الذي يسكن الكلمات في الوصل إنما يتكلم نوعاً من العامية لا نوعاً من الفصحى . ولا يمكن أن يعتبر صنيعه هذا مجرد تسهيل لا يضرب بالفصحى كما يردد الكثيرون .

وقد ترتب على ظاهرة تسكين أواخر الكلمات في الوصل اختفاء أنواع الأبنية التي تعتبر علامات الإعراب فيها ضرورة حيوية لبيان المعنى مثل تقدم المفعول على الفاعل وتقدم خبر « إن » أو « كان » على إسميها إلخ .

تمودج مسجل من الإذاعة للفصحى العصر

نظراً لتنوع موضوعات البرامج التي تتخذ الفصحى لغة لها ، ونظراً لاختلاف درجات الإلتفات بين مقدمى هذه البرامج فمن العسير جداً اختيار نموذج واحد يمثل

لغة هذا المستوى تمثيلاً كاملاً من النواحي الصوتية . لهذا فقد اخترنا نموذجاً نعتقد أن لغته تقع في درجة متوسطة بين الأنماط اللغوية لهذا المستوى . مع اعترافنا بوجود برامج أعلى منه لغة مثل برنامج « لغتنا الجميلة » وبرامج أقل منه في خصائصها بكثير .

والبرنامج الذي اخترنا منه النموذج التالي يذاع - أو كان يذاع - تحت عنوان « تسالي » . وقبل أن نقدم النموذج نود أن نشير إلى صعوبة أخرى هنا وهي تعذر تقديم صورة دقيقة بالحروف العادية للخصائص الصوتية للغة وخاصة للقارئ غير المتخصص في الدراسات اللغوية . ولهذا فسنحاول بقدر الإمكان أن نهبط إلى وصفاً تقريبياً لأهم الصفات التي نرى من الضروري الإشارة إليها مع ترك الباقي لمعلومات القارئ الخاصة وخبرته بمثل هذه البرامج .

يتولى تقديم البرنامج مذيع ومذيعة يقرآن بالتبادل . وكما هو الشأن في مثل هذه الأحوال نلاحظ أن لغة المذيع أعلى مستوى في خصائصها الفصحى من لغة زميلته . أو بعبارة أخرى نلاحظ أن لغة المذيعة أكثر معاصرة من لغة زميلها . أما الخصائص اللغوية التي نود أن نلفت إليها الأنظار والتي نريد أن نلاحظها عند قراءة النموذج فهي :

١ - اختلاف توزيع صفات التفضيم داخل الكلمة في هذا المستوى عن نظيره في مستوى فصحي التراث . فكلمة « الفضاء » (وهي واردة في النموذج) تختلف صوتياً عن كلمة الفداء (بفتح الفاء وتطابق على جنس الطعام كإبر والشهير)^(١) في فصحي التراث بوجود التفضيم في صوت الضاد وألف المد التي تليها في كلمة الفضاء ، ووجود الترقيق في صوتي الدال وألف المد التي تليها في كلمة الفداء . وانسحاب صفة التفضيم على صوت الةة التالى ظاهرة عامة في الفصحى القديمة . أما في النموذج الذى معنا فنحن نلاحظ ظاهرة هامة جداً تختص بها العامية المصرية وهي عدم وجود التلازم في صفة التفضيم بين أصوات التفضيم الشديدة (الطاء والضاد) وأصوات الةة التي تليها ، على عكس الحال في فصحي التراث .

(١) لسان العرب ج ٢٠ ص ٩ طبعة بولاق (النسخة المصرية) .

فصوت الضاد في كلمة « الفضاء » هنا قد فقد تفضيمه تماماً ، ومع ذلك لم تشبه الكلمة أبداً بكلمة « الفداء » نظراً لبقاء بعض التفضيم في صوت المد في الكلمة الأولى ، وهو قدر يكفى للترقيق بين الكلمتين . وقد اقتصر هذا النقل في حلقات التفضيم على الأصوات الشديدة فقط . أما الأصوات المخفضة الرخوة (الصاد والظاء) فقد بقي التفضيم فيها وفي أصوات اللين التالية لها ، وإن كانت درجة التفضيم فيها تقل عن درجة التفضيم في نظيراتها في فصحي التراث .

٢ - ترقيق الراء بدرجة كبيرة وترقيق الحركة التي بعدها كذلك . والسبب في اختلاف هذه الحالة عن الحالة السابقة هو عدم وجود تقابل بين صوت «راء» ومخفضة وأخرى مرفقة بنفس الطريقة الموجودة بين أصوات الضاد والدال والطاء والتاء ... إلخ .

٣ - عدم تعطيش الجيم . فهي في النص انفجارية تماماً ، بل إنها في الواقع يمكن أن توصف بأنها صوت قاف مجهورة .

٤ - نلاحظ - خلافاً للصفات العامة التي ذكرناها لهذا المستوى - أن المذيعين يلتزمان « بإخراج اللسان في أصوات الطاء والذال والتاء » ويبدو أن نظام التدريب الصوتي بالإذاعة يعنى بهذه الظاهرة عناية خاصة .

٥ - تسكين أواخر الغالبية من الكلمات في حالة الرصل .

٦ - الأرقام تنطق بصيغها العامية وكذلك الأعلام .

أما النموذج فهو كالاتى :

مذيع - عزيزي المستمع / مساء الخير .

مذيعة - مَنْ هو أول رقل (رجل) / سار في الفداء (الفضاء) ؟

مذيع - الحل الصحيح / بيّن هؤلاء الثلاثة :

مذيعة - جون جلين ، /

مذيع - لكسى لينوف ، /

مذبة - فريجيل جريسو . /

مذبة - صديق المستمع / ما هو عدد القهوريات (الجمهوريات) التي يتكون منها الاتحاد السوفيتي ؟

مذبة - هل عدد القهوريات (الجمهوريات) خمسة ؟ / أوخستاشر / أو ثلاثة وعشرين ؟ /

مذبة - في آخر هذه الحلقة / سوف نقدم لك الإجابة / على هذين السؤالين . /

مذبة - ابرسم / من فذلك (فضلك) . / وقت / المهندسة المتازة في عملها أمام مدير المصنع ، وتلبت (طلبت) بزيادة مرتبتها / فابترسم مدير المصنع وقال لها في هدوء /

مذبة - إن مرتبتك اليوم / أعلى من مرتب / زميلك المهندس / مع أنه / له خمسة أولاد / ومع ذلك / لم يطلب زيادة مرتبه /

مذبة - فقالت المهندسة / لقد كنت أظن / أن مرتباتنا / تدفع لنا / من أجل إنتاجنا العملي في هذا المصنع / لا من أجل إنتاجنا في المنزل .

٣ - الصفات اللغوية التي تميز عامية المثقفين :

هذا هو المستوى الذي يصل فيه تدهور صفات الفصحى التقليدية إلى حد يصبح معه من غير الممكن أن يبقى داخل حدود - أو من بين درجات - العربية الفصحى . وفي الواقع أننا لو قارنا بين نماذج من أدنى مستوى من « فصحى العصر » ونماذج مشابهة من أعلى مستوى من « عامية المثقفين » أي في النقطة التي يلقى فيها المستويان - لو أجرينا مثل هذه المقارنة لوجدنا أن الفرق بينهما في تلك النقطة لا يتعدى وجود صفات محدودة ترجع إما إلى مستوى الفصحى وإما إلى مستوى العامية . وعلى أساس استخدام الواحدة دون الأخرى تتحدد تبعية النموذج نفسه إما للفصحى أو للعامية . وهذه الظاهرة (ظاهرة التدرج في الصفات) هي التي اتخذها الأستاذ الحكيم أساساً

فيها أسماء « إيجاد » لغة ثالثة . ويضرب الأستاذ الحكيم مثالا على ذلك بعبارة « الأرياح دى تم توزيعها بالنسبة لأغلب العمال » في مقابل « هذه الأرياح تم توزيعها بالنسبة لأغلب العمال » ويقول أن الفارق الذي يوضع الأول داخل نطاق العامية هو استعمال الدال بدلا من الذال في « دى » وتأخرها عن الأرياح . فاستعمال « دى » كما لاحظ الأستاذ الحكيم بحث هو في الواقع نقطة الازدواج في الانتقال من الفصحى إلى العامية على الرغم من وجود أشياء أخرى قد لا تحقق مثل هذا الانتقال .

فتلا لو قلنا : « المسألة مهمة لأغلب الفلاحين » بتسكين « وآخر الكلمات لما أمكن القطع بحقيقة المستوى الذي تقع فيه هذه الجملة على الرغم من وجود كثير من صفات اللغة العامية فيها ، إذ لا يزال من الممكن أن ننسبها إلى نطق هابط من مستوى فصحى العصر (تلك التي تخلصت من الإعراب واتخذت من بنية العامية نظاماً لها كما سبق في ص ١٤٤ - ١٤٥ .

وكما استطعنا أن نصف هذا المستوى بأنه « هو الذي يصل فيه تدهور صفات الفصحى التقليدية إلى حد يصبح معه من غير الممكن أن يبقى داخل حدود العربية الفصحى » وكذلك نستطيع أن نصفه من وجهة نظر أخرى بأنه هو الحد الذي يصل فيه ارتفاع العامية في اتجاهها نحو الفصحى إلى درجة تصبح معها قدرة على التعبير الشفاهي عن ثقافة العصر . فعامة المثقفين هي لغة الحديث التي يستخدمها كل من أوتوا حظاً من الثقافة والتعليم في شرح الموضوعات التي تتصل بثقافتهم كما يستخدمونها في المناقشات والحديث في المجلات وشئون العلم والأدب والموسيقى والفن . . . الخ .

وإذا ما قارنا بين هذا المستوى وبين المستوى السابق عليه أمكننا أن نقول إن عامية المثقفين تؤدي نفس الغرض الثقافي الذي تؤديه فصحى العصر ، ولها نفس إمكاناتها التعبيرية ونفس مجالها العلمي والحضاري ، وإن كانت تختلف عنها في أنها أقرب إلى قلب المثقف وأطوح لسانه وألصق بنفسه . فالأولى مطبوعة والثانية مصنوعة . بل لا ننال إذا قلنا أن فصحى العصر هي أساساً لغة كتابية واستخدامها في الحديث - كما يحدث في بعض المسرحيات المعاصرة - أمر عارض . حقيقة

نرى البعض يحسنون الحديث والارتجال بفصحى العصر ، وقد يصلون في ذلك حداً من الإتقان يكاد يصل إلى إنقائهم لمستوى العامية . ولكن هؤلاء قلة يتمتعون بمقدرة خاصة فوق المقدرة العادية للفرد المتوسط . واللغة في أساسها مقدرة عادية وملكية من ملكات الفرد المتوسط بل وأقل منه . وأستاذ الجامعة مثلاً يكتب بفصحى العصر ولكنه يلقي محاضراته عادة بعامية المثقفين وفي الحالات القليلة قد يلقيها بنوع من الفصحى يقع على الحدود بين الفصحى والعامية .

وقد وصلت عامية المثقفين إلى المركز الممتاز الذي وصلت إليه الآن نتيجة لقيام ضرورة اجتماعية صاحبها نوعان من القصور في التعبير الشفاهي .

أما الضرورة فهي ضرورة التعبير عن نوع من الحياة لم تكن معروفة من قبل . فقد حمل غزو الحضارة الأوربية، معه لمصر نوعاً من العلم وطرائق من الحياة بهرت المصريين واستطاعت بسحرها أن تحطم الأسوار النفسية التي كانت تحيط بهم والتي كانت تمنعهم لا من اصطناع هذه الطرائق الغربية عليهم فحسب بل ومن مجرد النظر إليها وفحصها عن قرب . وقد أدى انهيار السد النفسي الهائل إلى ارتفاع طوفان من الحضارة الغربية أخذ المصريون في اصطناعها على استحياء أول الأمر ، ثم مالبتوا أن نسوا من أين جاءت وما أصلها بعد أن أصبحت جزءاً لا يتجزأ من حياتهم وثقافتهم . وقد أدى اصطناع هذا النوع الجديد من الحضارة إلى قيام ضرورة التعبير عنها تعبيراً يعكس خصائصها ويفرق بينها وبين ما كان سائداً من قبل الأخذ بها .

أما ما صاحب هذه الضرورة من قصور في التعبير الشفاهي فقد تمثل في نوعين :

الأول : قصور عامية الأميين وحتى عامية المتنورين عن التعبير عن أغراض الثقافة العليا كالنقش والموسيقى والفلسفة والمشاكل الاجتماعية الحديثة . . إلخ .

الثاني : قصور الغالبية العظمى من المثقفين في مصر عن استخدام الفصحى في التعبير المرتجل وفي المناقشات العلمية والمناظرات السياسية وكل ما يتصل بشئون الحضارة والحياة المعاصرة .

ولذلك فقد كان من الطبيعي أن تخلق الحضارة الجديدة لنفسها نوعاً من التعبير له في النفوس ما لها من أصالة وطبيعية . وقد تم ذلك عن طريق الزواج بين صفات العامية وصفات الفصحى ، أو بعبارة أخرى بين ما يحسنه المثقفون من صفات الفصحى وهو اصطلاحاتها وألفاظها وطرق الدلالة المجردة فيها ، وبين ما يحسنونه من صفات العامية وهو هيكلها البنائي وطرائق تركيب الجملة فيها بصورة عامة . من هذا الزواج إذن ولدت لغة الحديث عند المثقفين أو ما أسماه بعامة المثقفين . فهي إذن وليدة الحاجة ومرآة العصر وحضارته .

وقد هيا جمود الفصحى وفشل المؤسسات التعليمية في غرسها في النفوس من جهة ، وعدم ارتفاع العاميات الأخرى إلى المستوى الحضاري للعصر من جهة أخرى - هيا كل ذلك لعامية المثقفين أن تكون بلا منافس حقيقي في تعبيرها الحر عن العصر وحضارته وعلوه وثقافته . فهي أكثر حساسية من غيرها للتغيرات الاجتماعية والحضارية ، وهي الراب الذي تلج منه الأفكار والتعبيرات الواردة سواء أكان ورودها من مجتمعات أجنبية أو كان من المجتمع المصري ولكن من مستويات لغوية أخرى .

فمثلاً هؤلاء الذين يرمون بتجارب شخصية في بلاد أجنبية أو يقرءون عن مثل هذه التجارب أو يقرءون عن حضارات وعلوم أجنبية ، وهؤلاء الذين يقرءون في الفصحى عن موضوعات عربية خالصة ، وحتى هؤلاء الذين يرمون بتجارب شخصية في المجتمع المصري وينظرون إليها نظرة علمية كل هؤلاء قد يتحدثون عن تجاربهم . فإذا ما فعلوا فلهم يصطنعون في أحاديثهم الشفوية عامية المثقفين (وقد يحاول القلة منهم استخدام فصحى العصر) وسيلة للتعبير في العادة . فإذا حدث ولم يكن في قاموس هذا المستوى ما قد يحتاجونه من بعض ألفاظ واصطلاحات فإن المتحدث لا يجد غضاضة في نقل الكلمة الدالة على ما يريد بلانها من المصدر التي وجدها فيه سواء أكان هذا المصدر لغة أجنبية أو العربية الفصحى أو عامية الأميين وقد يقدم لهذه الكلمة ترجمة وقد يجري عليها تغييراً يقربها من لغة مستوى عامية المثقفين الذي يتحدث به .

ومعنى كل ذلك بعبارة أخرى أن عامية المثقفين تقوم في التركيب اللغوي للمجتمع

بدور " محطة التجارب " أو " الحجر الصحي " . فهي تقبل كل ما يرد عليها بصفة مبدئية ، ولا ترفض شيئاً دون تجربته مهما شد أوفاق حدود الغرابة . وبعد التجربة إما أن ترفضه كما هو أو تقبله كما هو أو تجرى عليه بعض التعديلات . وهذا هو السرفى وجود ظاهرة واضحة تميز هذا المستوى لغويًا ، وهي أنه عبارة عن تشكيكة من الصفات في كل مستوى (كما سيأتى بالتفصيل) : فالأصوات المستخدمة فيه ترجع إلى الفصحى وإلى العامية وإلى شيء بينهما كما قد تكون أصواتاً من لغات أجنبية أيضاً . وكذلك الشأن في قواعد النحو التي تجرى عليها الكلمات التي تستخدمها . وكلها يعيش جنباً إلى جنب دون حرج لأحد . وإذا راقبنا برنامجاً في التلفزيون يقوم على الحوار بين عدة أشخاص من المثقفين فسندجد أحدهم يخرج لسانه في التاء مثلاً فيقول : " تقب " وآخر يستخدم السين بدلا عنها فيقول : " سقب " وقد نجد الثالث يذهب أبعد من ذلك فيستخدم الصورة العامية الخالصة فيقول : " تآب " وقد يستخدم المتحدث الكلمة أو التعبير الأجنبي بينما يستخدم زميله الكلمة العربية المقابلة ، وقد شاهدت الوزير المسئول عن البرول يتحدث في أحد برامج العلم عن حاجة البلاد لـ " النوهالو^(١) " فردد المذيع عبارته مستخدماً كلمة " الحيرة " . وليس وجود هذا الخلط عيباً في هذا المستوى ، بل هو دليل الحيوية والتفاعل مع التيارات والأفكار المعاصرة . تماماً كما تدل كثرة العينات الموجودة في محطة للتجارب وتنوعها على حيويتها واتصالها بما حولها .

ولا يحتاج المرء إلى طویل بحث حتى يقع على ما يشاء من الأمثلة التي تصور الحالات التي ذكرت هنا . وإباناً لهذا فتحت جهاز التلفزيون وقت كتابة هذه السطور فوجدت على القناة (٥) برنامجاً بعنوان " المسرح في بلدنا " وهو برنامج - كما يبدو من عنوانه - يدعو بعض المتخصصين في شؤون المسرح والعاملين به والمتصلين به من قريب أو بعيد ثم يناقشون مشكلة من المشاكل المتعلقة به أو يقيمون إحدى المسرحيات . . . إلخ .

ونظراً لأنني قد فتحت الجهاز أثناء البرنامج فإني لم أتمكن من معرفة اسم المسرحية التي كانت محل المناقشة ، كما لم أعرف أسماء المشتركين فيها سوى اسم " الأستاذ

العصفوري " إذ ذاه زميله باسمه^(١) .

كان المشتركون في البرنامج يناقشون في إحدى المسرحيات ويتناولونها من جهات متعددة . وكان من الواضح أنهم متأثرون في القواعد التي يستخدمونها بقوالب مسرحية منقولة من ثقافات غربية قرأوا عنها وشاهدوها في مجتمعاتها . ولذلك فلم يقتصر حديثهم على مجرد نقل الأفكار الغربية بل صاحب ذلك - نظراً لموقف الاحتمال والتلقائية التي لم تعطهم فرصة تغيير الكلمات - صاحب ذلك استخدام مصطلحات أجنبية بلفظها ثم ترجمتها بعد ذلك بمقابل عربي هو في حد ذاته ابتكار أو إيراد للغة العربية . مثال ذلك حديث واحد منهم عن نوع من التكنيك المسرحي يرجع بالمشاهد إلى لحظة سابقة للحظة التي تجري أحداثها أمامه وتسميها لها : « فلاش باك » Flash back . ثم التعقيب على ذلك بتقديم مقابل عربي لها هو « أن يرجع بذاكرته ويتذكر الماضي . . إلخ » .

وقد يكون النقل أيضاً من مصدر الفصحى فتدخل المصطلحات والكلمات أولاً عن طريق عامة المثقفين ثم تسهط إلى عامة المتورين وقد تصل إلى عامة الأميين . وخير مثل على ذلك ما جاءت به ثورة ١٩٥٢ من تغييرات اجتهادية واقتصادية صاحبها ابتكار أسماء للمؤسسات والأفكار الجديدة ، مثل : الاتحاد الاشتراكي ، الإصلاح الزراعي ، وضوح الرؤية : الالتزام . ملتزم ، المد الثوري ، تنظيم الأسرة . . إلخ . فقد ولدت هذه التغييرات أولاً في المذكرات والأبحاث التي وضعت لتأصيل الثورة ، ثم شرحت بعامة المثقفين للقادة ومن يعملون في نشر الوعي بين الجمهور ، ثم دخل بعضها في الاستعمال العام إلى أن وصل جميع أنحاء البلاد ، وأصبح بعضه جزءاً لا يتجزأ من حياة بعض قطاعات المجتمع فجزى التصرف فيه بطرق لغوية شتى ،

(١) في الواقع أن من جوانب التقصير في طريقة تقديم برامج التلفزيون والإذاعة بصفة عامة إهمال ذكر أسماء المشتركين في البرنامج وموضوعه في نهايته . وكثيراً ما يفتح المشاهد الجهاز بعد بدء برنامج ما ، ثم تجرى المناقشة فيه بطريقة تفت نظره وتشوقه إلى معرفة موضوعه وأسماء المشتركين فيه . وبدلاً من أن يحد هذه المعلومات في النهاية - يحد بدلاً منها أسماء المصورين وساعديهم وساعدي المخرج والذين قاموا بعمل الماكياج . . إلخ . ولا اعتراض لنا على ذكر أسماء هؤلاء وإنما اعتراضنا على إهمال تقليد هام وفيد تعمل به إذاعات العالم الأخرى .

مثل : « الإصلاح الزراعي » الذي أصبح يسمى في الريف باسم « الإصلاح » و « أراضي الإصلاح » و « بتوع الإصلاح » .. إلخ .

وقد يكون النقل هذه المرة من عامية الأميين إلى فصحي العصر ، ولكن النقل يتم أيضاً عن طريق عامية المثقفين . ويتمثل ذلك عادة في الأبحاث الاجتماعية التي تتخذ من ظواهر المجتمع مادة لها ، فتبحث الظاهرة تحت اسمها العامي وما يتصل به من كلمات ومصطلحات . مثال ذلك عادة « الزار » و « الأسباد » .. إلخ .

والنقطة التي نود تأكيدها هنا هي أنه يبدو أن عامية المثقفين هي بطبيعتها أصحح المستويات للفرض المذكور وهو كونها باباً تلج منه الأفكار والتعبيرات الجديدة ، لتصبح جزءاً من القاموس اللغوي لمستوى أو أكثر من المستويات الخمس . والسبب في كونها كذلك يرجع إلى حيويتها وحرمتها الذاتية من جهة كما يرجع إلى جمود المستويات الأخرى ومحدوديتها النسبية من جهة أخرى . هذا إلى أن المثقف حين يستخدمها يعرف أنه لا يسجل شيئاً على نفسه كما يحدث في الكتابة . فليس هناك علامات إعراب أو صفة نحوية . ويمكن الشخص أن يطرقت بها أرقى الموضوعات وأكثرها تعقيداً دون أن يعانى المشكلة اللغوية . وكل هذه مزايا لا يشاركها فيها أى من المستويات الأخرى .

فصحي التراث تفتقر إلى المرونة اللازمة لقبول تعبيرات واصطلاحات جديدة . فهي مكبلة بقيود تحد ما يجوز وما لا يجوز وجميعها تهدف إلى رفض ما لم يرد مثاه على لسان العرب الأولين .

وفصحي العصر على الرغم من قبولها لاصطلاحات جديدة - نظراً لرفضها لكثير من القيود التقليدية (بترخيص من المجمع اللغوي أو بدون ترخيص منه) بطيئة الحركة والاستجابة للقدام الغريب . ويرجع ذلك إلى أن الغالبية العظمى من الإنتاج في هذا المستوى يخرج في صورة مكتوبة مما يتيح لأصحابه فرصة التفكير والاختيار والمراجعة بل والتفتية حرصاً على عدم التعرض للنقد . ومع ذلك فإن ذوى الجرأة من الكتاب والأدباء لا يملكون حرجاً في ابتكار ما يشاؤون^(١) وفي نقل ما يروقهم من تعبيرات (مثل الميكنة) ، وإن كان ذلك يقل نسيباً عن مقابله في عامية المثقفين .

(١) أحدث ما قرأت شخصياً من هذا النوع كلمة « التأسد » لادعاء « الأستاذة » .

وتفتقر عامية الأميين بل وعامية المنورين أيضاً إلى سعة الثقافة اللازمة للتعبير عن الموضوعات الحضارية ، ولذلك فلا تسنح لها الفرصة للتفاعل السريع مع تيارات الثقافة الطارئة ، اللهم إلا في الأحداث الكبرى التي تغير قوانين التطور الاجتماعي ، أو بعبارة أدق الأحداث التي تتبع قوانين اجتماعية من نوع خاص بها أقل ما توصف به ، سرعتها في إحداث التغيير الاجتماعي . وأوضح مثل على ذلك ثورة ١٩٥٢ وما نتج عنها من تغييرات جذرية شملت كل قطاعات المجتمع فيما يشبه طرفة العين وأدخلت في كل القطاعات وفي مستوياتها اللغوية تعبيرات واصطلاحات جديدة لم يكن لها بها عهد سابق . ولكن بالطبع مثل هذه الأحداث الكبرى قليل الوقوع .

أما الصفات اللغوية التي تميز عامية المثقفين والتي يمكن أن نستخدمها في التعرف عليها فمن بينها الآتي :

(١) الأصوات :

هذا المستوى هو أغنى المستويات الخمسة من ناحية عدد الأصوات التي يستخدمها ومن ناحية توفر مجال الاختيار فيها . فأمام المتكلم عامية المثقفين - إلا بعض المواقف التي تستثير إليها - حرية استخدام أربعة طوائف من الأصوات :

١ - أصوات الفصحى .

٢ - أصوات العامية المرتبطة بالثقافة .

٣ - أصوات العامية الأخرى .

٤ - بعض أصوات اللغات الأجنبية مثل نطق بعض المثقفين لكلمة « البرلمان » بالباء « المهموسة » (أى التي تكتب بثلاث نقط) وإن كان ذلك نادراً إلا أنه موجود فعلاً في المستوى مما يجعل منه ميزة له .

فالتكلم بعامية المثقفين يستطيع في مناقشة بينه وبين نظرائه أن يستخدم مثلاً إحدى الصور الثلاث الآتية لنفس الكلمة : ثقب أو سقب أو تآب . ولا يتحقق هذا الاختيار في أى من المستويات الأربع الأخرى . ففصحي التراث لا تستخدم إلا الصورة الأولى « ثقب » فقط ، بينما تستخدم فصحي العصر الصورتين الأولى والثانية

« ثقب » و « سقب » . أما عامية المنورين و عامية الأميين فلا تستخدمان إلا الصورة الثالثة « تآب » فقط .

على أن مجال الاختيار في عامية المثقفين بين هذه المجموعات الثلاث (يقطع النظر عن النوع الرابع لأنه لا يظهر إلا في الكلمات الأجنبية الأصل ولدى قلة من الأشخاص في نطقهم بتلك الكلمات) - على الرغم من قيام الاختيار بصفة عامة - فإنه ليس مفتوحاً أمام المتكلم في جميع الأحوال أو بنسب متساوية . فهناك قوانين فرعية تحدد هذا العموم كما سيتضح من مناقشتنا التالية :

١ - السواكن :

(١) الأصوات الأسنانية :

طريقة النطق بهذه الأصوات في عامية المثقفين هي من أكثر الخصائص الصوتية منزى في هذا المستوى . فالكلمات التي تشتمل على صوت أو أكثر من هذه الأصوات يمكن نظرياً أن تنطق بواحد من طرق ثلاث تدرج نسبة الشيع فيها على الوجه التالي :

أولاً - الكلمات التي بها صوت التاء في الفصحى :

مثل « ثقل » « الثور » و « ثوب » . تنطق هذه الكلمات عادة في هذا المستوى بصوت « السين » ، إذ القاعدة العامة هنا هي أن صوت السين جائر في كل ما كان من أصله ثاء في الفصحى . وهذا الجواز العام خاص بهذا المستوى فقط . وإلا فإن في مستوى عامية الأميين قد يعين الطق بالتاء في بعض الكلمات . وفي تلك الحالة قد يلزم هذا النطق الكلمة حتى ولو استعملت في مستوى آخر مثل كلمة « أثر » في عبارة مثل « شاف الأثر » فهذه الكلمة مرتبطة بمستوى معين هو عامية الأميين . ولذلك فصوت « التاء » - التي تعد من صفات هذا المستوى ومن خصائصه - متعينة في تلك الكلمة ولا تفارقها حتى ولو تناوالت متحدث في أي مستوى آخر ولو كان مستوى الفصحى . وعلى النطق بالسين من حيث الشيع في عامية المثقفين النطق بالتاء مثل كلمات « تلب » و « بعر » و « حرت » إلخ . ويرتبط النطق بالتاء عادة بالكلمات التي ارتبطت بحياة

الشعب واندجبت به منذ عهد بعيد . أما الكلمات التي لا زالت صلتها بالكعب قوية أو حية فلا تنطق عادة بصوت التاء . ومن أحسن الأمثلة على ذلك كلمتان من مادة (رث / ل / ث) الأولى كلمة « مثلث » في عبارة مثل « في المثلث ا ب ج . . . » فيمكن أن تنطق بالتاء أو بالسين فقط ولا يجوز أن تنطق بالتاء لأنها كلمة لم تهبط بعد إلى المستوى العام في الاستعمال . أما كلمة « مثلت » في عبارة « الحبل دام مثلت » أو في عبارة « مثلت على ليه . . . » فلا تنطق إلا بالتاء نظراً لمستواها الثقافي المعين . ومن الكلمات التي لا تنطق بصوت التاء لارتفاع مستواها « أثر عليه » و « المبعوث الدولي » و « صمم على العثور عليه » بخلاف « بعث » و « عثر عليه » فيمكن نطقها « بعث » و « عثر عليه » (على الرغم من اشتراكها معها في المادة الفعلية) لعكس السبب السابق .

وأقل طرائق النطق بما أصله التاء في الفصحى شروفاً في عامية المثقفين أن ينطق به « ثاء » كنطقه في الفصحى . وأكثر ما يكون ذلك في الكلمات ذات المستوى الثقافي المرتفع وفي المناقشات المتخصصة أو في المحاضرات العلمية وما يشبهها ، مثل « النشر » ، « الدعوة للأخذ بالتأثر » ، « الثقافة » . . . إلخ .

ثانياً - الكلمات التي بها صوت الدال في الفصحى : مثل « بذكر » و « نذكر » و « ذقن » . . . إلخ . تنطق هذه الكلمات عادة في مستوى عامية المثقفين بصوت « الزاي » إذ القاعدة العامة أن كل ما جاء في الفصحى بالدال ينطق هنا جوازاً بصوت الزاي إلا إذا كانت الكلمة التي فيها هذا الصوت ذات ارتباط حضاري أو ثقافي شعبي معين . فيقال « بذكر » و « نذكر » و « ذقن » . . . إلخ . أما الكلمات مثل « ذكر » في عبارة « يشوش الذكر » فلا تنطق بصوت الزاي إذا وردت في هذا المستوى ، ذلك أنها في الواقع من قاموس عامية الأميين ، ولذلك فصوت « الدال » الذي هو من خصائص ذلك المستوى متعين فيها .

وعلى النطق بالزاي في الشيع النطق « بالدال » في كلمات مثل « ودن » و « دان » و « دراع » ويرتبط النطق بالدال عادة بالكلمات التي ارتبطت بعامية الشعب وبثقافتهم وعاشت معهم زمناً طويلاً بخلاف النطق بالزاي فإنه يرتبط عادة بالكلمات التي لا تزال صلتها بالعلم أو بالكعب قوية . ونأخذ مثلاً على ذلك كلمتين من أصل ثلاثي وهن « هو (ج / ذ / ر) . هاتان الكلمتان هما « جدر » التي تنطق عادة بالدال لارتباطها بالثقافة

الشعبية، و«جزرية» في مثل «مشكلة جزرية»، فإنها لا تنطق بالذال أبداً لأنها من الكلمات الحضارية التي لا تزال تحتفظ بأصلها الثقاني المرتفع على الرغم من شيوعها في الاستعمال. ومن الكلمات التي تنطق عادة بالذال للسبب المذكور كلمات «داه الأكل»، «بيدئ» في مألوفة، «ودره»، و«أدف»، بخلاف كلمات مثل «لزيز»، «عنده زوا»، و«الزل» فإنها لا تنطق بصوت الذال لارتفاع مستواها.

والنطق بما أصله الذال في الفصحى، ذالاً أيضاً في عامية المثقفين هو أقل طرائق النطق به شيوعاً. وأكثر ما يكون ذلك في الكلمات ذات الأصل الثقاني المرتفع أو التخصصي وفي المقامات التي تجرى فيها المناقشات بين أصحاب التخصصات العلمية أو الأدبية فقد يرد في المناقشات عبارات مثل «في بعض المذاهب...» و«الإذعان لرغبات الطفل». إلخ. والنطق بالذال يعطى الحديث طابعاً ثقافياً مرتفعاً قد يحاول المتكلم في بعض الظروف أن يتفاداه رغبة منه في إبقاء الحديث في مستوى أقل منه. مثال ذلك ما حدث في برنامج «الصحة للجميع» الذي تقدمه دكتور «لقية السج» بالقناة (٥). فقد كانت في زيارة لأحد مراكز رعاية الأم والطفل، وجرى حديث بينها وبين بعض المشرفين. وأثناء ذلك قالت هي: «إذن يياخدوا سقافة غدا...» بالذال، ولكنها لم تكمل الكلمة بل استدركت على نفسها وأعدت الكلمة بالزاي و«غزائية».

وقد جاءت كلمة واحدة على ما أعلم بالعامية وكان أصلها الذال في الفصحى وهي كلمة «النيب»، في «النيذ»، وينبغي لهذا أن تعتبر استثناء على القاعدة.

ثالثاً - الكلمات التي بها صوت الظاء في الفصحى: مثل «مظلوم»، و«ظهر»، و«ظن»... إلخ. وتوزيع طرائق النطق بهذا الصوت في عامية المثقفين يشبه توزيع نظيراتها في الصوتين السابقين.

القاعدة العامة هنا أن كل ما أصله «ظاء» في الفصحى يمكن أن ينطق في هذا المستوى ظاءً (بتنطين) أي بدون إخراج اللسان (أو بعبارة اصطلاحية زايًا منقحة). وهذا هو أكثر طرق النطق به شيوعاً. فيقال «مظلوم»، و«ظهر»، و«ظن». ويستثنى من هذا العموم الكلمات المرتبطة بالثقافة الشعبية مثل كلمة

«نصرى» في عبارة «يا نصرى عليك يا خويا»، فإنها من قاموس عامية الأميين ولذلك فصوت الضاد - الذي هو من خصائص ذلك المستوى - متعين فيها.

وبلى النطق بالطاء ظاءً في الشبوح النطق بها ضاداً في كلمات مثل «نضارة» و«نصف»، و«صلاة الظهر». إلخ. ويرتبط النطق بالضاد بالكلمات التي ارتبطت بالشعب وعابثته وأصبحت جزءاً من حياته. بخلاف النطق بالطاء فإنه يكون في الكلمات التي لم تدخل في الاستعمال الشعبي طويلاً أو لم تتمكن من التغلغل في حياته. مثال ذلك كلمة «شظية» التي تستخدم بمعنيين الأول معنى يتصل بحياة الشعب وهو قطعة من الحطب أو القش الدقيقة الرقيقة والتي تدخل في أصبع اليد أو القدم ويطلق عليها في تلك الحالة اسم «الشظية» بالضاد. (ولا يجوز استخدام الظاء فيها). والثاني معنى لم يتغلغل في حياة الشعب بعد وإن كان له به علم وهو الذي يستخدم في مثل عبارة «شظية القنبلة» بالطاء (ولا يستخدم صوت الضاد في مثل تلك الحالة). ومن الكلمات التي تنطق عادة بالضاد للسبب المذكور «ضلة» و«ضافر» و«ضهر»، بخلاف كلمات مثل «عظيم» و«مظهر» و«ظرف مناسب» فإنها لا تنطق بالضاد لبقائها فوق مستوى عامية الأميين.

والنطق بما أصله الظاء في الفصحى ظاءً أيضاً في عامية المثقفين هو أقل طرائقه شيوعاً ولا توجد قاعدة تحكمه سوى مزاج المتكلم ومستوى الحوار أو المناقشة أو الحديث الذي يشترك فيه. ويظهر هذا النطق عادة في الكلمات ذات المستوى الثقاني الخاص وفي حالات قليلة. وقد سمعت شخصياً في برامج التلفزيون بعض الأمثلة على فترات متباعدة ومنها «رفع الحظر» و«منظمات الشباب».

وهناك ملاحظة عامة تتعلق بالتغيرات الصوتية التي تلحق بأصوات الكلمة. فأصوات الكلمة دائماً تتبع مستوى لغوياً واحداً. فلا يمكن أن يتبع صوت مستوى ما وصوت آخر مستوى غيره. فكلمة مثل «ذقن» إذا نطق صوت الذال فيها ذالاً أي بما يتفق وقواعد عامية الأميين فلا بد وأن ينطق معه صوت القاف همزة «دان» أي بما تنفص به قواعد المستوى ذاته فلا يجوز أن يقال «زان» أو «ذقن». وكلمة مثل «أخط» إذا نطقت ذالها ذالاً فلا بد من أن تتحول صيغتها إلى صيغة مقبولة في العامية لتصبح «أخذ» اتباعاً لقواعد ذاتها... وهكذا.

(ب) صوت القاف : تنطق الكلمات التي يوجد فيها صوت القاف في الفصحى بإحدى طريقتين في عامية المثقفين على الترتيب التالي في نسبة الشيوخ :

(١) قافاً كما في فصحي العصر . وفي الواقع من الصفات التي تستلقت النظر في هذا المستوى العامي كثرة ظهور صوت القاف فيه مما يساعد على تمييزه من غيره من العاميات . ولا يحتاج المرء إلى بحث كثير لجمع ما يشاء من الأمثلة . ومنها التي استوفت نظري . . . ، كل . مظاهر الحضارة والتقدم . . . ، «مدبر العلاقات العامة . . .»^(١)

(ب) همزة وهي أقل ظهوراً من صوت القاف ، وكثرة استعمالها في بعض المواقف قد يقلل من جدية الحديث وقيمه العلمية . ومن أمثلتها «الأوراء اللازمة» ، «مؤسسة النال» ، «وما نسيناش نزرر اسم الوادي الجديد» ، «من فوا سطح المحافظة . . إلخ»^(٢)

على أن هناك كلمات معينة لا يمكن أن تنطق إلا بصورة واحدة إما بالهمزة أو بالقاف نظراً لارتباطها الخاص بمستوى ثقافي معين . فكلمة «القرآن» لارتباطها اللغوي واللغوي الفصح لا تنطق إلا بالقاف وكلمة «قرية» تنطق بالطريقة ذاتها لارتباطها الحضاري بالفصحى (قرية الخرطوم وقريبة دمشق . . إلخ) وكذلك كلمة «قديفة» . . وغيرها . ومن ناحية أخرى فالنسبة من «فقر» إذا وصف بها شخص فلا بد وأن تكون بالهمزة لأنها ترتبط بالتعبيرات الشعبية . مثال ذلك «راجل فأري» لا فقري . بينما يجوز الوجهان إذا كانت النسبة لفقر الظهر مع ترجيح استخدام القاف لارتفاع الكلمة من الناحية الثقافية فيقال «العمود الفقري» وقد يقال «العمود الفأري» في حالات قليلة . إذ يستأص عن هذا التعبير في مستوى عامية الأميين بتعبير «سلسلة الظهر» .

(١) كل هذه الأمثلة مأخوذة عضواً من إحدى حلقات «السندباد الصغير» للأستاذ ماجد عبد الرزاق في زيارة محافظة الوادي الجديد .

(٢) البرنامج السابق .

(ج) صوت همزة :

يجل بصوت همزة في المستويات العامية كلها تغييرات يكون من أثرها - وطبقاً لقواعد وقوانين محددة - أما حذف بعض أفراد هذا الصوت أو تغيير بعضها إلى أصوات أخرى أو الإبقاء على بعضها الآخر . وحدث ذلك لصوت همزة في العاميات مسألة «طبيعية» ناتجة أو مصاحبة للتغييرات التي حدثت أو تحدث لصوت القاف عند انتقاله للعامية . ذلك أنه لما كان صوت القاف الفصحى يتحول إلى همزة في العامية ، في الوقت الذي يوجد فيه صوت همزة أصيل ، كان من الطبيعي أن يجري على ذلك الصوت الأخير بعض التغييرات حتى لا يحدث لبس أو خلط بوقع في الإبهام ويهدم نظام اللغة من أساسه وخاصة في الحالات المشتبهة صوتياً . ونضرب على ذلك المثال التالي :

كلمة «فقر» الفصيحة تحولت في المستويات العامية إلى «فأر» ولكن لما كان في اللغة فعلاً كلمة أخرى تنطق في أصواتها مع الصورة الجديدة لكلمة «فقر» وهي كلمة «فأر» الدالة على الحيوان القارض ، ولما كان من الممكن أن يحدث لبس بين الكلمتين أو مشتقاتهما في العامية فقد صاحب التغيير الأول في كلمة «فقر» تغيير آخر في كلمة «فأر» . . الدالة على الحيوان تحولت بمقتضاه إلى صورة جديدة هي «فارة» . . بتسهيل همزة ، كما يقول الاصطلاح النحوي القديم . وبذلك بقي التفريق بين الكلمتين وإن كانت علاماته قد تغيرت .

أما القواعد التي تسير عليها تغيير همزة من الفصحى إلى العامية فيمكن لنا من المقارنات التي معناها - أن نلخصها في الاتجاهات العامة الآتية :

١ - همزة الواقعة في آخر الكلمة في الفصحى : تحذف هذه همزة في العامية . وإذا كان ما قبلها مدأ تحول إلى حركة قصيرة ، وإذا كان ما قبلها حركة قصيرة حذفت . مثال ذلك : الكلمتان الفصحيتان «بناء» و«سما» تصحان في العامية «بنا» و«سما» والكلمة الفصيحة «في» - وهي تنهى بياء مشددة يتلوهما كسرة ثم همزة - ولذلك تحذف همزتها وتسقط الحركة القصيرة التي كانت قبلها أي الكسرة فتصبح في العامية «في» بالسكون أما مثل «ضوء» و«داه» مما لم تسقط فيه همزة فهو من قاموس مستويات العربية المعاصر

عامية المثقفين وحكمه لذلك يقوم على أسس أخرى سنذكرها فيما بعد . ويستثنى من القاعدة المذكورة كلمة « ماء » التي يقابلها في العامية « ميه » .

٢ - الهمزة الواقعة في وسط الكلمة : تتحول هذه الهمزة إلى شيء آخر تحدد طبيعته عوامل مختلفة تقوم على نوعية الأصوات المجاورة لها . وذلك على النحو التالي :

(أ) تتحول الهمزة إلى كسرة وتندمج في الكسرة التي قبلها لتصبحا معاً « يا » و « آ » إذا وقعت ساكنة يتلوها صحيح ساكن . مثال ذلك « ذئب » و « بُر » اللتان يقابلهما في العامية « ديب » و « بير » .

(ب) تتحول الهمزة إلى فتحة وتندمج في الفتحة التي قبلها لتصبحا معاً « ألف » و « آ » إذا وقعت ساكنة يتلوها صحيح ساكن مثال ذلك « فأر » و « فأس » اللتان يقابلهما في العامية « فار » و « فاس » أما إذا كانت الهمزة أصلها القاف فتبقى في العامية على حالها ، مثل « عال » و « نال » . إلخ . . أما الفعل العامى المسند إلى ضمير المتكلم المفرد « أريت » الذي يقابله في الفصحى « قرأت » فلم يصبح « أرات » على مقتضى القاعدة المذكورة لأن الهمزة سقطت من الفعل في حالة عدم إسناده ليصبح « أرا الجوزال » . فلما أضيفت انشاء صار « أريت الجوزال » . إلخ وسنذكر فيما بعد سبب ورود « بأس » على حالها بدون تغيير في العامية .

(ج) تتحول الهمزة إلى ضمة وتندمج في الضمة التي قبلها لتصبحا معاً « واو » و « آ » إذا وقعت ساكنة يتلوها ساكن صحيح مثل « شوم » التي يقابلها في العامية « شوم » . أما إذا كانت الهمزة في العامية أصلها القاف في الفصحى تبقى على حالها همزة في العامية مثل « عاب السجارة » وسببها في العامية بعد سبب بقاء كلمة « لوم » على حالها بدون تغيير في العامية .

(د) تتحول الهمزة إلى « ياء شبيهة باللين » إذا سبقها ألف المد وكان بعدها كسرة أو فتحة مثال ذلك « ضرائب » و « نائم » و « مائل » التي يقابلها في العامية « ضرايب » و « نايم » و « مايل » . إلخ . . وكذلك « ملاءة » و « عباءة » اللتان تقابلهما في العامية « ملاية » و « عباية » .

(هـ) كان مقتضى القياس أن تتحول الهمزة إلى واو شبيهة بالصحيح إذا سبقها

ألف المد وكان بعدها ضمة . غير أن الكلمات التي وقعت تحت يدى (وربما كانت هناك أخرى قد غابت عن ملاحظتى) هذه الكلمات - ومثلها كلمة « تشاؤم » - هي من مستوى ثقافى أعلى من المستوى الذى يكثر فيه تحول الهمزة إلى أصوات أخرى . ولذلك لا يمكننا الحكم على طبيعة هذا النوع .

(و) تبقى الهمزة على حالها إذا وقعت متوسطة بين حركتين من جنس واحد . مثل « سأل عليه » و « الواحد سئم منه » .

٣ - الهمزة الواقعة في أول الكلمة : لا يلحقها تغيير من نوع منتظم . فهى مقبولة قاعدياً ، مثل أبيض وأحمر . إلخ . ومع ذلك ففي اللغة اتجاه إلى الإقلال من هذا النوع ولعل هذا هو السبب في الاستعاضة مثلاً عن الأفعال التي تتعدى بالهمزة بتلك التي تتعدى بالتضعيف . فبدلاً من « أقعد » و « أخرج » و « أنزل » . إلخ . نرى العامية تستخدم « أعد » و « خرّج » و « نزل » . إلخ . أما « أخرج » المستخلصة في العامية في مثل « حسام مصطفي هو اللي أخرج الفيلم ده » فمرجع وجودها إلى تبعية هذا الاستعمال لمستوى عامية المثقفين على ما سيأتى بيانه .

على أن نسبة تغير الهمزة إلى أصوات أخرى تختلف من مستوى إلى آخر . فأقل ما تكون في عامية المثقفين ، وتزداد ظهوراً كلما تدرجنا في الهبوط إلى مستوى عامية الأميين حيث تصل فيها نسبة التغيير إلى أعلى ما تكون . وليس هذا من قبيل الصدفة . بل إنه يتفق مع الصفات الصوتية الأخرى المصاحبة له في اللغة وهو تغير صوت القاف وتحوله إلى همزة . فلما كان تغير صوت القاف يزداد نسبياً كلما تدرجنا في الهبوط إلى عامية الأميين وكان تغير صوت الهمزة إلى حركة مرتبطاً - في رأينا - بتغير صوت القاف ، وتحوله إلى همزة ، كان من « المقبول » أن يتبع صوت الهمزة في سيره خطأً مشابهاً للخط الذى يتبعه صوت القاف . ومن الممكن أن يقال بعبارة تصويرية (وإن كانت غير علمية) : إنه « كانت أفراد من صوت الهمزة تحل مواقعها لبعثتها أفراد من صوت القاف كانت نسبة الإخلاء تنفق طرداً وعكساً مع نسبة الملء » .

وتنفرد عامية المثقفين عن مستوى العامية الذين يتأوانها بظهور صوت الهمزة فيها بكثرة في مواقع الوسط والنهاية التي سبق الحليبت عنها مثل : « اللجوء السياسى »

و «سوء المعاملة» و «ردامة الصنف» ... إلخ . كما تنفرد أيضاً عن مستوى الفصحى الذين سبقها بتحول بعض أفراد صوت الهزمة في المواقع المذكورة إلى أصوات أخرى .

فخبراء البترول المصريون يتحدثون في التليفزيون مثلاً عن «بئر جديد» وعن «بئر جديد» كما يتحدث البعض عن «اراية الجرايد» أو عن «قراءة الجرايد» ... إلخ .

لعلنا أن ظهور الهزمة في الحديث العامي في المواقع الوسطى والأخيرة من الكلمات - مثلها في ذلك مثل ظهور القاف - هي من الأمور التي ترتفع بمستوى الحديث وتدخله في نطاق عامة المثقفين . ولهذا نرى بعض الكلمات التي لم تدخل بعد في نطاق الاستخدام الشعبي وكذلك الكلمات التي لا تزال تحتفظ بأصلها النفاقي على الرغم من استخدامها في المستويات العامة الثلاثة - نرى كل هذه الكلمات لا تستعمل إلا بصوت الهزمة ولا يجوز تغييره فيها إلى شيء آخر على الرغم من خضوعه نظرياً للقواعد التي أشرنا إليها من قبل . مثال ذلك : كلمة «بأس» التي لا تختلف في بنيتها عن كلمة «فأس» ، ومع ذلك فإنها تستخدم بالهزمة دائماً . وعبرة «لا بأس عليك» وجوابها «ما رأيت بأس» على الرغم من كثرة استعمالها في كل المستويات إلا أنهما ذاتا طابع فصيح بدليل استخدام الفعل «رأيت» وبالهزمة أيضاً بدلا من الفعل العامي «شفت» فاللغة العامة تستخدم عادة «شفت» إلا في بعض التعبيرات المتوارثة عن الفصحى والتي يمكن أن تعتبر تسرباً أو بقايا منها في العامة ، ومثاله أيضاً «رأيت على الله خير» ...

الحركات :

١ - يتغير نظام الحركات ابتداء من هذا المستوى تغيراً جذرياً . ففي مستوى الفصحى السابقين يوجد ست حركات : ثلاث قصار هي الضمة والكسرة والفتحة ، ومثلها حركة السين في العبارات الآتية : «سرت من عملك» ، «سر على بركة الله» و «سرفي عملك» وثلاث طوال هي واو المد وياء المد وألف المد ومثلها المد الذي يتلو السين في الكلمات الآتية : سور وسيره وسار . أما في مستوى عامة المثقفين فهناك نوعان من الحركة الطويلة أو المدد إلى جانب ستة مماثلة للست السابقة . هاتان

الحركتان الإضافيتان هما :

(١) حركة طويلة - أو مدة - متوسطة بين الفتحة الطويلة والكسرة الطويلة (أى مماثلة صوتياً - لا وظيفياً - لما جرى التحويين القدامى على تسميته بالألف المعالة) . ومثلها المدة الموجودة بين الحاء والذوق في منى كلمة فلاح في مثل عبارة : «ماشفتش غير فلاحين اثنين» (ويستضع فوقها علامة المد لتمييزها عن ياء المد الخالصة وهذه العلامة موجودة بسهولة في المطبعة) وهذه الياء مغايرة للياء الموجودة في جمع نفس الكلمة في عبارة «فيه ثلاث فلاحين بره» .

(ب) واو مد متوسطة . مثلها حركة الراء في مثل التعبير «ياروح ما بعدك روح» (ويستضع فوقها علامة المد - لتمييزها عن واو المد الخالصة) وواو المد المتوسطة هذه تختلف عن واو المد السابقة والتي يمثلها المد في فعل الأمر العامي «روح» في التعبير «روح نادى له» .

وهاتان الحركتان الإضافيتان في العامة هما نتيجة لتطور صوتي حدث في صوتين من أصوات الفصحى عند انتقالهما للعامة : الأولى الحركة المركبة من الفتحة والياء الشبيهة باللين في مثل وكديش وكليش التي تطورت إلى حركة خالصة ولديش وكليش . والثاني الحركة المركبة من الفتحة والواو الشبيهة باللين في مثل : صوم ، وخوف والتي تطورت وأصبحت واو مد متوسطة في مثل صوم ، وخوف .

٢ - وعلى الرغم من حدوث التطور المذكور في الحركتين المركبتين فإن عامة المثقفين لم تتخلص من هاتين الحركتين المركبتين نهائياً . فقد استبقتهما إلى جانب الصوتين الجديدين . ونحن نسمع في حديث المثقفين من يقول «الخوف من الظلام» ومن يقول «الخوف من الظلام» .

٣ - تطور آخر لا في أصوات اللين نفسها هذه المرة بل في طريقة توزيعها داخل الكلمة . فنظام الكلمة العامة يقضي بأن ينحصر ظهور الحركة الطويلة إما في المقطع الأخير أو في المقطع قبل الأخير من الكلمة . وكتيجة لهذا التحديد على حرية الحركة الطويلة يجري تغيير على الكلمات الفصحى عند انتقالها إلى العامة . فإذا كان في الكلمة حركة طويلة في غير هذين الموقعين قصرت أو أعيد تنظيم مقاطعها بطريقة تدخلها في

القراب المسوح بها . مثال ذلك « فاطمة تناقشت في المسألة » . ففي نطقها الفصحى توجد ألف المد في المقطع الثالث قبل الأخير في كلمة « فاطمة » (فا) وفي الثاني قبل الأخير في كلمة « تناقشت » (نا) . ولما كانت هذه المواضع مما لا يسمح فيه بمد في العامية فلذلك تنطق في العامية « فطنه » و « فطنه » انتأشت في المسألة « بدون أى من الحركات الطويلة . وحتى إذا نودي بكلمة « فطنه » من بعيد فإنها تصيح « فاطنه » (بتسكين الظاء) بألف مد في المقطع قبل الأخير حسب القواعد المذكورة . وإن أضيفت لها : « يا » النداء مع بقاء ألف المد بعد الفاء — كما يحدث في النطق النسائي فإن المد في « يا » النداء يخفى لتصبح « يافطنه » حسب القواعد العامة .

وعلى الرغم من حدوث هذا التطور فإن عامية المثقفين — هنا أيضاً — قد احتفظت لنفسها بالنظامين معاً . فتستخدم نظام الفصحى في الأنماط العليا بينما تستخدم نظام العامية في سواها . وقد تجمع بين النظامين في نفس الوقت دون حرج أو تنافر . فكثيراً ما نسمع عبارة مثل : « المناقشة في الأمور دى .. مفبهاش غابدة » .

(ب) بنية الكلمات :

نظراً إلى أن هذا المستوى هو باب العامية وأول مستوى فيها ينصل بالفصحى فإن تغييرات كثيرة في صفات الفصحى تحدث عند انتقالها إليه ، ومنها بنية الكلمات . وليس غرضنا هنا أن نحيط بهذه التغييرات إحاطة استقصاء ، فإن ذلك يخرجنا عن غرضنا الأساسي من بحثنا هذا وهو بيان انعطوط العربية التي تعين حدود الموضوع وتفصل بين كل مستوى وآخر . ولكننا سنأخذ عينات من التغييرات التي تلحق بنية الكلمات هنا والتي توضح صفاتها وتفرق بينها وبين مقابلاتها في مستوى الفصحى السابقين . كما سنشير إشارة سريعة إلى بعض الصفات التي ستخذها أساساً لبيان بعض الفروق بين عامية المثقفين وغيرها من العاميات .

١ — الإشارة : يتقلص نظام الإشارة في هذا المستوى إلى ما يتكون من خمسة أفراد فقط ١٥ للمفرد ودى للمفردة ودول لما فوق ذلك من المؤنث والمذكر ، وهنا للمكان القريب ، وهناك للمكان البعيد . وذلك في مقابل نظام فصيح يتكون من حوالي ١٣ فرداً .

٢ — الموصول : كذلك يتقلص نظام الموصول من عشرة أفراد في الفصحى إلى فرد واحد فقط في مستويات العامية كلها هو « اللي » .

٣ — نظام التثنية : يتأثر نظام التثنية هنا أيضاً بنفس الطريقة التي يتأثر بها النظامان السابقان . فبعد أن كانت التثنية تدخل في الفصحى على الضمائر « هما » وعلى الإشارة مذكراً ومؤنثاً « هذان » و « هاتان » وعلى الموصول مؤنثه ومذكوره « اللذان » و « اللتان » وعلى الأسماء مذكراً ومؤنثاً « طفلان » و « طفلتان » وعلى الصفات مذكراً ومؤنثاً « طويلان » و « طويلتان » وفي الأفعال « يضربان » — نراها تقتصر في العامية على المدخول في الأسماء فقط . « كليلين » و « قطينين » .. إلخ .

٤ — نظام الجمع : يتسع معنى صيغة الجمع في مستويات العامية الثلاثة . فنظراً إلى أن صيغة المثني تقتصر على الاسم فقط دون الصفات والصفات ... إلخ — على ما سبق بيانه — فإن صيغة الجمع تحمل محلها فعنى صيغة الجمع في الفصحى « ما فوق الإثنين » بينما معناها في العامية (فيما عدا حالة جمع الاسم) ما فوق الواحد . فكلمة « دول » أو « طول » يمكن أن تكون دالة على اثنين أو أكثر من اثنين . مثال ذلك : « الراجلين الطوال دول » حيث تدلان على اثنين و « الرجال الطوال دول » حيث تدلان على أكثر من اثنين .

تغير آخر يحل بنظام الجمع في مستويات العامية هو اختفاء صيغة جمع المؤنث في كثير من الحالات . فبينما توجد في الفصحى صيغ خاصة بجمع المذكر وأخرى بجمع المؤنث في الضمائر والإشارة والموصول والاسم والصفة ... إلخ . لا يوجد في العامية صيغة خاصة بجمع المؤنث إلا في حالة الاسم فقط مثل « مدرسات » و « ممرضات » . أما في بقية الحالات فإن صيغة جمع المذكر تحمل عمل صيغة جمع المؤنث إلى جانب دلالتها الأصلية على جمع المذكر . مثال ذلك :

« الأولاد دول شطار » و « البنات دول شطار » ... إلخ .

ويج ذلك فتمتاز عامية المثقفين بظهور بعض الحالات التي تنفق مع الفصحى في حالة الجمع . مثال ذلك ما جاء في حديث للسيدة صفية المهندس (سنمطى بعض التفصيلات عنه بعد قليل) . فقد جرى الحديث بنمط مرتفع من أنماط عامية المثقفين

وجاء فيه مثالان للفعل المضارع المتصل بنون النسوة : « ينتظرن » . « يتكبن » وذلك في السياق التالي :

« ... صحیح الدولة / مهتمه اهتمام كبير / في خفض مستوى الأسعار في بلدنا / لكن ربة البيت / لازم تشارك / وتساعد اهتمام الدولة / على تحمقق هذا الهدف / بعدم الاتساق الفردى وراء الحصول على أى سلعة / بغير سعرها الرسمى / . بينما هناك عدد كبير من زميلاتنا ربوات البيوت / ينتظرن تخفيض السعر / ليتممكن من الشراء . »

الصيغ الفعلية :

يحل بالصيغ الفعلية في مستويات العامية الثلاث تغييرات أكثر من أن نحيط بها فيما نحن بصددده هنا . ولذلك فسنبكى منها ببعض الخطوط العريضة التي تبين الصنات العامة للمستويات :

١ - صيغة المبني للمجهول : تحل صيغة المطاوعة المعروفة في الفصحى بعد تعرضها لبعض التغييرات الصوتية التي تتفق مع نظم العامية محل صيغة المبني للمجهول فتدل دلالاتها في العاميات . فبدلاً من « كسبر الزجاج » في الفصحى يقال في العاميات « الأزاز اتكسر » و « الباب اتفتح » ... إلخ . ومع ذلك فإن عامية المثقفين تتماز عن بقية المستويات الأربع الأخرى لأنها تجمع بين النوعين من الصيغ : فقد نسمع المتحدثين في التليزيون يقولون مثلاً : « فقرة من الیوجا يتقدم لأول مرة في التليزيون » و « بتدروس في الجامعات » و « بيولد طفل كل سانية في الجمهورية » و « بيؤخذ قضية مسلم بها ... » و « بيعطى قدر من الأهمية » و « بيتقال أنا ... » باستعمال صيغة المبني للمجهول كما وردت في الفصحى بعد تعديلها بإدخال « اللاصقة » ، الذاتة في المضارع على العادة أو الاستمرار . وقد تستخدم بدون تعديل مثل : « فيه أمل إن المرضي دول يشفوا ... » . كما قد نسمع من يقول : « أتوجد في السوق بكسرة » باستعمال صيغة المطاوعة .

٢ - المضارع الدال على العادة أو الطبع : تستخدم الفصحى صيغة الفعل المضارع بدون أية زوائد للدلالة على العادات الشخصية مثل « على يجب البرتقال » و « أنا أعرف السباحة » . . . إلخ . ولكن المستويات العامية كلها بما في ذلك عامية المثقفين طورت هذه الصيغة بإضافة اللاصقة « ب » في مقدمتها

مثال ذلك : « على يحب البرتقال » أنا باعرف أعوم » إلخ . وكما هو الحال بالنسبة لكثير من الصفات اللغوية التي تفرق المستويات العامية الثلاث عن مستوى الفصحى - نرى عامية المثقفين بما لها من وضع متوسط بين هذين الجانبين تستخدم البناءون معاً في التعبير . أى المضارع المباهة باللاصقة « ب » و المضارع المجرد للدلالة على نسر المعنى .

٣ - صيغة الفعل الماضي الثلاثي : تتعرض صيغة الفعل الماضي الثلاثي عند انتقالها من الفصحى إلى العامية لتغيرات صوتية تهدف إلى إحلال التناسق الحركي داخلها : فصيغة هذا الفعل في الفصحى قد تكون مفتوحة الأول والثاني مثل « فتح » ، وقد تكون مفتوحة الأول مكسورة الثاني مثل « شرب » ، وقد تكون مفتوحة الأول مرفوعة الثاني مثل « نظف » . فإذا ما انتقلت هذه الصيغ إلى العامية بقيت صيغة « فتح » على حالها لوجود التناسق فيها من الأصل . أما (شرب) فتنتج حركة أولها حركة ثانيتها لتصبح « شرب » في العامية . بينما يوجد خيار في اللوحة في « نظف » فالبعض يتبعون أولها ثانيتها فيقولون : « نُضِف » وغيرهم يكسر الأول والثاني فيقولون « نُضِف » .

٤ - صيغة الفعل الدال على الاستقبال : تحل اللاصقة « ها » أو « حا » محل « السين » و « سرف » .

العدد : يتم في هذا المستوى والمستويات التالية له الانتقال النهائي من صيغ العدد الفصحى إلى صيغ العدد في العامية . ولن نطيل هنا بذكر صيغ الفصحى وما يقابلها من صيغ العامية .

(ح) بنية الجملة :

١ - على الرغم من بقاء بعض آثار الفصحى في هذا المستوى وعلى الرغم من ظهور بعض صفات العامية في مستوى فصحي العصر - على ما سبق بيانه - فإن مستوى عامية المثقفين يشهد التخلص الواعي من النظام النحوي للفصحى . فقد ذكرنا سابقاً أن فصحي العصر لا تجرى في الواقع على السنن التقليدية لنحو العربية على الرغم من اعتقاد الكثيرين غير ذلك . فعدم التزامها بعلامات الإعراب في بعض المواقف وتحقيقتها الإفادة بالرغم من ذلك دليل على أن الإفادة فيها قد انفكت عن هذه العلامات وأصبحت متوقفة على شيء آخر هو ترتيب الجملة . والعلامات التي ترد في بعض الأحيان

أصبحت في الواقع غير ذات موضوع بعد أن تجردت من الوظيفة التي كانت لها أصلاً .

وبنية عامية المثقفين من الناحية التركيبية لا تختلف أساساً عن بنية فصحي العصر للسبب السابق ، وإن كان المتكلمون يعتقدون أن الثانية فقط هي التي لا تستخدم علامات الأعراب .

وعلى الرغم من تحلي عامية المثقفين « رسمياً » عن استخدام علامات الإعراب إلا أنه يحدث في بعض الأحيان أن يزين بعض المتحدثين في الإذاعة والتلفزيون أو في بعض المواقف الجادة جملة أو أكثر أثناء الحديث بعلامة أو علامتين من علامات الإعراب . وفي الغالب تكون هذه من العلامات « المضمونة » الواضحة كالفعل أو المجرور وغيره من المواقع التي قد تأتي بسهولة إلى المتحدث دون تفكير أو عناء . وقد اخترت المثال الآتي من حديث للسيدة « صفية المهندس » وجهته إلى ربوات البيوت في برنامجها الشهير « ركن المرأة » . كانت السيدة صفية تتحدث إليهن عن الطريقة التي اتبعتها النساء في إنجلترا لكسر حالة الإضراب التي فرضها عمال الكهرباء على المجتمع الإنجليزي مما تسبب عنه أضرار بالغة للمواطنين هناك . وقد استخدمت المتحدثة المستوى الذي نسميه هنا عامية المثقفين وصفاته الصوتية والبنائية والتركيبية التي شرحتها بعضها . ولم تكن بالطبع تستخدم علامات الإعراب ، ولكنها مع ذلك طعمت حديثها - بغير قصد على ما أعتقد - بجملته أو اثنتين ظهرت فيهما هذه العلامات . قالت : « . . . ربوات البيوت ما اكتفوس بكد . / بل أسعوا نفسهم في كل منطقة من مناطق الخدمات / رى محطات البنزين / محلات البقالة والحزارة / وطلبوا من أصحاب هزه المحلات / التعاون معهم / ورفض التعامل مع عمال الكهرباء / ومع زوجاتهم / والامتناع عن بيع أى مواد غذائية ... / إلخ » . فهي قد أعربت كلمات « برفض » و « عمال » و « زوجاتهم » (وكلها مجرورة بعوامل جر واضحة) كما أنها نطقت كلمة « الكهرباء » بصورة « النطق الفصيحة » ولم تقل مثلاً « اكهربا » .

٢ - ونظراً إلى قيام النحو في فصحي العصر أساساً على ترتيب الجملة من ناحية ونظراً إلى ارتفاع مستوى عامية المثقفين وتداخله في مستوى فصحي العصر من ناحية أخرى فإن تركيب الجملة في عامية المثقفين قد لا يختلف عن تركيبها في فصحي العصر . أى من

الممكن أن ترد صور من التعبير في عامية المثقفين تجرى قولها التركيبية على سنن مشابهة لما تجرى عليه القوالب التركيبية لفصحي العصر .

فاجملة في عامية المثقفين لها الغنى والتنوع والتعقيد وتتابع المكونات وتداخلها بالطريقة التي لفصحي العصر - كما سيأتي التمثيل له . ويمكننا - مع التجاوز عن بعض الرخص القليلة والاختصارات النطقية - أن نعتبر عامية المثقفين الجانب اللغوي المنطوق ونعتبر فصحي العصر الجانب المصنوع المكتوب لشيء واحد : هو لغة العصر وليست هذه النظرة إلا اعترافاً بالواقع الذي نعيشه وأملًا في مستقبل أنضر للعربية :

أما كونها اعترافاً بالواقع الذي نعيشه فهذا واضح من كون هذين المستويين قادين - دون سواهما من المستويات الأخرى - على التعبير عن ثقافة العصر وحضارته . فثقافة العصر لا تجد منفذاً مكتوباً إلا في أسبينا « فصحي العصر » كما أنها لا تجد منفذاً منطوقاً وتلقائياً إلا في أسبينا « عامية المثقفين » . فنحن جميعاً نتفق على أن « العامية » (والمقصود بها دائماً العامية الهابطة أو ما أسبينا عامية التنويرين وعامية الأميين) - نحن نتفق على أنها غير قادرة على التعبير عن الحضارة المعاصرة .

أما ما أسبينا « فصحي التراث » فقد كفانا الأستاذ الزيات (١) مؤنة الاستدلال على عجزها في ذلك الميدان . وليس معنى عجز هذه المستويات أنها بذاتها وبطبيعة فيها غير قادرة على الدخول في ذلك الميدان ، بل معنى ذلك أن أهلها لم يفكروا في هذه الميادين ولم تشغلهم مسائلها ، ولم يقتحموا بها ما نسميه بالمستويات الثقافية العليا . ولذلك لم تحتاج إلى خلق وسائل التعبير المناسبة لها . فاللغة - كما يقولون - تعكس طريقة أهلها في التفكير وفي التصرف في حياتهم وألوان معاشهم . وعلى العكس من ذلك فلم نعرف أحداً عجز عن التعبير كتابة أو نطقاً بحضارة العصر وثقافته . كل ما نعرفه هو أن أى إنتاج في هذا الباب يدخل دائماً تحت ما أسبينا الآن « لغة العصر » : الشق المكتوب يندرج تحت فصحي العصر ، والشق المنطوق يندرج تحت عامية المثقفين .

أما كون النظرة السابقة تعكس أملاً في مستقبل أنضر للغة العربية فليس ذلك من

(١) الزيات - المرجع السابق .

قبيل انتهى ، ولكنه يتفق والاتجاه الذي تسير عليه الأمور في الوقت الحاضر . فرؤية عامية المثقفين وفصحى العصر على أنهما وجهان لعملة واحدة - هي لغة العصر - هو تسجيل للتقارب الشديد الذي تم بين العامية والفصحى ، وهو تقارب تم بصورة تلقائية ومن زاوية لم يفكر فيها من يسمون بالمصلحين أو الغرورين على اللغة العربية : التقارب أو التلاقق على جسر الحضارة الحديثة ، هذا الجسر الذي رأى فيه « الغرورون » على اللغة العربية خطراً كبيراً عليها وهدموا وبنوا لها . ومعنى ذلك أن الحضارة الحديثة هي في الواقع عون للغة العربية ، أى أن التقدم في ميادين العلم والفن والأندب بأسباب الرقى والتقدم وبلوغ أقصى ما بلغته وتبلغه حضارة الإنسان هو في الواقع تقوية للغة العربية وتمكين لها . فالحضارة المتقدمة تحتاج في التعبير عنها إلى لغة متقدمة ، واللغة المتقدمة لا تكون إلا إذا واكبها حضارة متقدمة . هكذا يقول علم اللغة وهكذا يشهد تاريخ اللغات .

لا يمكن أن يتم تقدم اللغة العربية بروجعها إلى الوراء . إذ لو تم ذلك - كما يرغب « المصلحون » - فسيبقى ذلك انفصامها عن تكبير أبناء هذا العصر ، أى أن تصبح قوالب فارغة لا تعبر عن شيء ذى بال . وكيف يكون هاوماً وحيوياً ، ما لاحياة فيه ولا وغناء معه . وليس هذا دفاعاً عن اللغة العربية أو تمجيداً لها - فليست هذه مهمتنا - ولكنه تسجيل وبيان لخط التطور الذي سارت عليه اللغة العربية ونعتقد أنها ستسير عليه في المستقبل . وهل كان من قبيل الصدفة أن فترات الازدهار في تاريخ اللغة العربية وحياتها كانت دائماً موازية لفترات الازدهار في تاريخ ثقافة العرب وحياتهم ؟

ولا يحتاج المرء إلى بحث طويل لاكتشاف التوازي الواضح بين التركيب النحوي في عامية المثقفين وفي فصحى العصر . وهذا نموذج مأخوذ من حديث السيدة صفية المهندس المشار إليه من قبل . وباستثناء بعض الصفات الصوتية مثل حلول الهزرة محل القاف في بعض المواضع ، وحلول ياء المد محل الحركة المركبة من الفتحة والياء الساكنة ، واستخدام « اللى » في مقام « الذى » - وغير ذلك من الصفات الجزئية التي لا تؤثر على التركيب - باستثناء هذه الأمور فإننا نلاحظ في هذا النموذج تعقد عبارته وتنوعها وتداخل أجزائها على نسق الصورة التي نتخذها عبارة فصحى العصر :

« من بين الأخبار اللى أريتها / في الصحف الإنجليزية / خبر لإضراب عمال الكهرباء / وبغض النظر عن أسباب الإضراب / وبصرف النظر عن الإضراب نفسه / كوسيلة من وسائل الضغط / في المجتمعات الرأسمالية / إلا أن اللى لفت نظرى / هو موقف ربوات البيوت هناك / من هذا الإضراب . / اللى حصل أن ربوات البيوت في إنجلترا / مندروس يفسروا إضراب عمال الكهرباء / إلا أنه هيسب لم أضرار كبيرة جداً . / فكانت النتيجة انهم تجمعوا / وراحوا على المكان / اللى متجمعين فيه العمال المضربين / وهاجموم / واعندوا عليهم بالضرب / كنوع من الاحتجاج / على هذا السلوك / غير الإنساني / في تصرف عمال الكهرباء / واللى سب لربوات البيوت / عدد كبير من الأضرار . / ... »

فن الواضح في عبارة هذا النموذج أنها تكاد تكون عبارة فصحى وخاصة الجملة المعقدة التي تبدأ بـ « وبغض النظر ... » .

٣ - على أننا عندما نقول بوجود التوازي بين جملة فصحى العصر وجملة عامية المثقفين من الناحية التركيبية وفي أنهما سواء في إهمالهما الإعراب - لا ينبغي أن نغفل وجود فارق بين الاثنين - وأن يكن فارقاً شكلياً إلا أنه يعطى مظهراً مختلفاً للصورة الخارجية لكل منهما . هذا الفارق هو الخلاف الشكلى في النقاط التي يجرى عليها الإعراب بالحروف . فهي في عامية المثقفين تأخذ شكلاً ثابتاً لا يتغير في العادة مثل : « وراحوا على المكان اللى متجمعين فيه العمال المضربين » في العبارة السابقة . أما في فصحى العصر فإن هناك محاولة قد تنجح وقد تفشل في استخدام علامات أو حروف الإعراب الصحيحة طبقاً لمقتضيات الجملة .

٤ - وليس الفارق السابق هو الأخير بين بنية الجملة في كل من المستويين فهناك الفارق الواضح بينهما في نظام النفي . فبينما يتم النفي في الفصحى بالطرق التي جاءت كتب النحو على ذكرها نرى النفي في العامية يتبع طرقاً مختلفة عن طرق الفصحى اختلافاً واضحاً . ويكفى أن نشير هنا إلى بعض هذه الطرق دون محاولة لاستقصائها حرصاً على عدم الإطالة وعلى عدم الخروج عن المنهج المرسوم لهذا البحث :

ففى الفعل الذى لم يسبق بقسم يكون بأن تسبقه « ما » وتلحقه « ش » من آخره . مثل : « ماجاش عندى » و « ماتكلمش حد غريب » . وفى الفعل المسبوق بالقسم

يكون بأن تتوسط بينه وبين أداة القسم « ما » ولا تتصل به « ش » . مثاله : « والله العظيم ماشفته » . ونفى غير الفعل يكون بأن تسيقه الأداة « مش » . مثل « دامش كتابي » و « على مش جوا » ونفى شبه الجملة المقدمة على المبدأ النكرة ، وكذلك كلمة « حد » في أول الجملة يتبع طريقة نفي الفعل أيضاً . مثل : « مالکش عزر » و « ماعندکش حاجه » و « مامعکش جنبه سلف ؟ » و « ماحدش أحسن من حد » ... إلخ .

وهذا الاختلاف في طرق النفي يعطى كلا من المستويين مظهراً مختلفاً عن مظهر الآخر . ومع ذلك فإن عامة المثقفين تستخدم نظام الفصحى أيضاً في النفي إلى جانب النظام العامي . مثال ذلك : « لم يستفد إنسان من الخطة دي » .

٥ - ومن الفروق التي تستحق الإشارة إليها هنا قاعة ظهور الجملة الفعلية في عامة المثقفين بالمقارنة مع فصحي العصر . فكما أشرنا في غير هذا المكان تمثل الجملة الفعلية صفة من صفات فصحي التراث تختق كلما هبطنا تدريجياً في أنماط المستويات الخمس إلى أن تختفي تماماً أو تكاد في عامة الأميين . على أن نصيب عامة المثقفين من هذا النوع من البنية يختلف باختلاف الموضوعات واختلاف المتكلمين بالطبع . ومن الأمثلة التي تستخدم فيها الجملة الفعلية وفي صورة تجريدية وإن كانت منتظمة . التركيب الآتي ، وهو شائع ومشهور :

« يحصل أننا نكون مجهزين عينة في العمل ، ومُخترين جميع الاحتمالات اللازمة . ولكن نكتشف ... إلخ » .

ومع ذلك فظهور هذا النوع من البنية لا تحكمه قواعد سوى الاختيار . ومن الأمثلة أيضاً : (الجملة التالية مأخوذة من مسرحية تليفزيونية) :

« أهملت نفسك وأهملت دروسك . أصبحت حياتك المهامش معنى ... » .

٦ - ومن الصفات الواضحة جداً في عامة المثقفين والتي تميزها - لا عن فصحي العصر هذه المرة - بل عن عامة المتورين وعامة الأميين على ما سيأتي بيانه - هذه الصفة هي استخدام صيغة المصدر بكثرة جداً إما بمفردها وإما بعد حروف الجر وإما بالإضافة ... إلخ . مثل : « اليرجا بتساعد على إيجاد الانسجام بين الصحة الجسدية

والصحة النفسية ... » وسيأتي بعض التفصيل لهذه الخبيصة عند الحديث عن مستويي العامة الآخرين .

٤ - الصفات اللغوية التي تميز عامة المتورين :

عامة المتورين هي المستوى المقصود عند إطلاق كلمة العامة في كتابات الكتاب العرب وغير العرب على السواء . وهي تختلف عن لغة « أولاد البلد » التي يتحدث عنها بعض الكتاب . والتي سيأتي الحديث عنها عند الحديث عن المستوى الخامس .

وتمتاز عامة المتورين بأنها لغة عمالية ، متباعدة عن المجرىات . لغة البيع والشراء والمعاملات والسؤال عن الصحة والأحوال والأهل والأصدقاء ... إلخ . ولذلك فمحصولها اللغوي قليل نسبياً وغير متنوع . ولا يقدح ذلك في قيمتها ولا يقال من شأنها ، فهذا هو الدور الذي وكل بها وهي تؤديه بنجاح . والإتهامات التي تكال « للغة العامة » على الإطلاق وتزيرها بالعجز والتقصير إنما ترجع في الحقيقة إلى التسوية بينها وبين عامة المتورين بينما هي في الواقع (أي عامة المتورين) ليست إلا جانباً من « العامة » . ومن الأمثلة على هذه الإتهامات التي لم تصادف موضعاً مقال لاندكتور وافي جاء فيه :

« فاللهجة العامة التي يرى أصحاب هذا الاتجاه استخدامها في الشؤون التي تستخدم فيها العربية الفصحى لهجة فقيرة كل الفقرى مفرداتها . فلا يشتمل منها على أكثر من المفردات الضرورية للحديث العادي . وهي إلى كل ذلك مضطربة كل الاضطراب في قواعدها (كذا ١) وأساليبها ومعاني ألفاظها وتحديد وظائف الكلمات في جملتها وربط الألفاظ والجمل بعضها ببعض . وأداة هذا شأنها لا تقوى مطلقاً على التعبير عن المعاني الدقيقة ، ولا عن حقائق الآداب والعلوم والإنتاج الفكرى المنظم . ولا أدل على ذلك من أننا في حديثنا العادي نفسه كثيراً ما نضطر إلى استخدام العربية الفصحى حينما نكون بصدد التعبير عن حقائق منظمة وأفكار متسلسلة . لا تفعل ذلك للمباهاة أو إظهار القدرة على التعبير الفصيح ، وإنما تفعله مضطراً لأننا نرى أن العامة لا تسعفا في مفرداتها ولا في قواعدها بما يضبط تفكيرنا وينقله نقلاً صحيحاً إلى الأذهان » (١) .

(١) ذكور على عبد الواحد وافي « حول استخدام العامة في الكتابة » جريدة الأخبار ٧ - ٧ - ١٩٧٠ الملحق الأدبي .

فواضح أن الكاتب لا يشير في حديثه إلى المستوى الذى أطلقنا عليه اسم « عامية المثقفين » وإلا لما قال : « إن العامية لا تسعفتنا في مفرداتها ولا في قواعدها بما يضبط تفكيرنا وينقله نقلاً صحيحاً إلى الأذهان ». مستوى عامية المثقفين ليس من مستويات الفصحى على الإطلاق ، وهو في الوقت ذاته قادر على نقل أدق الأفكار وأكثرها تجريباً . بل لا أحسبني مغالياً إذا قلت هنا أن ما أسماه « فصحي العصر » هو محاولة — قد تنجح وقد تفشل — في التعبير بصعوبة تقل أو تكثر عما تعبر عنه عامية المثقفين بنقائية وإحساس صادقين . أما ما يقصده حقاً في مقاله فهو هذا المستوى الذى نحن بصدد الحديث عنه وهو مستوى عامية المنورين وهو ليس مساوياً « للعامية » على إطلاقها بحال من الأحوال . هذا إلى أنه لا يمكن لنا أن نتفق مع الكاتب في وصفه للعامية (حتى لو كان يقصد بذلك عامية المنورين) بأنها « مضطربة كل الاضطراب في قواعدها ، وأساليبها ومعاني ألفاظها وتجاويد وظائف الكلمات في جعلها وربط الألفاظ والحمل بعضها ببعض » . ولئن تدخل في كثير من المحادلات للاحتجاج لصحة الرأى الذى نعصده . بل يكفى إن نقول أن نجاح العامية في تحقيق التفاهم بين مستخدميها دليل على اضطراب قواعدها ودليل على دقة أساليبها وتحديد معاني ألفاظها ووظائف كلماتها ... إلخ . فلو لم تكن لها قواعد مضبوطة لما أمكن استخدامها في التفاهم بين أى عدد من الناس حتى ولو كان هذا العدد شخصين فقط .

أما الأشخاص الذين يستخدمون عامية المنورين ففهم — على العكس من مستخدمى عامية المثقفين — خليط من أشخاص ذوى خلفيات متعددة : فإلى جانب ذوى الثقافات المحدودة الذين يستخدمونها كلفة أساسية لهم نرى المثقفين يستخدمونها في المواقف العملية والأمور السطحية ، كما يستخدمونها في الأحاديث الخفيفة والفتشات والنكت والمفاكهات وما أشبه ...

كذلك تختلف هذه العامية عن عامية المثقفين في قلة تأثيرها نسبياً بصفات الفصحى وقواعدها . فهى في الواقع ذات شخصية مستقلة مثلها في ذلك مثل أية لغة قائمة بذاتها . ومع ذلك فالروافد بينها وبين الفصحى جارية غير مقطوعة . بل لا يمكن أن تقطع مادامت الظروف القائمة موجودة . ويرجع السبب في ذلك إلى وجود الصلة التاريخية بينهما من جهة وإلى وجودهما في مجتمع واحد من جهة أخرى .

على أن وجود هذه الصلة التاريخية بين الفصحى وعامية المنورين لا يعنى مطلقاً أن اختلاف بينهما شكلي أو أن البحث عن الكلمات العامية ذات الأصول الفصحى وسيلة لإزالة الاختلاف بينهما ، كما يحلو للبعض أن يظنوا . ويزداد الأمر سوءاً عندما يتخذ هذا البعض من عقيدتهم تلك أساساً لما يسمونه إصلاح العامية أو إحياء الفصحى . وترجع خطورة هذه المحاولات لا لأنها مقضى عليها بالفشل فحسب ، بل لأنها تتخذ من بعض الحقائق الجزئية قشرة تغطى بها صرحاً من الوهم يمسبه الناس حلاً أو طريقاً إلى الحل فيقعّدون عن البحث عن طريق للتخلص من مشكلة ازدواجية اللغة التى يعانى منها المجتمع المصرى والمجتمع العربى على حد سواء .

ويرجع تأصل عامية المنورين وتعمق جذورها في المجتمع إلى أنها « لغة الأم » بالنسبة لمن هم فوق الطبقات الامية في مصر . فهى اللغة التى تكتسب في المهد وفي مدارج الطفولة ، وتتخلل في النفس مع تجارب الحياة الأولى . وتنمو مع نمو الخبرة ، ويعرف الفرد من خلالها على المجتمع من حوله . أو يتعرف عليها من خلال المجتمع من حوله على حد سواء . وما إن يبلغ الطفل العادى السادسة من عمره إلا ويكون قد تملك ناصيتها وسيطر على نظامها وأصبح استعمالها لديه سليقة تكاد تفصل مرتبة العمل الغريزي دون أن يذكر كيف تم له تحصيلها ، بل ودون أن يدري ، ودون أن يرغب في أن يدلى كيف تم له اكتسابها .

ودخول عامية المنورين حياة الطفل في تلك الفترة المبكرة يطبعه بطابعها ويشكل تفكيره تبعاً لنشكلى قوالب البنية فيها ، بل ويشكل نظرتهم إلى الكون ومظاهر الحياة من حوله (كفكرة الزمن والوقت والعدد والجنس وغيرها من الأفكار الكبرى) تبعاً للطريقة التى تتصورها بها تلك اللغة : فثلاً الراس كبيرة — بالتأنيث — والسدر واسع — بالتذكير — والرجل مجروح — بالتأنيث — ومشط الرجل مفروش — بالتذكير — . وهذا التفريق بين تلك الأعضاء لا يقوم على أى سبب واقعى أو « منطقي » . كما لا يتفق مع نظرة الفصحى إليها . فإذا انتقل الطفل بعد ذلك ليتعلم لغة أخرى — سواء أكانت تلك اللغة هى العربية الفصحى أو الإنجليزية مثلا — فإنه ينظر إليها من خلال العامية ، لغة الأم .

فالطفل المصرى بل والمصرى في جميع مراحل عمره نتاج العامية . وكل ما يحصله

من لغات إنما هو تطوير للفكرة الأولى التي نبتت في نفسه الغضة . تلك حقيقة لا أحسب أن هناك خلافاً كبيراً على مدى صحتها . ولا يجوز لذلك أن يكون هناك خلاف على حتمية أخذها في الاعتبار عند أي تخطيط لإعادة تشكيل الصورة اللغوية للمجتمع المصري في المستقبل . إن بلوغ ما ينبغي أن يكون لا بد وأن يبدأ من الاعتراف بما هو كائن فعلاً بل وروثه كما هو كائن فعلاً .

أما الصفات اللغوية التي تميز عامية المنورين وتفرق بينها وبين مستويات الفصحى على الأخص وبين عامية المثقفين أيضاً فهي من الجذرية والكثرة بحيث تستعصى على الحصر في التخطيط السريع الذي رسمناه لأنفسنا هنا . ولذلك فسنعقد منها ما يمتحن لنا الهدف من هذه الدراسة .

(١) الأصوات :

يخفى في هذا المستوى الخيار الذي كان قائماً في عامية المثقفين بين أصوات الفصحى وأصوات العامية . فالمتكلم هنا لا يستطيع مثلاً أن يخرج اسانه ، في كلمة « أسر » ، في عبارة مثل : « والله موت الرجل ده أسر في خالص » ، إذ يتعين في عامية المنورين أصوات العامية إلا في حالات خاصة سيأتي الإشارة إليها . أما الأصوات التي تميز بصفاتها هذا المستوى فبيانها كالآتي :

(١) السواكن .

١ - الأصوات الأسنانية :

أولاً : الكلمات التي بها صوت الئاء في الفصحى .

مثل « ثقل » ، « عثر » ، « برغوث » ... إلخ . ينطق صوت الئاء في هذا المستوى بإحدى طريقتين (لا ثلاثة كما كان الحال في عامية المثقفين) : الطريقة الأولى - وهي الأكثر شيوعاً - بالئاء ، والطريقة الثانية بالسين . وليس معنى ذلك أن للمتكلم الخيار في استخدام الواحدة أو الأخرى في الكلمة الواحدة من كلمات اللغة وأنه يستطيع أن يقول : « تلت ساعة » أو « سلس ساعة » ، فليس ذلك صحيحاً . بل يعني ذلك أن الكلمات التي كانت تحذف على صوت الئاء في الفصحى عندما انتقلت إلى

هذا المستوى أصابها تغير صوتي حول صوت الئاء في معظمها إلى تاء بينما حول الباقي إلى سين .

ونحن في الواقع نتصور أن أصوات الئاء قد مرت في تطورها في العامية بمرحلتين متتاليتين : المرحلة الأولى تحولت فيها الئاء إلى سين . المرحلة الثانية : تحولت فيها السين إلى تاء . وهذا التصور يتفق في الواقع مع التدرج الصوتي في التطور فصوت الئاء ربح أسناني مهموس . وصوت الئاء شديد أسناني لثوي مهموس . وفي المرحلة الأولى يتحول الأسناني إلى أسناني لثوي مع الاحتفاظ بكافة الصفات الأخرى . وفي المرحلة الثانية تحول الرخاوة إلى شدة مع الاحتفاظ ببقية الصفات على حالها . أي أن التطور يصيب صفة واحدة فقط في كل مرحلة . دليلنا على ذلك نستخلصه من فحص الطبيعة الدلالية للكلمات التي تنطق بالسين وتلك التي تنطق بالئاء وتمارزتها معاً : فترى الكلمات التي تنطق بالئاء كلمات أساسية تتصل بجذابة المجتمع الأصلية وبتطور معيشته القديمة مما يحمل على الاعتقاد بأنها كانت من أوائل الكلمات التي انتقلت إلى المجتمع المصري وقت الفتح . ومثالها : تار ، تعبان . طور ، تعلق ، برغوث . نال ، تأب ، بعث ، عثر ، حرث ، تقي ، توم ، إثنين ، تلج ، تمنيه ، تلاته ، كبير ... إلخ . أما الكلمات التي لا زالت تنطق بالسين فهي إما كلمات تتصل بالحضارة الحديثة نسبياً مما يقوي فكرة أنها لم تجدد الوقت الكافي للسبب في شوط التطور إلى نهايته ، ومثالها : « حديس في التليفزيون » و « التهمة سابته عليه » و « السورة » ... إلخ . وأما كلمات تتصل بأمر الدين مما يرجح أن صلتها غير المباشرة بالفصحى وبالوعظ بها ظلت حائلاً بينها وبين التطور الكامل مثل : « ينوبك سواب » و « نصيبه في المراس من جده » ... إلخ . وإما أعلام وهي أقل الكلمات تطوراً نظراً لتوارثها كما هي ومثالها : « بسينة » « الأستاذ سابت » ... إلخ . (بخلاف الثالثة تابهة مثلا) .

ثانياً : الكلمات التي بها صوت الئال في الفصحى :

مثل « ذبل » ، « جابر » ، « ذرة » ، « يسلط هذا الصوت في عامية المنورين سلوكاً موازياً تماماً لسلوك صوت الئاء والذي شرحناه فوق هذا الكلام . فهو أيضاً ينطق بإحدى

طريقتين (لا ثلاثة كما هو الحال في عامة المثقفين) : الطريقة الأولى - وهي الأكثر شيوعاً - بالبدال والطريقة الثانية بالزاي . ولا يوجد خيار أمام المتكلم في نطاق الكلمة الواحدة بإحدى الطريقتين مرة وأطلقها بالطريقة الثانية مرة أخرى ، بل إن الغالبية العظمى من الكلمات التي كانت تشتمل على صوت الذال في الفصحى قد انتقلت إلى عامة المتنورين وأصبحت بصوت الدال بينما تحولت القلة فيها إلى صوت الزاي . وتصورتنا لعملية التطور هذه هي مشابهة لتصورنا لعملية التطور التي أصابت الناء والتي شرحناها فيما سبق . ولذلك نرى كثيراً من الكلمات الأساسية في المجتمع تنطق بصوت الدال . ومثالها : ديب . دان ، مديح . ذكر ، داب ، خد ، بَدَر . بدله ، دراع . ديبيل ، ودن . ديل ، كده ، نقد ، كذب ... إلخ . أما الكلمات التي لا تزال تنطق بالزاي فهي إما كلمات تتصل بالتعبيرات المكتوبة أو المرتفعة ثقافياً مثل : « أما نزيه بشكل » ، « إيه الزل ده ؟ » ، « وا الزخيره خلصت مني ... » ، « القبلة الزرية » ... إلخ . وإما كلمات دينية متأثرة بمنبعها الأصلي وهو الفصحى مثل : « المهرب الشافعي » ، « راجل مجزوب من مجزيب الحسين » ... إلخ .

ثالثاً . الكلمات التي بها صوت الظاء في الفصحى :

مثل : « ظلم » ، « نظر » ، « ظهر » وينطبق على هذا الصوت من القوانين الصوتية ما ينطبق على صوتي الناء والذال ولأفراده نظام مواز للنظام الذي يجمع أفرادهما . أما أفراد صوت الظاء فهما على الترتيب في نسبة الشروع : الضاد والظاء (بدون إخراج اللسان) . ومثال الضاد : ضفر ، ضل ، ضهر ، نضيف ، عضم ، ضلمه ، حفص ، ماعدوش اللص ، يتلامض ، نضاره ، يانضرى . أما الكلمات التي لا زالت تنطق بصوت الظاء الرخو فهي إما كلمات تتصل بألفاظ الحضارة ومعين الثقافة مثل : « يشتمل في المحافظة » ، « خلى عندك نظام » وأما كلمات دينية مثل : « نظره يا حسين » ، « ربنا ما بيقلمش حد » ، « جمعية المحافظة على القرآن الكريم » ... إلخ . وإما أعلام مثل : « نقلى » ، « عبد الحافظ » .

٢ - صوت القاف .

لصوت القاف - في الكلمات التي تشتمل عليه في الفصحى - نطق واحد في

هذا المستوى : هو نطقها بالهمزة (خلافاً لوضعها في عامة المثقفين حيث كان لها بصفة أساسية نطقان : (بالهمزة والقاف) . وصوت القاف في المستويات العامة يثير حساسيات خاصة تجاه مستعمليه ، ويعزهم في الحال عن طبقة العامة ويضعهم بين المثقفين ، بل قد يضعهم في طبقة « المتحذلقين » في رأى بعض الناس . ولذلك فليس عجباً أن يوصف المتحذلق في التعبيرات الشعبية - في بعض ما يوصف به - بأنه « بيتكلم بالألف » . بل تبلغ الحساسية تجاه هذا الصوت إلى درجة أن المتكلم بالتعبير السابق « يتزه » نفسه عن أن يشبه بمن يتكلمون « بالقاف » - ولو هذه المرة فقط - فينطق بأدم حرف القاف (آفأ) بهمزة صارخة تنبو في موضعها وتتصاك أذن المثقف صكاً .

وأمثلة النطق بالقاف همزة لا تخصي . ومنها : « دا » ، « شأ » ، « دنيشة » ، « أخ شئى » ... إلخ . أما ظهور صوت القاف قافاً فهو قابل في هذا المستوى ويرتبط ذلك إما بألفاظ الحضارة الحديثة مثل : « قبلة » (ويوجد كثير من - وخاصة من النساء - من يقولون « أنبله ») « قصة حب » ، « قاعة الشعب في الاتحاد الاشتراكي » وإما بألفاظ الدين مثل : « سورة البقرة » ، « القرآن » .

٣ - صوت الهمزة :

يتحول صوت الهمزة في وسط الكلمة وفي آخرها إلى أصوات أخرى حسب القواعد التي ذكرناها في غير هذا الموضع^(١) ، حيث قررنا أنها تنطبق على المستويات العامة الثلاث بصورة عامة . وتختلف المستويات العامة في نسبة ظهور صوت الهمزة فيها . ويقتصر ذلك في عامة المتنورين على حالات قليلة تكاد تنحصر في التعبيرات المحفوظة مثل : « لا بأس عليك » وبعض ألفاظ الحضارة مثل « الرئيس » (وإن كان هناك نطق أكثر شيوعاً منه هو « الرئيس ») وقليل من الألفاظ المتصلة بالتراث مثل : « المتغائل » و « المتشائم » . ولعل ندرة ظهور صوت القاف في هذا المستوى وتحوله إلى همزة فيه له أثر في ندرة بقاء صوت الهمزة الأصلية فيه على حالها بدون تغيير كما أشرنا إلى شيء من ذلك من قبل^(٢) .

(١) انظر ص ١٦١ - ١٦٤ من هذا الكتاب .

(٢) انظر ص ١٦١ من هذا الكتاب .

٤ - الأصوات المنخفضة : ص / ض / ط / ظ

يصيب هذه الأصوات في مستوى عامة المتنورين قدر كبير من التغيير يتمثل في ناحيتين . الأولى : درجة التضخيم التي تنطق بها .
والثانية : عدد هذه الأصوات ذاتها .

أما من ناحية درجة التضخيم : فيبدو أن المجتمع المصري يربط لغوياً - وبطريقة عكسية - بين درجة التضخيم وبين درجة الرقى الحضارى واتباع قوالب العصر الحديث . فهذه الأصوات تبدأ في فصحي التراث شديدة التضخيم ثم يقل تضخيمها تدريجياً إلى أن تصل إلى عامة المتنورين فنسمع سيدات المجتمع ورائدات «الموضة» فيه يتحدثن عن «الرجال الشيب» التي دحكني خالس ويبلغ ترقيق هذه الأصوات أقصى درجاته لدى النساء . وبين الرجال في بعض المناطق . (وهذه الصفة هي من الظواهر التي يلحظها المرء لأول وهلة في نطق الرجال في الإسكندرية مثلاً . وإن كان الأمر هنا يرجع إلى الخلاف الإقليمي بالطبع) .

وكما ذكرنا سابقاً يبقى في الكلمة من الدلالات الصوتية ما يكفي لأخبار السامع بأن هذا هو الصوت الذي ينطقه الآخرون أو في مستويات أخرى بالتضخيم . فحركة الفتحة بعد الطاء المرققة في كلمة «تيب» لا تتحول من «خلفية» في كلمة «طيب» إلى «أمامية» تماماً ، بل تأخذ لنفسها مركزاً لا يتجاوز منطقة الوسط وقد يميل إلى الخلفية قليلاً ، وإن كان تعيين المكان بالضبط يختلف من شخص إلى آخر .

ولما كان من العسير بيان هذه الفروق الدقيقة في نظام الكتابة الحالي فسكني بإحالة القارئ العربي على خبرته الشخصية بمثل هذه الحالات في المجتمع . وقد سجلت لإحدى مقدمات البرلامج التليفزيوني^(١) ، والنادى الدولي ، أكثر من ثمان أمثلة لهذه الظاهرة في أهل من دقيقة من حديثها . ومنها : أَيْدَا (أيضاً) ، فدَلُوهُ (فضَلُوهُ) ، تبعاً (طبعاً) ، أديَّة (قضية) ، حسل في فرنسا (حصل) .

ومع ذلك فهناك صوت يتصرف في تضخيمه وترقيقه بطريقة عكسية للطريقة التي

(١) تقع لمحة هذه المذمبة في قمة السلم الحضارى بمفهومه القائم على التأثر بمناخ الثقافة الغربية من ناحية وعلى صفات لغة المرأة داخل هذا الإطار من ناحية أخرى .

تتصرف بها بقية الأصوات التي ذكرناها . ذلك هو صوت اللام . فتضخيمه علامة «الموضة» والحضارة ، وخاصة من خواص النساء . وكلما زادت درجة تضخيمه كلما زادت هذه العلاقة وضوحاً . وفي المحادثة التي سجلناها للأستاذ الملائخ والمثلة سميرة أحمد والتي سنذكر نموذجاً منها في آخر هذا الموضوع تبدو هذه الظاهرة واضحة وخاصة في كلمة «بطلة» التي ردها الاثنان بالتبادل . مرتين لكل منهما : بلام شديدة التضخيم في نطق السيدة سميرة وبتضخيم وسط في نطق الأستاذ الملائخ .

وأما من ناحية عدد أصوات التضخيم في عامة المتنورين بالمقارنة مع المستويات السابقة فلإننا نلاحظ أن عامة المتنورين تستخدم من المقابلات التي تعتمد على ظاهرة التضخيم والترقيق من الناحية السمية ما يجعل من اللازم منهجياً أن نعرف فيها بوجود عدد أكثر من الأربعة التقليدية المذكورة (الطاء والظاء والصاد والضاد) . فالمقابلة بين (راسى) بالتضخيم في عبارة مثل : «راسى بتوجعنى» وبالترقيق في عبارة مثل : «زى ما أنت راسى» تقوم على وجود التقابل بين «راء» و «ألف مد» مضخمين في الأولى و «راء» و «ألف مد» مرققين في الثانية . ومثل هذا التقابل لا وجود له في الفصحى . وكذلك يعتمد التفريق بين «ميه» اسم بنت و «ميه» في عبارة «عابز أشرب ميه» على مثل ذلك التقابل بين «ميم» و «فتحة» مضخمين و «ميم» و «فتحة» مرققين . وسواء أقلنا بأن التضخيم في الحركة وحدها أو في الراء والميم وحدهما أو في الصوت الصحيح والحركة معاً - فإن النتيجة الحتمية لأي من هذه الاحتمالات هي وجود نوع من التضخيم يرتبط بأصوات أخرى سوى تلك الأربعة ولم تكن بصدد بحث هذه المشكلة بالذات فسكني منها بهذا القادر الذي يحلم غرضنا هنا .

• صوتا التاء والذال يتحولان إلى صوتين مركبين : (ت - تشين) ، (د - دج) .

تحصل هذه الظاهرة إذا وليتهما الكسرة أو ياء المد . مثل : «انيتشى فين؟» ، «دجى ليه ؟» وخاصة في نطق السيدات .

(ب) الحركات :

يختلف هذا المستوى عن المستوى السابق في ناحية أساسية هي اقتصار عامة

المتنورين على أصوات اللين العامة ونظام توزيعها فبزنا على النحو الذى شرحناه سابقاً^(١) . أما الخيار الذى كان قائماً فى مستوى عامية المثقفين بين استخدام أصوات اللين العامة وأصوات اللين الفصحى فلا محل له هنا . ولما كان ما ذكرناه هناك عن حركات العامة يصدق على هذا المستوى فنكتفى به .

(٢) بنية الكلمات :

ينطبق على هذا المستوى من صفات بنية الكلمات ما ذكرناه من صفات العامة عند الحديث عن بنية الكلمات فى المستوى السابق ، ولذلك فلا حاجة بنا إلى إعادة شيء منه هنا . وليس معنى ذلك أنه لا يوجد فرق فى هذا الجانب بين عامية المثقفين وعامية المتنورين . فهناك فى الواقع فارق أساسى بينهما يتصل بما ذكرناه عند الحديث عن نظام الحركات : فعامية المتنورين لا يوجد فيها - ما كان فى عامية المثقفين - من خيار للتكملمين فى استخدام بنية كلمات الفصحى أو بنية كلمات العامة . فالأخيرة متعينة هنا .

(٣) بنية الجمل :

نختار من الصفات التى تميز بنية الجملة فى هذا المستوى بعض نماذج تبرهن بها على اختصاصه بصفات تركيبية تحدد شخصيته ، وهى كالتالى :

١ - تتميز عامية المتنورين عن عامية المثقفين بقلة تأثرها بقوالب الفصحى فى بناء الجملة وتركيبها . ولا تعنى بقوالب بنية الجملة فى الفصحى الأبواب التى عنى النحاة بذكرها من فاعل ومفعول ومبتدأ وخبر فحسب بل نعنى ذلك وشيئاً أبعد منه أيضاً هو تعدد طرق الجملة ونعناها التركيبية . فطرقا الجملة فى عامية المثقفين غالباً ما يكونان غنيين يتألفان من كلمات عدة بينما علاقات تركيبية مختلفة ، كما يوجد معها فى الوقت نفسه لواحق وزوائد ترتبط فيها بينها ومع الطرفين بروابط ذات دلالات متعددة . وهذا التعدد والنغنى التركيبى هو انعكاس لتعدد الفكرة التى تعبر عنها ووافقة لغتها . ويكفى أن ننصت لأحاديث هذا المستوى ومعاوراته فى التليفزيون وفى الإذاعة وفى مدرجات الجامعة ونقارن بينها وبين غيرها من المستويات لبرى

(١) انظر ص ١٦٤ - ١٦٦ من هذا الكتاب .

الفرق الواضح بينها فى هذه الناحية . وهذه جملة من مستوى عامية المثقفين مأخوذة من حديث السيدة صفية المهندس المشار إليه سابقاً وهى توضح بعض ما قصدناه هنا : ربات البيوت ما اكتفوش بكده / بل نظموا من بينهم مجموعات / للطواف على كل المستشفيات الريفية / والصغيرة / اللى ما فيهاش مولد للكهربا / والمعاناة بأى سبيل / لإنارة غرفة العمليات / حتى لا تتعرض حياة المرضى للخطر / .

أما فى عامية المتنورين فليست الجملة متأثرة بقوالب الفصحى بنفس الدرجة ، وليس لها هذا الشعب والتعقد الذى للجملة فى العامة السابقة . وهذا بدوره راجع إلى عدم تعقد الفكرة وإلى بساطة مضمون الجملة فيها . ومثال ذلك جملة طويلة من محادثة فى برنامج « سينماتيات » تقديم الأستاذ كمال الملاخ ، كان ضيف الحلقة فيه المثلة سميرة أحمد . وقد أجابت عن أحد الأسئلة بقولها : « أنا الحريمة اتعرض على فلم كان مشترك الأول بين لبنان واسطنبول . . . وتركيا / وعجبنى الدور وكان معايا ممسكين مصريين كلهم / ونفرتهم / بس / لكن دا . . . / مش شغلى أنا / . . . أنا يتعرض على سِترينو يعجبنى أوافق عليه . . . / ، فهذه الجملة - على طولها - بسيطة التركيب ، وهى فى الوقت نفسه مثال طيق الأصل للنوع الرائق من المحادثات فى مستوى عامية المتنورين .

ب - ذكرنا سابقاً أن فصحى التراث تستخدم نظام العدد الفصيح وحده . وأن فصحى العصر تستخدم هذا النظام ونظام العدد العامى معاً بينما تستخدم عامية المثقفين نظام العدد العامى فقط .

أما عامية المتنورين فهى لا تستخدم نظام العدد العامى فحسب بل تستخدم إلى جانبه نظاماً إضافياً للعدد يختص بلغة المطاعم والمقاهى :

ففى نظام العدد العامى العادى يكون بناء الجملة على النحو التالى :

إذا كان المعدود واحداً : يذكر فى صيغة المفرد دون ذكر للعدد : ادبنى كتاب

وإذا كان المعدود اثنين : يذكر فى صيغة المثنى دون ذكر للعدد : ادبنى كتابين

وإذا كان المعدود ثلاثة إلى عشرة : يذكر فى صيغة الجمع ويذكر العدد قبله

: ادبنى أربع كتب

وإذا كان المعدود أكثر : يذكر في صيغة المفرد ويذكر العدد قبله

: ادبى حدادشر كتاب

أما نظام العدد الإضافى فإنه شديد التبسيط ويحتوى على قاعدة واحدة هي :

يذكر العدد أولاً متبوعاً بالمعدود في صيغة المفرد في جميع الأحوال :

ادبى واحد كياب

ادبى اثنين كياب

ادبى ثلاثة كياب

ادبى أربعة كياب ... إلخ

ج - يكثر في هذا المستوى نوع من الجمل يقابل الجمل الاسمية الفصحى ذات المبتدأ النكرة . هذا النوع في الفصحى يحتاج إلى مسوغات خاصة لا حاجة لذكرها هنا بعد أن وفاها النحاة حقها وزيادة . أما في عامية المنورين فإن المسوغ - إذا جاز لنا استعارة هذا المصطلح غير الموقر - هو ابتداء الجملة بالجار والمجرور فيه . مثال ذلك : فيه راجل في البيت . فيه حد جوه ؟ ... إلخ .

د - لأداة الاستفهام في الفصحى الصدارة . فيقال كيف جئت ؟ وما معك ؟ وأين كنت ؟ ... إلخ . أما في عامية المنورين فليس لأداة الاستفهام هذه الصدارة . فهي إما أن تتقدم أو تتأخر مثال ذلك : ازاي جيت ؟ وايه معاك ؟ معاك ايه ؟ وفيين كنت ؟ كنت فين ؟ الحساب كام ؟ كام الحساب ؟

ه - يتبع المضاف والمضاف إليه نظاماً خاصاً في المستويات العامية بما في ذلك مستوى عامية المثقفين وإن كان ذلك على قلة فيها ناتئرها الشديد بنظام الفصحى على ما سبق بيانه . هذا النظام العامى يقوم على ظهور الأداة « بتاع » ومشتقاتها في بعض التراكيب . ويمكن تلخيص القاعدة التي تسير عليها الإضافة في نحو العامية كالآتي :

إذا كانت الإضافة بمعنى « من » أى إذا كان المضاف جزءاً من المضاف إليه لم يجر استخدام « بتاع » . مثال ذلك : كيلوحمه ، أول النهار ، وش الصبح ... إلخ . وإذا كانت الإضافة بمعنى « اللام » فإن « بتاع » لا تستخدم في حالة وجود صلة

دائمة أو قريبة جداً أو صلة تملك أو سيطرة بين طرفي الإضافة . مثال ذلك : « أخت على » « رأس محمد » « سنك يا عبده سألت عليك » . أما في الحالات التي لا يوجد فيها مثل هذا القرب فإن الطرفين يفرقان بذكر « بتاع » أو واحد من مشتقاتها بينهما . مثال ذلك : « دى الراس بتاعه محمد » (إذا كان قد اشترى رأس خروف مثلاً خلافاً لـ « دى رأس محمد » إشارة لرأسه هو) « الست بتاعى » أو « الست بتاعه محمد » للزوجة . فالخادم يقول « سنى » والزوج يقول « الست بتاعى » . و « فنجان بتاع شاي » في مقابل « فنجان شاي » . الأول معناه أنه للشاي وليس للقهوة مثلاً . أما الثاني فإن معناه يشمل أمرين : « فنجان من الشاي » أو « فنجان لشرب الشاي » . وهكذا .

و - كذلك تمتاز بنية الجملة في عامية المنورين بمحدودية ظهور التركيب الفعلى فيها أى تركيب : الفعل ثم الاسم . ويقع ذلك في حالات خاصة يقصد فيها التنبية على أهمية الفعل على ما يبدو . مثال ذلك : « حصلت خدمة » ، « اتفتحت البوابة » ، « جاني جواب » ... إلخ .

هذا وقد اخترنا مما سجلناه لهذا المستوى النموذج التالى لتقدمه هنا : وهو عبارة عن جزء من برنامج « سينماتيات » للأستاذ كمال الملاخ . وقد دار الحديث فيه بينه وبين الممثلة سميرة أحمد على النحو التالى :

الملاخ : ميساه الخير / ضيفينا الليلة حتتكلم . /

غريبة ! / مع إنها كنت خرصه / أو / الاسم اللي اشتهرت بيه / كانت بطلة فيلم الخرصه / ولو شفوها / الناس في الشارع / يتولوا الخرصه ايه / طبقا ... /

سميرة : سميرة أحمد . /

الملاخ : سميرة / اتنى .. / بيتبى خرصه في البيت ؟ /

سميرة : مآدرش /

الملاخ : أو حتبى هذيه دلواتى ؟ /

سميرة : لآه / يعنى زى ما انت عايز ... / أكون حكون / يعنى خرصه أو أكلم /

الى انت عيزو / ويمكن أكون عمه كان . /

الملاخ : مستلتي الدور العميه ؟ /

سميرة : مستلت عميه خمس ... / خمس أفلام . /

الملاخ : بيووو / دا لازم بأه ، الأسرة البيضاء ، الأفلام بتعتك ! /

سميرة : مش عرفه والله ...

الملاخ : « على كل حال هي قدره / من الفنان / انوميسل / أي شخصية / يعجز /

الإنسان العادي / انه يتوم بيها . » (١)

كام فلم انفي علمتني في حياتك ١٩ /

سميرة : والله عملت اكثير / يعني ... تقريباً / أربعين فلم / تأرياً كده . /

الملاخ : بطله .

سميرة : بطله (اللام مفحمة جداً) .

الملاخ : اما اللي مكتتيش فيه بطله . /

سميرة : لا اللي مكتتش فيه بطله يمكن عشرة .

الملاخ : خمسين .

سميرة : آه ..

الملاخ : عملتني في كام سنه ؟

سميرة : ف اربعناشر سنه

الملاخ : دا ولا بنت اربعناشر . /

لكن بمنسبة / الكلام / والسّمع ... / يا ترى / وانتي مسكه / السريو

بتاع الفلم اهل متمسليه / وشغني جملة ما عجبتكيش / في الحوار ، ياتري /

بتطلبني من المخرج / انه يعلما ؟ /

سميرة : أيوه بطلب / يعني ... أي ... / بتااش المخرج / وبثلاثي نفس المعني /

(١) هذه الجملة تعتبر في التصنيف الذي جرينا عليه في هذا البحث من مستوى وعلمية المثقفين ،

وظهورها في هذا المستوى ذو مغزى وسنشرحه في غير هذا الموضوع . انظر ص : ٢٠٩ .

لأن فيه أوت كلام الواحد ما يرتحش وهو يتوله . /

الملاخ : وأدام الكمره / ساعات زاكرتك بتخونك ؟ / والللا ... /

سميرة : مش كبير / خصوصاً اني متعوده / يعني عن اني أكون خرصه / فيحاول ..

أخرص شويه وبعدين أكتلم ... / اذا كنت حنسي الديولوج يعني . /

٥ - الصفات اللغوية التي تميز عامية الأميين :

عامية الأميين هي المستوى الذي يقوم على أمية أصحابه بكل ما يتصل بها من مستوى معيشي ونظرة خاصة للحياة . وهي - على العكس من عامية المثقفين بل وعامية المتنورين أيضاً - لغة بلا مستقبل ، فالزمن ليس في صالحها . فكل مدرسة تفتح ، وكل مصنع ينشأ ، وكل مزرعة تتحول إلى وسائل الفلاحة الحديثة تسرع بعاميتي المثقفين والمتنورين إلى الازدهار والغنى ، ولكنها في الوقت نفسه تهدد عامية الأميين وتحاول أن تزعزع كيائها الذي طال به الاستقرار .

وأمية أصحاب هذا المستوى اللغوي - حتى ولو كانوا من الوجهة العملية قادرين على « فك الخط » - تقف حائلا بينهم وبين التأثير اللغوي المباشر من مستويات الفصحى ، كما أن انخفاض مستوى معيشتهم لا يسمح لهم بالاتصال الكافي بعالم الحضارة الحديثة وقولها وبالتالي لا يتأثرون بها بدرجة تستحق الذكر .

على أن هذا السياج القائم حولهم لم يكن تام الإحكام . فقد بقيت فيه ثغرة لم تتوقف المؤثرات اللغوية من مصدر الفصحى عن النفاذ منها وإبقاء لغتهم متصلة بها بسبب وإن يكن واهياً إلا أنه كان صلة على كل حال . كانت تلك الصلة هي الدين الإسلامي الذي يقوم على الفصحى في جميع أشكاله وصوره ، وإن كنا لا ينبغي أن نبالغ في تأثيره اللغوي على عامية الأميين .

وقد انعكست هذه الأوضاع على لغتهم وطبعها بطابعها : فأول ما يسترعى الانتباه في هذا المستوى أنه لغة التعبيرات الجاهزة أو (الكليشيات) . فلا ابتكار اللغوي في صياغة تركيبات جديدة للكلمات ، وخلق عبارات جديدة لا تختلف في بنيتها عن المألوف بقدر ما تختلف عنها في ضم كلمات إلى كلمات لم يجر العرف على ضمها إليها

كثيراً - هذه المفامرات أو التصرف الشخصي في العبارة قليل جداً في هذا المستوى .
ويبدو - وإن كان هذا مجرد استنباط - أن أمية المتكلمين بهذا المستوى وقلة حفظهم
من الثقافة كان سبباً في الحد من إمكانياتهم في التصرف في العبارة والتجديد فيها .
فالشخص يتسلم التعبير جاهز التركيب - من كلمتين أو أكثر - ويبقى لديه كذلك
دون محاولة منه للتصرف فيه بالقلك أو بالتغيير أو باستبدال بعض أجزائه بأجزاء أخرى .
تماماً كما يفعل بجهاز الراديو أو الساعة أو مفتاح الكهرباء إن كان لديه منها شيء .
ولعل بهذه الخاصية المذكورة - وهذا استنباط آخر مبنى على الاستنباط السابق - هي
السبب في أن هذا المستوى حافل بالأمثال والحكم والأقوال الشائعة . ولو استمعنا إلى
حديث بين اثنين في هذا المستوى - وخاصة بين النساء منهم - فسلاحظ على الفور
أنه يكاد يكون سلسلة من الحكم والأمثال والتعبيرات الجاهزة تتخللها الجمل الاعترافية
من دعائية وغيرها ، وتوصل بينها كلمات قليلة مفردة . فتمسكهم بالتعبيرات الجاهزة
وكثرة استخدامها لما جعل من لغتهم مخزناً لهذا النوع من العبارات . وهذا الاستنباط
يجد له تأييداً - وإن كان بطريق غير مباشر - من طبيعة المستويات العامة الأخرى .
فالملاحظ أنه كلما زادت ثقافة المرء كلما زاد محصوله اللغوي من ناحية وكلما قل استعماله
للأمثال والحكم والعبارات الجاهزة من ناحية أخرى . وعامة المثقفين تكاد تخلو من هذا
النوع من المحصول اللغوي . ولعل هذا السبب في إطلاق وصف « الشعبية » على الحكم
والأمثال .

وهذا نموذج مسجل من برنامج فكاهي اجتماعي بعنوان : « نوادر خالتي بنه »
وسياتى الحديث عنه بشيء من التفصيل :

أبوسيد : « عمل ايه ياناس في الست بنه مراتي ! / احترت معاها واحترار دليلي . /
أى والله ! / انتو عارفين إن الأرض لبيض / يتفق في اليوم لِسود /
والواحد لازم يشيل من اراده لوأت عوزه يتفعله لاقتلر الله في مرض والْتلا في
طرف شديد واللا حاجة من كده / والعائل هو اللي يعمل حساب بكرة . /
لكن بأه الست مراتي بنه الله يساعها ويغفر لها / مش عايزه كده . »

فالحديث يكاد يكون كله كليشيات مرصوفة واحداً بعد الآخر على الرغم من
أن المتكلم رجل وأن السيدات أكثر استخداماً لهذا النوع من التعبيرات من الرجال ،

وخاصة نوع الحملة الاعترافية الدعائية ، مثل : « جه محمد ابني - اسم النبي حرصه
وضمنه - وآل . . . »

على أن السياج القائم حول هذا المستوى اللغوي وأصحابه والذي وصفناه فوق هذا
الكلام قد فتح فيه في الوقت الحاضر - إلى جانب ثغرة الدين التي كانت موجودة من
قبل - قد فتحت فيه الآن ثغرة جديدة هي ثغرة التغيير الاجتماعي ، وما صاحبها من حملة
إعلامية لم يشهد لها أحد مثيلاً في التاريخ . فقد أدرك القائمون على الثورة منذ
البداية أنه ما لم يخلقوا بينهم وبين هؤلاء الأميين - وهم الغالبية الكبرى من الشعب -
صلة مباشرة يتمكنون بها من تبادل الرأي معهم ، أو على الأقل يتمكنون بها من إسماعهم
ما يريدون أن يقولوه لهم - ما لم يفعلوا ذلك فلن يكون هناك مجال لإحداث التغيير
بالصورة التي يريدون . فأنشئت أجهزة حديثة للإعلام راحت تعمل ليل نهار لربط
البلاد معاً من أولها إلى آخرها عن طريق الكلمة . وفي سبيل ذلك وزعت أجهزة الراديو
والتلفزيون على نوادي القرى ، وشجع الفلاحون والعمال على الاستماع إلى الأخبار
عن طريق الجرائد والإذاعة . وتمثل أغنية « ع الدوار » لمحمد قنديل - وهي شبه رسمية ،
وكتبت في أوائل العهد بالثورة - تمثل هذا الاتجاه . ومن كلماتها : « ع » الدوار ،
راديو بلدنا يجيب أخبار « و » الجرائد بترد الروح . . . إلخ . وقد ساعد لحن الأغنية
الجذاب ، وصوت المطرب القريب من النفس ، وكلماتها السهلة - مساعد كل ذلك
على انتشارها بين الناس . وقد خدمت الصدفة هذه الحملة الإعلامية ، إذ ظهرت إلى
الوجود مع ظهور راديو « الترانزستور » بأحجامه وأثامته ومصاريفه القليلة . ولقد أتت
فترة كان الفلاحون فيها يعلقون أجهزة « الترانزستور » في السواقي حتى
لا يفوتهم شيء مما ترده الإذاعة من أخبار وأحاديث .

ولا شك أن هذه الحملة قد آتت كثيراً من الثمار من الناحية الاجتماعية والثقافية .
وصحب ذلك ، وبطريقة تلقائية ، ظهور آثار لغوية تستحق اهتمام البحث اللغوي . وفي
زيارة قمت بها لقرى بالشرقية صبيحة خطاب رئيس الجمهورية إلى الأمة يوم الخميس
١٣ يناير عام ١٩٧٢ راعى حقاً مقدار الآثار التي أحدثها الإعلام وأجهزته في لغة
العوام . ففي تعليق لواجده من الفلاحين أعرف شخصياً مقدار حظه الضئيل من التعليم -
في تعليق له على الخطاب المذكور سجلت له في أقل من دقيقتين العبارات الثلاث

التالية : « ... عنده دقة في التنظيم » (وقد نطق « دقة » بالقاف الفصيحة المعاصرة لا بالحاء كما ينطق أهل القرية) و « يستلشى الضرر » (بفتح ياء المضارع وينتاشي غير مستخدمة بالمرءة في عامية القرية) و « ... لازم يكون سريع في الحركة » (وهذا التركيب « سريع في الحركة » غريب جداً من الناحية البنائية على المستوى الأمي كما سيأتي بيانه) .

على أن هذا التأثير الخارجي على لغة هذا المستوى لم ينجح في فك أغلاله ، ولم يعطه حرية التصرف في التعبيرات الوافدة عليه . فتعبيرات مثل « دقة في التنظيم » ، و « سريع في الحركة » و « يتلشى الضرر » وغيرها من التعبيرات الجديدة قد عوملت أيضاً بنفس الطريقة التي عوملت بها من قبل تعبيرات مثل « هي عادة والاحتشربها » ، « اسم الله على لمتمك » ، « في وش العدوين أد كده » ... إلخ . ذلك أن « احترام » الكليشي من الصفات المرتبطة بدرجة التعليم لا بالغة في حد ذاتها .

وعامية الأميين لغة ميلاد . أي أن الطفل يولد في أسرة تتكلمها فيأخذها عنهم . وليس هناك وسيلة أخرى لاكتسابها ، كما أن أحداً من المتكلمين بغيرها من المستويات لا يرغب في اكتسابها إلا لأغراض المسرح والسينما . وعندما يبلغ الطفل في هذه البيئة سن السادسة يكون قد أحكم تعلمها . ومن هذه النقطة يتقرر مستقبله اللغوي : فقد يبقى حيث هو يتكلم هذا النوع من المستويات طيلة حياته ، وذلك إذا لم يدخل مدرسة أو يتعلم حرفه يحتاج إلى مهارة خاصة . وهذا النوع يتناقص جيلاً بعد جيل وقد أخذ يتلشى بسرعة نسبية في السنوات الأخيرة . وقد ينتقل ابن عامية الأميين إلى طبقة المتكلمين بعامية التنويرين إذا تلقى قدرًا من التعليم الابتدائي وتعلم حرفه واختلط بالمجتمع وأهم بما حوله . ولكن انتقاله إلى مستوى عامية المثقفين يحتاج مجهوداً أطول ومعاناة للثقافة والتعليم حتى المستوى الجامعي في العادة .

أما الصفات اللغوية التي تميز عامية الأميين وتفرق بينها وبين غيرها من العاميات فتكاد ترجع كلها إلى عامل الأمية الذي يطبعها بطابعه ويعزلها عن مصادر التأثير الخارجي . وسنكتفي من هذه الصفات بالقدر الذي يعطى الملامح العريضة ويعين الحدود بينها وبين ما فوقها من مستويات .

(١) الأصوات :

كما ذكرنا سابقاً تربط اللغة العامية بين التأثير بالحضارة وبين درجة ترفيق الأصوات التي من حقها التفضيم في الفصحى . كما تربط أيضاً بين هذا التأثير وبين نطق الأصوات الخلفية - كالفاف والحاء والغين - من أقصى نقطة أمامية في منطقتها بالحنك . ولما كانت عامية الأميين محرومة من التأثير الحضاري ومن تأثير الفصحى فإن آثار هذا الحرمان تظهر على أصواتها بالطريقة التالية :

السواكن :

١ - الأصوات الأسنانية التي يرمز إليها بالهاء والذال والظاء في الفصحى

تنطق هذه الأصوات الرخوة أصواتاً شديدة في هذا المستوى : أي أن الهاء تنطق تاء والذال دالا والظاء ضاداً . هذا هو الأصل هنا . ومع ذلك ونظراً إلى أن اللغة لا تعيش داخل ستار حديدي يعزلها عما حولها ، ونظراً إلى تأثير القرآن والمواظع الدينية التي تلقى بالفصحى ، ونظراً إلى التأثير الإعلاني الذي حملته معها ثورة ١٩٥٢ على النحو الذي أشرنا إليه سابقاً - فإن هذا المستوى قد تعرضت أخيراً لتغيرات خارجية ليس له بها عهد أدخلت فيه عدداً من المفردات الغريبة عليه والتي تخضع لقوانين الأصوات الخاصة بالمستويات اللغوية العليا . ولما كانت الفرصة لم تنح بعد لهذه الكلمات لكي تستقر وتشكل طبقاً لقوانين المستوى الذي نقلت إليه فلإنها لا زالت تستعمل بالصورة التي نقلت عليها مثل ذلك الكلمات التالية :

السوّره = الثورة ، شهدات الاستعمار = الاستنثار ، الإزاعه = الإذاعة
المحافظة = المحافظة ... إلخ .

ومع ذلك فلنا أن نتوقع أنه إذا طال الاستعمال بتلك الكلمات الطارئة ، وبقيت الأوضاع الاجتماعية السائدة بين المتكلمين بهذا المستوى الآن كما هي فإن هذه الكلمات لا بد وأن تتحول إلى النظام الصوري الخاص به . دليلنا على ذلك أن اسم « جمعية المحافظة على القرآن » أصبح بسبب كثرة الاستعمال ينطق عند البعض « جمعية المحافظة على القرآن » أي بالضاد الشديدة ، كما أن الاسم العلم « عبد المحافظ » مستويات العربية المعاصرة

أصبح في الأنماط الهابطة من مستوى عامية الأميين ينطق بالضاد أيضاً « عبد الحافض » وكثيراً ما نسمع الآن كلمة « لذيذ » تنطق بالبدال الشديدة في الموضوعين ، وخاصة لدى الباعة الجائلين وهم بلا شك من أصحاب هذا المستوى. والنداء « حلو ولديدي يا مألئ » ليس غريباً علينا . وكلمة « مجدوب » بمعنى شره أو شهو لا أظنها ترجع إلى « الجذب » بل في رأيي هي تطور عن كلمة « مجدوب » خاصة وأنها تستعمل في من فقد سيطرته على نفسه بسبب الجوع ويتبعها « على » التي تتبع كلمة « مهبول » في العامية فقال : « مجدوب على الأكل » . وكلمة « الذخير » بمعنى « البارود » لا شك وأنها تطور عن كلمة « الذخيرة » بالذال .

٢ - القاف :

إذا كان صوت القاف غريباً على الأذن في عامية المتورين - كما قررنا سابقاً - فإنه أشد غرابة في هذا المستوى . بل إننا لا نعرف كلمة يستخدم فيها هذا الصوت في مستوى عامية الأميين بانتظام سوى كلمة « القرآن » . ولذلك نستطيع أن نقرر مطمئنين أن هذا الصوت ينبغي أن يحدث من قائمة الأصوات هنا . وقد سمعت شخصياً بعض النسوة يتحدثن في هذا المستوى عن « سورة البارة » ومع ذلك فيوجد البعض من أفراد هذا المستوى ممن قد يعلق بأذهانهم بعض العبارات الخارجية وخاصة من مصدر الدين فينطقونها بالقاف . مثال ذلك : عبارة « لا قدر الله ! » وإن كان الأكثر شيوعاً في هذا المستوى استعمال عبارة « الله لا يأدر ولا يكون » بدلا عنها .

٣ - الهزمة :

صوت الهزمة في المواضع التي يتحول فيها إلى شيء آخر والتي شرحناها سابقاً - هذا الصوت نادر الوجود جداً في هذا المستوى دون تغيير . ويكاد ينحصر ذلك في التعبير المحفوظ « لا بأس عليك » وإن كان هذا التعبير في الواقع من حصيلة عامية المتورين وبعض الأنماط العليا من عامية الأميين . وبينما تستعمل التحية الليبية « مساء الخير » بالهزمة أحياناً في مستويات أخرى ذئنا نسمعها دائماً هنا بإسقاط الهزمة « مساء الخير عليكوه » .

٤ - الأصوات المفخمة : ص / ض / ط / ظ

ذكرنا أن هذه الأصوات ينالها تغيير صوتي في عامية المتورين يقلل كثيراً من درجة تفخيمها ويكاد يحولها إلى مقابلتها المرفقة ، وربطنا ذلك بفكرة التأثير بقوالب الحضارة والمدنية الحديثة .

أما في هذا المستوى فإن هذه الأصوات ترجع إليها صفة التفخيم التي كانت لها في الفصحى إلى حد يحرص معه الناطقون هنا على إعطائها حقها من هذه الصفة . ويبلغ شعورهم الواعي بأهمية صفة التفخيم في التفرقة بينهم وبين الطبقات الراقية التي لا يكتنون لها كثيراً من الاحترام - يبلغ شعورهم بذلك إلى درجة يتخلون معها من صفة ترقيق الأصوات التي من حقها التفخيم عندهم وسيلة لإظهار احتقارهم واستهزائهم بتلك الطبقات وأبنائها . وكتاب المسرح الهزلي على علم كامل بهذه الخاصية . وكلنا نذكر المرحومة ماري منيب وقدرتها الفائقة على استخدامها . ومن أمثلة ذلك : « إيه الكلام القادي (القاضى) ده ؟ » وتكاد الفكاهة عند المثلة شويكار تنحصر في ترقيق الأصوات المفخمة وغيرها من التغييرات الصوتية المشابهة .

أما عدد الأصوات في مستوى عامية الأميين فيأثل عددها في عامية المتورين أي بزيادة بعض أمثلة من الراء والميم كما مثلنا لذلك من قبل^(١) .

٥ - صوتا التاء والذال :

يرجع هذان الصوتان مرة أخرى إلى حالتهما الشديدة فلا ينطق بهما « تش » و « دج » كما في عامية المتورين .

الحركات :

تشبه الحركات في هذا المستوى من حيث العدد والکیفية والتوزيع نظيراتها في المستوى السابق ، ولذلك فلا حاجة إلى إضافة شيء عنها هنا .

الصفات الصوتية للمصاحبه :

نقصد هنا بالصفات الصوتية المصاحبة طبقة الصوت التي تصاحب النطق بالجملة .

(١) انظر ١٨٢ وما بعدها مما سبق .

(٢) انظر ص ١٨٣ من هذا الكتاب .

فعلی الرغم من أن طبقة الصوت - وهي درجة سمكها - صفة شخصية في أساسها - فيعض الأشخاص لم أصوات غليظة وآخرون أصواتهم رقيقة - على الرغم من ذلك فإن بعض الجماعات اللغوية قد تتميز في مجموعها كجماعة باستخدام طبقة أو طبقات صوتية معينة تطبعها بطابع خاص وتفرق بينها وبين غيرها من الجماعات المجاورة . وهذه هي إحدى الصفات التي تميز عامية الأميين . فالرجال من أبناءها - وهم من يلقون عموماً « بأولاد البلد » - يستخدمون في نطقهم عادة طبقة صوتية غليظة بالمقارنة مع نظرائهم من أبناء المستويات الأخرى . وهذه هي الصفة التي تلفت نظر السامع من غير أبناء هذه الطبقة ، والتي يستخدمها الممثلون المسرحيون - بكثير من المبالغة أحياناً - لتصوير إحدى شخصيات أولاد البلد .

(ب) بنية الكلمة :

تشبه بنية الكلمات في هذا المستوى بصفة عامة نظيراتها في المستوى السابق . ومع ذلك فإن أمية المتكلمين بهذا المستوى وعدم استقامتهم لغتهم عن طريق الكتابة بل وعدم قدرتهم على القراءة أصلاً لا تمكنهم من رؤية صورة بصرية للكلمات التي يسمعونها ، وخاصة للكلمات القادمة من المستويات الفصحى . ومعنى ذلك أنه لا توجد لديهم سوى صورة سمعية للغة التي يستخدمونها . ومن العسير حقاً على مجيد القراءة من أمثالنا أن يتصور حقيقة الفكرة أو الصورة السمعية التي تعمر بها تخيلة الأميين لكلمات لغتهم وحملها . ولولا كثرة التكرار والإعادة وخاصة في عهد الطفولة لما استطاع شخص أن ينطق كلمة صحيحة من لغته الأصلية . فإذا ما انتقل السامع إلى لغة خارج اللغة الأصلية كاللغة الإنجليزية بل والفصحى في حق الأمي فلا بد من أن تنشأ كثير من الصعوبات التي تحول بينه وبين تكوين صورة سمعية ونطقية لما يسمع . وأهم هذه الصعوبات أمران : غرابة ما يسمع من جهة الأصوات وتركيبها ، وعدم تكرار ما يسمع تكراراً يكفي لسيطرته عليه سيطرة تامة . وهؤلاء الذين شهدوا الحرب العالمية الثانية يذكرون عمال المسكرات من الأميين المصريين والصورة السمعية التي استقرت في أذهانهم للجمل والعبارات ، الإنجليزية التي كانوا يسمعونها من الجنود البريطانيين . والثىء أو القاسم المشترك الذي كان يميز هذه الصورة السمعية الحاططة هو أنها كانت تخرج من أفواه هؤلاء الأميين بعد أن يطبقوا عليها نظام لغتهم العامية سواء من ناحية

الأصوات أو بنية الكلمة أو تركيب الجملة : فعبارة "Half past four" كانوا ينطقونها « عيَّاس فور » ولا شك أنهم كانوا « يسمعونها » كذلك . وعبارة السباب المقذع "Bloody bugger" التي كانوا يسمعونها من الجنود كانوا هم أنفسهم يستخدمونها ويتندرون بما يخيل إليهم أنه لفظها متأثرين في تصورهم هذا بالعربية وهو : « بلاد البقر » (بالحاف) وشتان بين المعنيين .

على أن الأمر بالنسبة للأمى لا يقتصر على الإنجليزية أو غيرها من اللغات الأجنبية ، بل يتعداه إلى الفصحى أيضاً وهي لغة غريبة عليه نسبياً . فهم يسمعون كلمات وتركيبات فصحى فيعلق في تخيلهم السمعية صور تتفق مع الصور السمعية لأقرب كلمات لغتهم وتركيباتها شهاً بما قد سمعوا .

هذه العملية التي يمكن أن نطلق عليها هنا « عملية التحديد اللغوي » هي في رأبي السبب في وجود أبنية كثيرة - لا تتفق مع أبنية الفصحى أو العامية ، وهي في الوقت ذاته ، وإن كانت فردية لا تخضع لقانون عام - تطبع مستوى عامية الأميين وتجذب انتباه المثقف وتنبو في أسماحه . ومن أمثلة ذلك كلمات مثل : « لزمن » في « لزمن تروح له » ، « اشئ » في « اشئ مهندس » ، اشئ « اشئ مهندس » ، « اشئ مهندس » في « مئة كلاى » و« لمن » « لمن » « لمن » « لمن » .

(ج) بنية الجمل :

يخضع نظام الجملة في هذا المستوى بصفة عامة للقواعد التي يخضع لها نظام الجملة في المستوى السابق . ومع ذلك فلجملة في عامية الأميين طابعها ومظهرها الخاص الذي يميزها عن الجملة في بقية المستويات ، ويرجع السبب في هذا إلى وجود عاملين يشدان إليها الانتباه وخاصة أذن المثقف التي تحس وقماً غريباً تنبو عنه وتدهش له . هذان العاملان هما :

١ - استخدام سلسلة الكليشيات ، والعبارات الجاهزة ، والجمل الدعائية المترسة . وتختلف بالطبع نسبة استخدام هذه الكليشيات في العبارات العادية من شخص لى آخر . على أنه كقاعدة عامة تزداد نسبة العبارات الجاهزة في حديث النساء ، وهن في مجموعهن أقل ثقافة أو أكثر أمية من الرجال - إذا جاز لنا استخدام

هذا التعبير - كما يكاد يقتصر استخدام الجمل الدعائية - مثل « ادلعى » ، « في وش العدوين » ، « اسم النبي حرصه » . الخ . - يكاد يقتصر استخدام هذا النوع عليهن .

٢ - « عملية التحييد اللغوي » التي أشرنا إليها سابقاً . وهي تتناول التراكيب الفصحى ثم تستخدمها بعد أن تدخل عليها تغييراً يكسبها نوعاً من الشذوذ ، وخاصة لدى من لديهم معرفة بالتركيب الأصلي ، أو تركيب أشياء ليس من حقها أن تكون مركبة معاً في مستوى أعلى من مستوى عامة الأميين . مثال ذلك : تركيب « عال » و « بالى » معاً في جملة مثل « ألت في عال بالى لازم يا واد تنوف عايزين ايه . » ومثاله أيضاً محاولة تقليد التعبير الفصيح « لا يمكن » والخلط بينه وبين التعبير العامي « مش ممكن » مما أدى إلى تعبير « مرقع » ينو في الأسراع هو « لا يمكن أبداً » .

وقد اخترنا كمنودج لهذا المستوى قطعة مسجلة من برنامج إذاعي بعنوان : « خالى بنه » . وعلى الرغم من أنه برنامج تمثيلي ، إلا أننا نرى فيه بكل وضوح أن الكاتب شعر من خلال حساسته الكتابية بوجود هذا المستوى المنفصل فكذب برنامجه فيه دون أن يحيد عنه . وقد الواقع أن أمية المتكلمين بهذا المستوى تقف حائلاً بينهم وبين المساهمة في النشاط الثقافي والإعلامي بالإذاعة والتليفزيون . ولذلك فن الصعب الحصول على عينات حقيقية طويلة لأحاديثهم . أما المنودج الذى معنا فهو عبارة عن مناقشة بين خالى بنه وزوجها أبو سيد حول المشكلة الأزلية « مصروف البيت » . وقد حاولنا تقريب الصورة الصوتية لما على قدر الإمكان واقتضانا ذلك الخروج أحياناً على الصور الكتابية المألوفة لبعض الكلمات . وإن كان من المتعسر مع ذلك تقديم صورة مطابقة تمام المطابقة للتغيرات الخاصة بهذا المستوى وخاصة في نغمات الجمل . ولذلك فنحن نحيل القارئ المصرى على معلوماته الخاصة عنه :

أبو سيد : أعمل إيه يا ناس في الست بنه مرقا ! / احترت معاها واحترت دليلي ! / آى والله ! / انتو عرفين إن الارش لبييض / ينفع في اليوم لسود . / والواحد لازم يشيل من إرادوا / لوأت عوزه ينفعه لا قدر الله في مرض واللا في ظرف شديد واللا حاجة من كده . / والعائل هو الذى يعمل

حساب بكره / لكن باه الست بنه مرقا - الله يسامحها ويفر لها - مش عايزه كده ! ! ! /

خالى بنه : أنت بتكلم عنى يا أبو سيد ؟ /

أبو سيد : مين ؟ / بنه ؟ /

خالى بنه : طبططك . / بتوول إيه باه ! ! /

أبو سيد : حوول إيه يعنى ! ! /

خالى بنه : لازم بتزيم في من ورايا ! ! /

أبو سيد : أنا يا بنه ! ! /

خالى بنه : طبعاً / هى عاده واللا حشترها يا أبو سيد ! ؟ /

أبو سيد : لا والله أنا بؤول إن الست العاله ...

خالى بنه : آه ! ؟ /

أبو سيد : هى اللى اتوفر وتشيل من مصروف البيت للأيام .

خالى بنه : آه ... حاجة كل الناس عرفناها يا أبو سيد . /

أبو سيد : واننى عارفاها يا بنه ؟ / دا بيأى يوم السعد / لأنك لازم بتعمل بيها . /

خالى بنه : لأ - وانت السادى - / عارفاها بس مع وأف التنفيذ . /

أبو سيد : تنفيذ ؟ / له باى ؟ ! ؟ /

خالى بنه : هو انت - يا حسرة ألبى - بتدينى مصروف يتشوش منه ؟ /

أبو سيد : إمال بديكى إيه ؟ زلط ؟ /

خالى بنه : بتدينى مصروف نستلف عليه . /

أبو سيد : يانهار زى بعضه ! / أصدك إيه يا بنه ؟ /

خالى بنه : أصدى شوف لى معاك أد عشرة خمستاشر جنبه عشان أدى فلوس الناس

لناس ... / للبقال ، والحزار ، وبتاعة الفراخ ، وبتاع العيش ، وبتاع ...

أبو سيد : بالاس ... / عندك ! / أولي لي أبته . /

خالتي بنه : هيه ؟ /

أبو سيد : هم دول لم عندنا فلوس ؟

خالتي بنه : طبعاً ياخويا . / إمأل حتبل عليك ! /

أبو سيد : النبي ايه ! / والمصروف اللي بدوهولك أول الشهر ! /

خالتي بنه : إه ... إه ... إه ... إه ... إه ... / تعيش يا أبو سيد / ما خلص

ياخويا . / من يوم خمسه - اسم الله عليك - بأه / واحنا عاملين نُجْرِّ

بالسلف /

أبو سيد : مش معقول يا بنه /

خالتي بنه : ليه ياخويا مش معقول ؟ / يعني مش عايزنا ناكل واللإ إيه يا أبو سيد ! /

أبو سيد : لكن المصروف اللي بدوهولك يا بنه بيكني / يكتني وينشال منه كان ! /

خالتي بنه : يكتني إيه - يا حسرة أبي - / وحياة غلاوتك انت . / من يوم خمسه

كان متشطب عليه .

أبو سيد : بيأى لازم اتصرفني فيه كده واللإ كده يا بنه ! /

خالتي بنه : وحياتك يا أبو سيد أبدأ ما اصرفت فيه . / غيرشي - اسم الله على مقام

حبيبي - جبت لروحي جوزين جزم ، على شنطة اصغنته ، على فستان

جاهز ، على ...

أبو سيد : بس ؟

خالتي بنه : بس ياخويا ! /

ملحق

بعض المسائل المتعلقة بالمستويات

بصفة عامة

نتناول في هذا الملحق بعض المسائل التي لم نستطع الحديث عنها قبل التعريف بالمستويات الخمس وقبل بيان صفاتها وخصائصها تفصيلاً. وسنقتصر في هذا الملحق على مسألتين كُثرت الإشارة إليهما أثناء البحث وهما :

(أ) ظروف اكتساب المستويات .

(ب) أسس الانتقال بين المستويات أثناء الحديث

وذلك على النحو التالي :

(أ) ظروف اكتساب المستويات :

تنقسم المستويات من حيث ظروف اكتساب الأفراد لها إلى ثلاثة أنواع .

١ - نوع يكتسب تلقائياً وبظروف الميلاد والبيئة فقط .

٢ - نوع يكتسب بالتلقين المدرسي فقط .

٣ - نوع يكتسب تلقائياً وتحت ظروف التعليم المدرسي معاً .

١ - أما النوع الذي يكتسب تلقائياً وبظروف الميلاد فهما المستوى الخامس والرابع ، أى عامية الأميين وعامية المنورين :

فإذا ولد طفل في أسرة من الأميين الذين لم ينالوا حظاً من التعليم ، والذين يكتسبون عيشتهم بالأعمال التي لا تحتاج إلى أى نوع من التدريب المهني كالباعة الجائلين وعمال الطرق وأمثالهم فإن هذا الطفل عند بلوغه السادسة يكون قد حصل القدر الأساسي من عامية الأميين . فإذا كان حظهم من الحياة مثل حظ والده فلم يتلق قدرًا من التعليم أو تلقى قدرًا ضئيلاً في المدرسة الابتدائية ثم اشتغل بمهنة أبيه أو بشيء مثلها وقضى حياته دون أن يخرج على دائرته الحضارية من الناحية الثقافية أو النفسية فإنه يبقى عضواً في الجماعة اللغوية التي تستخدم عامية الأميين دون سواها . ومن الملاحظ أن هذا النوع أخذ في القلة تدريجياً بفضل انتشار التعليم وانتشار الوعي لدى الآباء وضغط مطالب الحياة وتعقدتها مما يمجوع كل فرد إلى أن يتعلم حرفة تحسن مركزه في الحياة . هذا إلى أنه كلما زادت الحضارة

كلما قلت الحاجة إلى غير الحرفيين . فدخل الآلة إلى حياتنا تتطلب منا جميعاً حداً أدنى من التعليم لا يتفق مع الأمية التي يقوم عليها مستوى عامة الأميين .

أما الذين يولدون في بيئة مصرية خلاف البيئة المذكورة سابقاً فلهمم يكونون قد تعلموا القدر الأساسي من عامة المتنورين لدى بلوغهم السادسة . وهناك يقفون في مفترق الطرق : فقد يقفون حيث هم بقية حياتهم دون أن يخرجوا عن نطاق الجماعة التي تستخدم هذا المستوى اللغوي . وهؤلاء هم قلة ومعظمهم من البنات . فقد يذهب الطفل إلى المدرسه فيتم التعليم الابتدائي أو الإعدادي ثم يعاد المدرسه . فإذا كان بنتاً فإنها تجلس في البيت انتظاراً للزواج المناسب . وقد تتعلم أثناء ذلك حرفة لا تخرجها عن تلك الدائرة مثل الخياطة . أما إذا كان ولداً فإنه يتخذ مهنة متوسطة بتدريب أو بدونه دون أن يمنحه ذلك القدر اللازم من الثقافة لإخراجه عن الجماعة التي تستخدم عامة المتنورين .

وهناك مصدر آخر يأتي منه المتكلمون بهذا المستوى . ويتمثل ذلك في بعض الأفراد الذين ولدوا في بيئة عامة الأميين ثم تافقوا بعد ذلك تدريباً مهنياً طويلاً مثل أعمال السمكرة الدقيقة والتجارة المتقدمة وغيرها من الحرف التي تخرج الشخص من دائرة الأمية الضيقة التي قد يكون ولد فيها .

٢ - أما النوع الذي يكتسب بالتلفين المدرسي فقط فهما المستوى الأول والثاني أي فصحي التراث وفصحي العصر .

فصحي التراث تكتسب بنوع خاص من التعليم هو التعليم الديني . وهو التعليم الذي يقوم على حفظ القرآن وتجويده ودراسة اللغة العربية والشريعة الإسلامية بإتقان والتخصص فيما بالأزهر ، وخاصة على الطريقة التي كانت سائدة به قبل التغييرات التي أحدثت في مناهجه ونظم القبول فيه في العهد الأخير .

وفصحي التراث - كما هي موجودة في مصر الآن - محكوم عليها بالفناء ، نتيجة لتخصصها الضيق في جانب واحد من الوعظ الديني التقليدي ، ولبعدها عن التيار العام من جهة ونتيجة التغيير الجذري الذي أدخل على نظم التعليم في الأزهر من لجهة أخرى . والذي يستمع إلى خطب الجمعة في مساجد مختلفة في القاهرة

ويحضر الوعظ الديني فيها يلاحظ بدهما في اتخاذ اتجاه بعيد عن هذا النوع من الفصحي في الوقت الحاضر .

وفصحي العصر بأنماطها المختلفة تكتسب عن طريق ألوان التعليم الأخرى ، وفوق المرحلة الثانوية . وهي اللغة التي تتجمع حولها آمال المصريين والعرب وترتكز عليها دعائم قوميتهم . ومع ذلك ، وعلى الرغم من المجهودات الهائلة التي تنفق وعلى الرغم من كل الشعارات التي تطلق فإننا نستطيع أن نقول مطمئنين أنه لا يوجد شخص واحد في مصر يعتقد - أو يتصرف كما لو كان يعتقد - أن بالإمكان أن تصبح لغة مخاطب بين الناس في أمور الحياة اليومية . حتى بين المثقفين . أضف إلى ذلك أن أحداً لم يحدد الهدف من تعليم الفصحي . ولهذا فقد بقي تعليمها بدون هدف . وبقيت في المدارس مجرد « مادة دراسية » . بل إن الواقع يشهد - بعيداً عن كل الشعارات والمعتقدات السائدة - هذا الواقع يشهد بأن تعليم اللغات الأوربية في مدارسنا أوضح هدفاً من تعليم الفصحي . ولما كنا لا نريد أن نخلف في موضوع كثر الحديث فيه وهو قصور المناهج والكتب الدراسية فإننا سنكتفي بالقول بأن نظم التعليم الحالية تنتج درجات لا حصر لها من إجادة الفصحي ، دون أن يرق شيء منها إلى مرتبة يحل معها محل العاميات من حيث التفاهة والسهولة في الاستعمال . فالفصحي - بنوعها - تبقى دائماً لغة صناعية يعانها صاحبها فكراً وتعبيراً .

٣ - أما النوع الذي يكتسب تلقائياً تحت ظروف التعليم المدرسي في الوقت نفسه فهو المستوى الثالث أي عامة المثقفين . وقد أهلها ظروفها الاجتماعية والثقافية المواتية لأن تحتل مركزاً ممتازاً على السلم اللغوي للمجتمع المصري . فهي لغة التعليم في المدارس والجامعات ، أي الوسطة في تلقين كل المواد وكل اللغات . وبعبارة أخرى ، تحتل محل لغة الأم في اكتسابها بطريقة تلقائية وأثناء الانتشغال بأشياء أخرى . فالشخص يكتسبها مقترنة بمهارات أخرى وأثناء تحصيله لتلك المهارات . بينما يكون اكتسابه للفصحي عملية مقصودة لذاتها . واللغة تعبیر عن نشاط مصاحب وليست هي النشاط نفسه .

فعامية المثقفين تعتبر لغة مرتفعة المستوى من ناحية ، نظراً لاقترانها دائماً بالعلم والثقافة والفن - بل بكل ما له مكانة في المجتمع - كما تعتبر لغة تلقائية من ناحية أخرى ، نظراً لطبيعة اكتسابها من البيئة الثقافية في المدرسة وخارجها . فهي في الواقع

تساوى الإنجليزية المثقفة التي يحصلها الشاب الإنجليزي من معاهد التعليم .

إن كل قدر من التعليم يسير بصاحبه نحو استخدام عامية المثقفين . وذلك لسببين :
الأول : هوسه مجال الاختيار في بنيتها وثورتها اللغوية . فقوانينها^(١) تمت بسبب إلى
قوانين الفصحى أو قوانين العامية مع قدر كبير من ألفاظ الحضارة والتركيب الثقافية
أو قوانين الفصحى وقوانين العامية معاً . بل ولا حرج أيضاً من الاعتراف من معين اللغات
الأجنبية : الفرنسية والإنجليزية .

والثاني : هو أن الصاعد إلى مستوى الفصحى - الأول والثاني - حينها يبدأ من
مستوى الميلاد - الرابع أو الخامس - لا بد وأن يمر أولاً بالمستوى الثالث . فإن وصل إلى
واحد من مستوى الفصحى فقد حصله وحصل معه مستوى عامية المثقفين . وإن لم يصل
إلى إقناعات الفصحى فلا يعنى ذلك دائماً فشله كذلك في اكتساب عامية المثقفين ، أو على
الأقل في اكتساب نخط مرتفع جداً من عامية المتنورين .

مسألة أخيرة تتعلق باكتساب المستويات ، وهى علاقة عدد المستويات التي يحسنها
الشخص بدرجة الثقافة التي يحصلها . فكلما زادت ثقافة الشخص واتسعت خبراته
كلما كثر عدد ما يحسنه من مستويات والعكس بالعكس . فالجامعي الذي نال قدرأ
كبيراً من الثقافة والخبرة يستطيع أو يجد نفسه يستخدم عامية المتنورين في الشراء وقضاء
احتياجاته العملية ، وعامية المثقفين في الأمور الثقافية والمناقشات العلمية والفنية ، وفصحى
العصر في الكتابة والقراءة ، بل وقد يستخدمها بنجاح في الخطب والمحاضرات أيضاً .
وهو في استخدامه هذه المستويات الثلاثة التي يختلف بعضها عن بعض بصفات أساسية
شرحنا بعضها - في استخدامه هذه المستويات يجرى على أصول ثلاث :

الأول : أن يخصص كل مستوى بطائفة معينة من المواقف الاجتماعية دون خلط
بينها أو اضطراب . ونحن نعرف ما يحل بمن يجرؤ على الخروج على هذه المواقف
اللغوية الاجتماعية . وقد ظلنا ننشر فترة طويلة على أحد الأصدقاء المغرمين بالفصحى
لاستخدامه لها في خنقة جرت في الشارع . فقد استدار إلى بقال قريب يعرفه - عندما

(١) انظر ص ١٤٨ - ١٥٤ من هذا الكتاب على الأخص .

اشدت به الغضب - وهدر قائلاً : يا عبد الرحيم يا أبا علي : أعطني سكين الحلوة
لأبقر بها بطن هذا الحجر الأثيم .

الثاني : أنه لا يخلط بين الصفات اللغوية للمستويات ، بل يحتفظ لكل مستوى بصفاته
الخاصة به . فمثلاً يعد من قبيل الخطأ اللغوي أن يجمع المتكلم في كلمة واحدة بين
صوت من مستوى عامية الأميين (كاتاء المنقلبة عن التاء) وآخر من مستوى عامية
المثقفين (كالكاف) . فلا يقون أحد مثلاً (تقب) بالتاء والقاف بل ينبغى أن يقال
إما سبق . أو تاب أو تقب تبعاً لقوانين عامية المثقفين وعامية الأميين والمتنورين
والفصحى على التوالي .

الثالث : أنه لا ينتقل في حديثه من مستوى إلى آخر بطريقة جرافية بل يفعل
ذلك تبعاً لقواعد لغوية ونفسية مقننة . وهذا هو ماستنأوله بالحديث في القسم التالي :

•••

(ب) أسس الانتقال بين المستويات أثناء الحديث .

ستناول ملاحظتنا في هذا السبيل المسائل الآتية :

١ - المستويات التي يتم بينها الانتقال .

٢ - اتجاه الانتقال بين المستويات ومداه .

وذلك على النحو التالي :

١ - المستويات التي يتم بينها الانتقال :

لما كانت القدرة على استخدام أكثر من مستوى لغوي واحد تقوم أساساً على مدى
ثقافة الشخص كان مستوى عامية الأميين خارجاً بالضرورة على نطاق المستويات
التي يتم بينها الانتقال . فالتحدث بها يقف من سلم الثقافة على أدنى درجاته ولذلك
لا يستطيع الخروج على نطاقها حتى ولو حاول .

كذلك لما كان هناك موازاة بين فصحي التراث وفصحى العصر ، بمعنى أن نوع
التعليم الذي يتناقه الشخص يؤهله إما لاستخدام الواحدة أو الأخرى - كان معنى ذلك
أنه لا يتم انتقال بين الواحدة والأخرى في العادة .

وعلى ذلك يكرن لدينا سلسلتان للانتقال خلالهما مختلفان تبعاً لنوع الفصحى في
كل منهما :

- (أ) الأولى : بين فصحي التراث ، وعامية المثقفين ، وعامية المتنورين .
 (ب) الثانية : بين فصحي العصر ، وعامية المثقفين . وعامية المتنورين .

٢ - اتجاه الانتقال بين المستويات ومداه

من الدراسات التي قمنا بها لطائفة كبيرة جداً من التسجيلات الإذاعية والتلفزيونية ومن الملاحظات الشخصية للأحاديث والمحاضرات الشفوية نستطيع أن نقرر الآتي :

يكون الانتقال من مستوى إلى الذي يليه بدرجة واحدة فقط في الأحوال العادية صعوداً أو هبوطاً ، وذلك طبقاً للقواعد الآتية :

(أ) يكون الانتقال صعوداً : من الثاني إلى الثالث أو من الثالث إلى الرابع ويحدث ذلك عندما يصل المتكلم في حديثه إلى نقطة يريد أن يلخص عندها شيئاً مما قاله أو يستخلص منه العبرة . وفي تلك الحالة يجري تلخيصه أو يستخلص عاقده بانتقالية درجة واحدة صعوداً إلى المستوى التالي . فإذا كان يتكلم في مستوى عامية المتنورين فإنه يصعد للتلخيص في عامية المثقفين ، وإذا كان يتكلم في عامية المثقفين فإنه يصعد للتلخيص في فصحي العصر .

وقد احتوت المادة المجموعة على حالة واحدة تم الانتقال فيها من نمط هابط من أنماط فصحي العصر إلى نمط مرتفع جداً وقريب من منطفة فصحي التراث . وقد تم ذلك عندما أراد المتحدث أن يتوجه بالدعاء إلى الله أثناء حديث عن موضوع آخر . واستخدم هذا المثال مع غيره بعد قليل .

(ب) يكون الانتقال في الاتجاه المقابل أي هبوطاً : من الرابع أو الخامس إلى الثالث أو من الثالث إلى الثاني في حالات الشرح والتفسير ، أي عكس المواقف التي تستدعي الصعود . فقد يذكر المتكلم قضية أو مسألة يعتقد أنها من التركيز والأبهام بحيث تتطلب منه تخفيف هذا التركيز . وفي تلك الحالة كثيراً ما يلجأ إلى المستوى الأدنى ليتخله وسيلة لتحقيق غرضه .

كذلك قد يهبط المتكلم من مستوى إلى المستوى الذي يليه إذا وجه إليه أحد السامعين الحديث بمستوى أقل من المستوى الذي يتحدث به . وقد قمت شخصياً بتجربة من هذا النوع مع أحد الأصدقاء . كان ذلك الصديق يلقي محاضرة عن « صحافة الشاميين

المهاجرين إلى مصر وأثرها في الأدب العربي » وكان يستخدم في حديثه نمطاً متوسطاً من أنماط فصحي العصر . وفجأة وجدني قد وضعت أمامه ورقة مكتوبة فيها « هدى السرعة شوية » . فتهمل قليلاً ثم نطق ببضع جمل من المستوى الثالث . غير أنه لم يلبث أن عاد إلى استخدام المستوى الأصلي لمحاضرتي :

أما النماذج التي اخترناها من المادة المسجلة التي لدينا لتمثيل الحالات التي تحدثنا عنها فهي كالتالي :

(أ) الصعود في المستويات :

١ - النموذج الأول : يمثل الصعود من المستوى الثاني (عامية المتنورين) إلى المستوى الثالث (عامية المثقفين) . وقد حدث ذلك أثناء محادثة جرت بين الأستاذ كمال الملاخ والمثلة سميرة أحمد في إحدى حلقات برنامج « سينمايات » . (والتي اقتبسنا جزءاً منها من قبل) .

كان الحديث يدور في مستوى عامية المتنورين وكان الأستاذ كمال الملاخ يسألها عن الألوان التي اشتهرت بتمثيلها (دور الحرساء على الخصوص) . وقد بدأ الحديث خفيفاً يتسم بروح المداعبة ويخله ضحك يكاد مستمراً من الممثلة ، وتبدلت فيه عبارات مثل : « ولو شفوها الناس في الشارع حيثولوا » الخرساء أهه ، و « زى ما انت عايز اكون حكون .. خرساء أو أى حاجة ، وعمه كمان . » و « يوووو دا ولا ، الأسرة البيضاء » . وغيرها من العبارات التي تمثل نمطاً غير مرتفع من عامية المتنورين وفجأة أراد الأستاذ الملاخ - على ما يبدو - أن يلخص الموقف أو يستخلص منه المغزى فاتخذ صوته طابع الجهد (بأن هبط به إلى طبقة صوتية أدنى) وارتفع بلغته إلى المستوى التالي وهو « عامية المثقفين » وقال : « على كل حال هي قدرة (بالقاف) من الفنان إنه يمثل أى شخصية يعجز (بفتح ياء المضارعة بمستوى عال من نطق هذا الفعل) الإنسان العادي إنه يتوم بيها » .

وما أن انتهى من هذه « الحكمة » حتى تخلص من النغمة الصوتية والمستوى اللغوي اللذين اصطنعهما وعاد إلى طريقته السابقة فأخذ يسأل مرة أخرى عن عدد الأفلام التي

مثلها مستخدماً عبارات مثل : « ولا بنت أربعتاشر » .. إلخ (١) .

٢ - النموذج الثاني : يمثل الصعود من المستوى الثالث إلى الرابع . وقد ورد هذا المثال أثناء حديث السيدة صفية المهندس عن إضراب عمال الكهرباء بإنجلترا والذي اقتبسنا جزءاً منه سابقاً . وقد اصطلحت السيدة صفية في حديثها المستوى الثالث من أول الأمر وتحدثت عن موقف ربات البيوت والإجراءات التي اتخذتها في هذا السبيل وكيف أنهم حاولن تجنيد أصحاب المحلات للاشتراك في الحملة التي كن يقمن بها وقالت : « وطلدوا من أصحاب هذه المحلات التعاون معهم . . . » وهنا وصلت إلى نقطة أرادت فيها تحديد الطلب الذي تقدمن به إلى أصحاب المحلات فقالت بتأن وضغط على الكلمات وكأنها تفتيس نص مادة قانونية بالفصحى : « . . . برفض التعامل مع عمال الكهرباء ومع زوجاتهم (بمد الألف مدأ طويلاً في زوجاتهم وكسر تأنها على حسب مقتضيات الفصحى) والامتناع عن تقديم أى مساعدة لهم . » وبعد أن انتهت من هذا الجزء استأنفت الحديث بالمستوى الثالث مرة أخرى وحتى آخر الحديث (٢) .

٣ - النموذج الثالث : يمثل الصعود في المستوى الرابع إلى نمط قريب جداً من المستوى الخامس ، وهو النموذج الوحيد الذي لدينا من هذا النوع على ما قدمنا . وقد ورد هذا المثال في حلقة من حلقات برنامج بعنوان « بمناسبة ومن غير مناسبة » ، وكان يقدمها مذيع ومذيعة يستخدمان نمطاً متوسطاً من أنماط مستوى فصحي المصر . وقد بدأ البرنامج بلغة تقع في نقطة متوسطة بين المستوى الثالث والرابع ولم يستخدم علامات الإعراب أو التشكيل الصحيح لصيغة الكلمات إلا نادراً :

المذبة : بيمتسبه / بنون مفتوحة وسين ساكنة) .

المذيع : ومن غير منسبه / (بواو عطف مكسورة ، وبغين مكسورة أيضاً) .

المذبة : صديقى المستمع /

المذيع : صديقى المستمعة /

(١) نجيل التارنى إلى صفحات ١٨٧ - ١٨٩ من هذا الكتاب حيث اقتبسنا فيها قطعة من هذا الحديث .

(٢) نجيل التارنى إلى صفحة ١٧٣ من هذا الكتاب ففيها اقتباس لقطعة من هذا الحديث :

المذبة : مساء الخير / (بكسر الميم)

المذيع : بيمتسبه العام الجديدي (بكسر الجيم) / بقدّم البرنامج (بكسر الباء) لكم / أحلى أمنيات السعادة والتوفيق /

وإن هذه النقطة يأتي دور الفتاة للحديث ، ويكون نصيبها منه دعاء إلى الله . ولما كان مثل هذا الدعاء يقع عادة داخل مستوى فصحي التراث فإننا نراها ترتفع تلقائياً بلغتها نحو مستوى فصحي التراث فتقول بنمط هابط من أنماط هذا المستوى (دون أن تخطئ في التشكيل أو تستعمل صيغاً خاطئة للأفعال أو غيرها من الكلمات) :

المذبة : ونطلب من الله سبحانه وتعالى/ أن يشتمل الجمهورية العربية المتحدة/ برحمته ورعايته / وأن يقود خطى شعبنا إلى النصر / بإذن الله تعالى / .

وبعد أن ينهى الدعاء يستأنفان الحديث بنفس المستوى اللغوى الذى بدأ به البرنامج فيتركان التشكيل ويستخدمان بعض الصيغ العامية أحياناً ، وترد عبارات مثل :

ومن غير مُتسبه ... كنت أزور صديقاً في إحدى المستشفيات ... أخذ يقفز الدرجات / كلّ ثلث درجات / في وثبة واحدة ... إلخ .

والأمر الجدير بالملاحظة حقاً - لأنه ذو مغزى في تقرير ما نحن بصدده - أن المذيعين كانوا يقرآن من ورقة طيلة البرنامج . فتغيرهما للمستوى أثناء الدعاء برفعه درجة إلى أعلى لا بد وأنها مسألة تخضع لقواعد أقوى في سلطانها على الشخص من سلطان متطلبات القراءة الصحيحة وليس ذلك إلا سلطان المستويات ، كما نحاول إثباته هنا :

(ب) الهبوط في المستويات :

تتضمن المادة المسجلة التي لدينا على نماذج متعددة لنوع واحد من الهبوط في المستويات هو الهبوط من المستوى الرابع إلى الثالث وبفرض الشرح والتفصيل . ونحن نفتيس منها هذا المثال الذى أخذ من محاضرة عامة بعنوان « التربية في مصر وبعض مشاكلها » .

فقد بدأت المحاضرة بفصحى المصر وبنمط متوسط من أنماطها إلى أن وصل المحاضر إلى قوله : « فقد جاء محمد على (بالضم والتثوين) إلى مصر في بداية القرن التاسع عشر ووجد التعليم ينحصر في نظامين : النظام الدينى القديم ، والنظام المصرى

ولا حاجة بنا إلى التأكيد على أن الموضوع الذي طرقتاه هنا موضوع بكر ، لا في اللغة العربية وحدها بل وفي غيرها من اللغات . ولذلك فقد اعتمدنا كلية في الفصل الثالث والملحق الذي تبعه (وهما صلب البحث) على ما قمنا به شخصياً من ملاحظات واستقراء .

ونحن لهذا نعرف بأن ما قدمناه هنا ليس إلا الخطوط العامة ، وما كنا قادرين في هذه المرحلة على تقديم أكثر منها ، وكل ما نأمله أن تسنح الفرصة لنا ولغيرنا لإفراد جوانب الموضوع المشعبة بدراسات متعمقة لم تكن قط - كما نحن الآن - أحوج إلى مثلها .

phonetics-acoustics.blogspot.com

الذي يتمثل في المدارس الوطنية . . . (وكان هذا كله وإلى هذه النقطة بالمستوى الرابع . ويبدو أن المحاضر شعر عند ذلك بحاجة إلى إعطاء بعض الشرح لما قال فغير من نبرة صوته ، ورفع من الطبقة الصوتية التي كان يستخدمها وهبط بمستوى لغته درجة وأخذ يقول من المستوى الثالث « مستوى عامة المثقفين » : « كان موجود نظامين : نظام ديني يتمثل في الكنتيب ومدارس الجوامع ودا كان عتيق جداً . يعني يعلم مبادئ قراءة ودين إسلامي وقرآن وبعض الحساب . بالنسبة للأقباط واليهود المعمرين كانوا يرضك عاملين نفس النظام : تعليم ديني يهودي أو تعليم ديني قبطي لا يتميز عن التعليم الإسلامي في شيء . (وبعد أن انتهى من الشرح رجع إلى الطريقة الأولى من حيث نبرة الصوت وطبقته ومن حيث المستوى اللغوي فقال : « جاء مُحمَّد على وجد هذا النظام . ووجد إلى جانبه نظام المدارس الأجنبية . . إلخ . »

هذه نحة عن بعض الأسس التي يتم عليها الانتقال بين المستويات في الأحوال التي سميناها بالعادية . غير أنه يحدث أحياناً أن ينتقل المتكلم - إما عمداً أو عن غير عمد - من مستوى إلى مستوى آخر يبعد عنه بأكثر من درجة واحدة صموداً أو هبوطاً ، كأن ينتقل من فصحي التراث مثلاً إلى عامة المتورين . وسواء أتم ذلك عمداً أو عن غير عمد فإن من شأن مثل هذا الانتقال أن يثير الضحك والسخرية . ويستغل كتاب الفكاهة والمثليون هذه الخاصية من صفات المستويات وقد بيالغون في استخدامها . ونحن نذكر تلك الحلقات الشهيرة التي شغلت مشاهدي التليفزيون في رمضان في العام الماضي والتي قام جزء كبير من عوامل الإضحك فيها على خلط بطلها « المعلم عماشه » بين المستويات المتباعدة على السلم اللغوي للمجتمع .

وبعد - فهذه نحة من واقنا اللغوي المعاصر حاولنا فيها أن نصدر عن المشاهد المحسوس وأن نلتزم به . كما حاولنا في الوقت نفسه أن نفرق في عرضنا له بين الحقيقة وبين التفسير الذي قدمناه لها ، حتى نترك لغيرنا فرصة إعادة الملاحظة والاستقراء بنفسه ثم تفسير ما يلاحظه بعد ذلك بالطريقة التي يراها هو مناسبة .

ثبت المراجع

ثبت هنا من المراجع ما اتصلت مادته مباشرة بما تناولناه في هذا البحث

أولاً - المراجع العربية :

الكتب :

١ - د. إبراهيم أنيس

من أسرار اللغة

الطبعة الثانية

الأنجلو المصرية ١٩٥٨

٢ - أبو حاتم أحمد بن حنبلان الرازي

الزينة في المصطلحات الإسلامية العربية ،

تحقيق حسين بن فيض الله الحمداني

ج / ١ القاهرة ١٩٥٦

ج / ١ القاهرة ١٩٦٨

٣ - أبو الفرج بن إسحق الوراق المعروف بابن أبي يعقوب النديم

الفهرست فخر جوستاف فلوجل ليبزج ١٨٧١

٤ - أبو عبد الله محمد بن أحمد

مفاتيح العلم

الطبعة المنيرية ١٣٣٢

ابن يوسف (الخوارزمي)

٥ - أبو عثمان عمرو بن بحر (الجاحظ)

البيان والتبيين / تحقيق

٦ - القاهرة ١٩٤٩

عبد السلام هارن

٦ - (الجواليقي) أبو منصور موصوب بن أحمد بن محمد بن الخضر

المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم

لبيبا ١٨٩٧

- ٢٠ - مولوى حسيني
الإدارة العربية / ترجمة د إبراهيم العدوي
الألف كتاب بدون تاريخ
- ٢١ - الدكتورة نفوسة زكريا
١ - تاريخ الدعوة إلى العامة وآثارها في مصر
المعارف ١٩٦٤
- ب - عبد الله النديم بين الفصحى والعامة
الدار القومية ١٩٦٦
- ٢٢ - ويجلى رزق غالى
المعجمات العربية
المهينة العامة للتأليف والنشر ١٩٧١
- ٢٣ - يوهان فك العربية
دراسات في اللغة واللهجات والأساليب
الخانجي ١٩٥١
ترجمة د. عبد الحلیم النجار

الدوريات :

- ١ - جريدة الأهرام .
٢ - جريدة الأخبار .
٣ - مجلة مجمع اللغة العربية .
٤ - محاضر جلسات مجمع اللغة العربية .

تسجيلات :

اعتمد البحث بصفة أساسية على كمية كبيرة من الأشرطة المسجلة لبرامج الإذاعة والتلفزيون بين عامي ١٩٧٠ - ١٩٧٢ ، كما اعتمد على تسجيلات أخرى لمحاضرات جامعية مختلفة .

- ٧ - أحمد تيمور
معجم تيمور الكبير / تحقيق
د. حسين نصار
والنشر ١٩٧١
المهينة العامة للتأليف
- ٨ - د. تمام حسان
٩ - توفيق الحكيم
الصفقة
الورطة
مناهج البحث في اللغة الأنجلو المصرية ١٩٥٥
مكتبة الآداب المصرية بدون
تاريخ
- ١٠ - د. زكي مبارك
اللغة والدين والتقاليد في حياة الاستقلال
عيسى الخاوي ١٩٣٦
مطبعة التقدم /
بدون تاريخ
- ١١ - عبد الرحمن خلدون
المقنعة
- ١٢ - (السيوطي) عبد الرحمن جلال
المزهر في علوم اللغة
عشرة أدياء يتحدثون
كتاب الهلال
- ١٣ - فؤاد دواره
مصر الجديدة ومصر القديمة
مكتبة التأليف
القاهرة ١٩١
- ١٤ - فرح أنطون
- ١٥ - دكتور كمال محمد بشر
علم اللغة العام / قسم الأصوات
المعارف ١٩٧٠
- ١٦ - د. محمد مندور
مسرح توفيق الحكيم
الخيار رقم ١٣
مطبعة دار الهلال
١٩٤٩
- ١٧ - محمود تيمور
- ١٨ - محمود عوض عبد العال
سكر مسر
سلسلة كتابات معاصرة
١٩٧٠
- ١٩ - مكتبة صادر
فرح أنطون / حياته - أدبه -
مقتطفات من آثاره
١٩٥٠

ثانياً - المراجع الأجنبية

- (1) Blau, Joshua. The emergence and linguistic background of Judaeo - Arabic. Oxford University Press, 1965.
- (2) Ferguson, C.A. Aradic Koine, Language, 1959.
- (3) Haywood John A. Arabic Lexicography, Brill, Leiden, 1960.
- (4) Harrell, Richard S. Contribution to Arabic Linguistics, Harvard University Press. 1964.
- (5) Killean Carolyn G. Mixed style in Egyptian Arabic. University of Chicago 1970.
- (6) Mitchell, T.F. An introduction to Egyptian colloquial Arabic, Oxford University Press. 1956.

phonetics-acoustics.blogspot.com

محتويات الكتاب

الصفحة

١٦ - ٧

مقدمة : عن المنهج

ص ٧ الحاجة إلى المنهج العلمي في معالجة مشاكل اللغة العربية - من أهم هذه المشاكل حقيقة التركيب اللغوي للمجتمع المصري - الفصل الحاد بين كيان القصحى والعامية في الاستعمال اللغوي في مصر أمر يثنائي مع الواقع - ص ٨ طبقات المجتمع الثقافية والحضارية متداخلة بصورة يتعذر معها الفصل بينها - ص ١٠ لغة المجتمع المصري متدرجة من أقصى درجات القصحى إلى أدنى طبقات العامية وتتداخل فيها يشبه السلم اللغوي - لكل فرد مركز على هذا السلم تحدده خلفياته الثقافية - ص ١٣ يتغير هذا المركز تبعاً لتغير ثقافة الفرد - ص ١٤ ينطبق هذا على لغة المجتمع أيضاً - ص ١٥ الإصلاح اللغوي للفرد وللجماعة يكون تبعاً لذلك بإصلاح مقومات حياتهم الحضارية .

٤٧ - ١٧

الفصل الأول : الأصول التاريخية للمستويات اللغوية

ص ١٩ أربعة أحداث حضارية كبرى أثرت على تطور اللغة العربية أكثر من غيرها :

الحدث الأول : ظهور الرغبة الجماعية لدى سكان الجزيرة العربية في إيجاد مؤسسات عامة تمتد خارج حدود القبيلة - نشأة نوع عام من اللغة يمتد خارج حدود لغة القبيلة أيضاً (الازدواج اللغوي) - ص ٢٢ الحدث الثاني :

مجىء الإسلام بأفكار جديدة استدعت وجود قوالب تعبيرية موازية لها - ص ٢٣ الحدث الثالث : استيطان العرب خارج الجزيرة مما فرض على اللغة العربية مهمة التعبير عن مقومات حضارية ليس لهم بها عهد - ص ٢٧ ظهور الحاجة إلى مفردات إضافية - ظهور اللاحن - ص ٣٨ حركة تعويد الفصحى جدد قوالبها وفصلت بينها وبين العامية فصلاً حاداً - ص ٤٠ تخصص كل من العامية والفصحى بدور في المجتمع - ص ٤١ الفشل في تعلم الفصحى ساعد على خلق مستوى لغوي ثالث - ص ٤٦ الحدث الرابع : مجىء الحملة الفرنسية وانفتاح المجتمع على صور حضارية ليس لأهله بها عهد - اضطراب اللغة أمام الطوفان الحضارى الوافد - ظهور ألوان تعبيرية جديدة - ص ٤٧ اضطراب حركة التقييم العلمي لهذه الألوان - الرغبة في الإصلاح لا بد وأن يسبقها وصف واقعي للصورة اللغوية في المجتمع - وهو هدف هذا البحث .

الفصل الثاني : المستويات في مصر كما يراها الباحثون ٥٠ - ٨٦

ص ٥١ التفريق بين مصطلحات : « المستوى اللغوي » و « اللهجة » و « اللغة » و « المجتمع اللغوي المتكامل » - آراء الباحثين في لغة المجتمع المصري الرأى الأول : ص ٥٤ الفصحى وحدها هي لغة المجتمع وما سواها مجموعة من الأخطاء - ص ٥٥ الرأى الثاني : العامية لغة قائمة بذاتها وهي قسم للفصحى في المجتمع - دلائل استقلال العامية - ص ٦٧ الرأى الثالث : اللغة الوسطى تنقسم مع الفصحى والعامية النشاط اللغوي في المجتمع المصري - جهود فرح أنطون في استخدامها - ص ٧٠ محاولات توفيق الحكيم في اللغة الثالثة - ص ٧٢ تقييم تجربة توفيق الحكيم - ص ٧٨ القول بوجود مقويات في الفصحى أيضاً ودراسات الفرييين في هذا الشأن - ص ٨١ وجهة نظر الدارسين في مصر .

الفصل الثالث : مستويات العربية في مصر المعاصرة

ص ٨٩ وجود خمسة مستويات لغوية هي ما يمكن تسميته : فصحي التراث وفصحى العصر وعامية المثقفين وعامية المتورين وعامية الأميين - تحديد مبدئي لهذه المستويات - ص ٩٢ العوامل التي تحكم تفاعل هذه المستويات بعضها مع بعض - ص ٩٣ انسياب المستويات داخل بعضها البعض نتيجة لتصارع عوامل للفصل وأخرى للمزج بينها - ص ٩٦ قواعد التفريق بين المستويات - ص ٩٧ الصفات اللغوية التي تميز كلا من المستويات الخمس : ترجع هذه الصفات إلى الفصحى والعامية واللغات الأجنبية - ص ٩٨ تختلط هذه الصفات بنسب متدرجة ومنتظمة - ص ٩٩ كيفية توزيع صفات الفصحى على المستويات الخمس - ص ١٠٦ امتزاج هذين النوعين من الصفات بصورة منتظمة - ص ١٠٨ نصيب المادة القادمة من اللغات الأجنبية في هذه المستويات - ص ١٠٩ النظام الذي يسير عليه تسرب النخيل إلى كل من المستويات الخمس - ص ١١٨ الأسس التي أتيت هنا في اختيار الصفات اللغوية المستخدمة في المقارنة بين المستويات - ص ١١٩ الصفات الخاصة بكل من المستويات الخمس على حدة :

الصفات اللغوية التي تميز فصحي التراث : الفرق بين

« فصحي النحو » و « فصحي التراث » - ص ١٢٠ الصفات المختارة للدراسة - ص ١٢٠ الأصوات - ص ١٢٤ بنية الكلمات - ص ١٢٥ بنية الجمل - ص ١٢٦ نموذج لهذا المستوى .

الخمس : مستويات تكتسب بظروف الميلاد فقط - ص ٢٠٤
 مستويات تكتسب بالتلقين المدرسي فقط - ص ٢٠٥
 مستويات تكتسب عن طريق التلقين المدرسي وظروف الميلاد
 معاً - ص ٢٠٦ علاقة عدد المستويات التي يحسنها الشخص
 بدرجة ثقافية .

ص ٢٠٧ أسس الانتقال بين المستويات أثناء الحديث -
 المستويات التي يتم بينها الانتقال - ص ٢٠٨ اتجاه الانتقال
 بين المستويات (صعوداً أو هبوطاً) ومداه - ص ٢٠٩ نماذج
 الصعود في المستويات - ص ٢١١ نماذج للهبوط في المستويات -
 ص ٢١٢ خاتمة .

phonetics-acoustics.blogspot.com

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
 تحت رقم ١٩٧٣/٣٨٨٥

مطابع دار المعارف بمصر
 سنة ١٩٧٣

ص ١٢٧ الصفات اللغوية التي تميز فصحي العصر :
 تحديد هذا المستوى - ص ١٢٨ انشعاب هذا المستوى إلى أتماط لغوية
 وأمثلة لها - ص ١٣٤ الصفات التي تصلح أساساً للتفريق بين
 فصحي العصر وفصحي التراث - ص ١٣٦ الصفات التي
 تستخدم لتحديد فصحي العصر - ص ١٣٦ الأصوات -
 ص ١٣٩ بنية الكلمات - ص ١٤١ بنية الجمل -
 ص ١٤٥ نموذج مسجل من الإذاعة لهذا المستوى .
 ص ١٤٨ الصفات اللغوية التي تميز عامية المثقفين : تحديد
 عام لهذا المستوى - ص ١٥٠ أسباب ازدهار عامية المثقفين -
 ص ١٥١ المنابع التي تستقى منها عامية المثقفين - ص ١٥٥
 الصفات التي تستخدم في التعرف على عامية المثقفين -
 ص ١٥٥ الأصوات - ص ١٦٦ بنية الكلمات - ص ١٦٩
 بنية الجمل - ص ١٧٣ نموذج لعامية المثقفين .
 ص ١٧٥ : الصفات اللغوية التي تميز عامية المتورين :
 تحديد عام لهذا المستوى - ص ١٧٨ الصفات اللغوية التي تستخدم
 لتحديد عامية المتورين - ص ١٧٨ الأصوات - ص ١٨٤
 بنية الكلمات - ص ١٨٤ بنية الجمل - ص ١٨٧ نموذج
 مسجل لهذا المستوى .
 ص ١٨٩ : الصفات اللغوية التي تميز عامية الأميين :
 تحديد عام لهذا المستوى - ص ١٩٢ الصفات اللغوية التي تستخدم
 لتحديد عامية الأميين - ص ١٩٣ الأصوات - ص ١٩٦
 بنية الكلمات - ص ١٩٧ بنية الجمل - ص ١٩٨ نموذج
 مسجل لهذا المستوى .